آتشفشان

اسم الرواية: انشقاق الأمل

اسم المؤلف:نداء قاسم

تدقيق لغوي: عبد الفتاح السيد

تصميم الغلاف:محمد دربالة

تنسيق داخلي: أسماء عطا

رقم الإيداع: ٢٠٢١/٢٣٢٢

الترقيم الدولي: ٢-١١٠-٨٤٤-٩٧٧-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة للناشر

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه للمساءلة القانونية والآراء والمادة الواردة

وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

E.mail:EBHARPUPLISHING@GMAIL.COM

MOBILE: 01060267401

نـــداء قاســم

تشقاق الرمل

﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾

روايـة

إبـهـار
للنشر و التوزيع

إهداء..

إلى جابري الخواطر؛ لا تصفو الدنيا إلا بكم.

نداء قاسم

ليست مقدمة، ولعله إهداء آخر..

أخبرتني أنها تركت إهداءً ها هنا؛ فليتحرّى أحدكم عنه..

تعلمون ما هو أشد قسوة من عدم تحقيق الأحلام.. أن يدعو أحدهم..

اللهم حقق له أمانيه، وأفقده لذة الفرح بها

فتصيبه الدعوة!

نداء قاسم

غروب الشروق! شروق الغروب!

روح تتساءل.. هل بدأت بغروب وانتهت بشروق؟

أم بدأت بشروق وانتهت بغروب؟

هناك حيوات لا نعلم أبدأت من نهاية البداية أم انتهت من بداية النهاية؟!

"بداية النهاية ونهاية البداية"

يقف «ياسين» أمام منزله يحمل بيده ثلاث زهرات حمراوات اللون.. هامد الجسد.. مشوش الذهن.. أيدخل أم يعاود اللحاق بالفتاة بائعة الزهور التي أفلتت منه؟.

قبيل شروق الشمس بدقائق.. رآها من شرفة غرفته، وهو يطالع بعينه الكئيبة ظلمة البحر ويقارنها بظلمة عقله.. البحر لا يقبل الاستكانة كما عقله تمامًا.. هو فقط يُجيد البطش به لا سواه.

كل يوم مع غروب الشمس وزوال نورها.. كل لحظة يكون فيها بمفرده.. كلما أغلق عليه باب عقله.. يتذكر كلمات والده شنيعة المذاق.. «أنت تقف على عتبة الحاضر، تدير لها ظهرك ووجهك، مازال عالقًا بنظراته نحو الماضي

تُوفي والده منذ ثلاثة أعوام، إلا أن كلماته حية بعقله.. تنهش به.. تُجيد اقتحام خلوته.. تعريه وتبدي سوءته أمام نفسه..

هو ببساطة يخاف الماضي.. ولا يعي من الزمن غيره.. عقله لا يستطيع تجاوزه.. مهما حاول تتكالب عليه الذكريات بسيئاتها، سيئاتها فقط.

رآها تخرج من شارع جانبي ضيق.. تابعها حتى وصلت للطريق الرئيسي حيث السيارات.. فتحت حقيبتها المصنوعة من الخيش، وأخرجت عددًا من الزهور لم يتبين له كم؟.. ثم بدأت كعادتها؛ رحلتها في طرق السيارات وإيقاف المارة.. ومع أنه يراها كل يوم، إلا أنه لم يفكر قط بضمها للآخرين.. فعمرها الكبير نسبيًا سيصعب عليه مهمة خداعها؛ لترافقه بملء إرادتها، فالكلام اللطيف والحلوى لن يجدي نفعًا كما يفعل مع الصغار.

إلا أنه اليوم نزل لها، وبعد أن ابتاع ثلاث زهراوات سألها عن عائلتها؛ فنظرت له بخوف للحظة واحدة، ثم هرولت مسرعة، وفرت من أمامه بسهولة كان يستطيع اللحاق بها، فالشارع فارغ نسبيًا، وكان يستطيع الإدعاء أنها سرقت حافظة نقوده.

ظل مكانه يناظرها بقنوط رهيب، يتساءل ما الذي أخطأ بالتفوه به؟..

حتى أنه نسي كيف صاغ السؤال؟..

يتابع تنورتها السوداء المنقوشة بزهور صفراء دقيقة الحجم، بها شق كبير يصل لركبتيها؛ فتتطاير للخلف.. مشهد جعله لا يقوى على إغلاق عينه.. وهو يتذكر صورة لوالدته وهي تجري التقطها لها والده من الخلف ببداية زواجهما.. بتنورة مفتوحة كهذه تمامًا، الفرق الوحيد أن صورة والدته باللون الأبيض والأسود.. كان كلما أمسك الصورة تخبره أمه أنها صورتها المفضلة، وتحكي له تفاصيل ألوان ما كانت ترتديه.

أخرجه من شروده صوت التأوه الذي عبر من شفتيه.. فنظر لراحة يده حيث الزهور، فرأى قطرة صغيرة من الدماء.. عجيب هل تبيع الزهور بأشواكها؟! بل الأعجب أنه شعر بوخزة ضئيلة لا تذكر كهذه.

دلف للمنزل؛ فوجد شقيقته «فرح» تجلس بالردهة في انتظاره.. تحرك ينوي مفاداتها.. إلا أنها أوقفته بحركة من يدها.. فوقف مكانه مولياً ظهره لها.. كعادته كلما جاورها أو لمحتها عيناه.. وحين طال الصمت، أجبر نفسه على إدارة وجهه لها لأقل من برهة.. وكما توقع لمح في عينيها حديثًا سيزعجه..

- لم يتبقَ إلا شهر واحد على زواجك ولم تخبرها بعد.. هل ستنتظر حتى تكتشف هي بنفسها؟

- لن أخبرها الآن.

تحركت شقيقته، وأمسكت كفه تحثه على الجلوس.. فانصاع لها دون كلام، وهو مغمض العينين.. وقالت تفتح مجالًا للحديث على أمل ألا يكون رثًّا كالعادة، ولايفيد..

- سيكون عقد الزواج باطلًا إن لم تخبرها بالأمر، وستستطيع فسخه دون طلاق.

عقد ياسين حاجبيه بقوة تميل للقسوة.. يقلب المسألة برأسه، ولايجد لها صدى بعقله.. قلبه يصرخ «ستتركك! ستتركك! بها شيء من رائحة أمك! بها شيء من رائحة أمك! أمسك رأسه، وهزها نافيًا.. يتمنى أن يغادر عقله التفكير..

- وإن رفضت؟

- حقها.

تلبس وجهة حالة من الرفض.. وتحولت نظرة عينه لبرود غيم مفاهيم الحق.. عقله يدور، ويدور لعلة لا يملكها.. كثرة التفكير تأتي بالخراب المطلق أو الجنون المطلق أو الموت السريع..

وحينها ترك الجواب لقلبه.. «أين حقي أنا؟» لكن شفتاه تأبى النطق..

- هل الزهور تستحق أن تخرج لتشتريها بهذا الوقت؟.

ارتعش جانب خده الأيسر.. ومالت شفتاه للجانب في إشارة غير واضحة، أسخرية هي أم حسرة تقيده؟! نهض ينوي صعود غرفته.. وجسده يستشعر عدم الراحة في الجلوس.. وقبل المغادرة ألقى إجابة فاترة..

- تستحق!

"صوت موشوم بأصابع كف وقدم"

-أعلم أنك تسمعني!

أخرجت زفيرًا مهترئًا غير واثق.. مشحف بجلد ميت أتمنى تجديده؛ لأخرج بكامل صحتي لا أن أكون ضعيفًا متضائلًا فلا تخشاني..

لست أعلم إن كنت تسمعني أم لا.. لكن هذا لن يثنيني عن التوقف.. ربما أكون ضبابيًا بالنسبة لك الآن..

إني أنتظر بشوق زوالك.. وأنتظر تبادل أدوارنا.. ومع أني على يقين أنك تماثلتي اختناقًا.. فأنت لم تتحلل من ثوب الخطيئة بعد.. ولا ألومك، فالتحلل من خطيئة كهذه شبيه بالمستحيل.. وإلا لم قد لذت بي؟

للحماية والهرب من الألم.. تعلم أني كنت نِعْم المسكن لك.. وفشلت بابتلاع دوائي.. ثم لمتني.. وكم من السهل لوم الناس على فشلنا وأخطائنا!.. وصرت ترفضني وكأني السبب بما آلت إليه حياتك.. بعد أن عاشرتك كل هذه السنين، أتظنني أبله لأصدقك.. وأصدق حججك الواهية.. ما أنت سوى كائن رخو هش.. لاذ بقشرة صلبة من اللامبالاة والتجاهل..

ما بالي أنوح كالنساء! أكره التشبه بهن.. آه.. نعم إنه أنت الذي تشبههن.. كائن بلا وصف غير مفهوم حتى لنفسه!

أف أف.. الحل الأمثل لحيرتي وهواني ودنو ذكراي.. أن أجمع الحصى، ثم أبعثرها لعلي أجد حصى عقلك؛ فأقلب كيانك.. لعلك تتذكرني!

هل نبدأ ب(هل)؟ أم ماذا ولماذا؟

يقف «ياسين» يستقبل التهاني.. فاليوم هو الافتتاح للفرع السابع لسلسلة معارض السيارات التي يمتلكها هو وشريكة «أسعد» والفرع الثاني بالاسكندرية.. مدينته حيث ولد ونشأ..

رأى «نيار» تتجه صوب الباب هي وشقيقها.. فعقد حاجبيه بتذمر.. واتجه ناحيتهما.. ناداها بصوت عالٍ بعض الشيء:

-(نيار)! ما الذي تفعلينه هنا؟

تبادلت «نيار» النظر مع شقيقها باستغراب.. قطبت حاجبيها بعدم راحة.. تستشعر انزعاجه من قدومها..

- ألم يكن قدومي متوقعًا!

لا ينكر انزعاجه من قدومها خاصة وهذا الحفل ما هو إلا استعراض يُخفي حقيقة ما يحدث.. وكل الحضور من اللصوص أمثاله.

اقشعرّ بدنه بنفور حين انتبه للون فستانها الأخضر.. نكس رأسه بتعب، وهو يُحاول عدم التذكر، لكنه يفشل ورغمًا عنه يشرد، أمه كانت ترتدي عباءة خضراء وهو حولها لحمراء لزجة! ارتشف بعضًا من العصير الذي بيده، وابتلعه بصعوبه.. قال:

- أنتِ فقط لم تخبريني سابقًا.. استمتعا بالحفل دقائق، وسأرافقكم.

غادر مسرعًا للحمام يُفرغ ما بجوفه.. ووضع رأسه تحت رذاذ الماء.. ثم استل محارم ورقية، وجففه بشرود، شرد بأفكاره بعيدًا.. إنه خائف من معرفتها.. شخص مثله غير صالح للزواج بل غير صالح للحياة.. لكن أليس من حقه أن يرتشف شيئا من السعادة؟!.. يتمنى فقط ألا تعرف قبل العرس.. يموت ذعرًا حين تراوده الأفكار أنه قد يؤذيها.. يا إلهي، إنه يخاف على نفسه من نفسه، فكيف لا يخاف عليها؟!

هي القطعة الحية من أمه.. صوتها كصوت أمه، لا فرق بينهما.. حين تتكلم يشعر أن أمه مازالت على قيد الحياة، ويستطيع النظر لها براحة دون أن يشعر بأي شعور يؤذيه.. ليس كشبه الوجه لشقيقته، فهو لا يستطيع

النظـر لهـا مطلقًا..

أخـرج علبـة سـجائره.. يدخـن واحـدة، ثانيـة، ثالثـة، رابعـة، ثـم توقف بقلق حتـى لا تعلـق بـه الرائحـة أكـثر.. يعلـم جيـدًا كيـف تتحسـس «نيـار» منهـا وتكرههـا.. وبـم أنـه لا يسـتطيع الإقـلاع عنـه فإنـه لا يدخـن بحضورهـا..

حـين عـاد إليها.. اسـتأذن شـقيقها؛ لترافقـه لدقائـق.. ثبتّ عينه عـلى وجهها.. يحـاول بصعوبـة عـدم الالتفـات لمـا ترتديـه.. أمسـك كفهـا بقـوة، وكأنه يتشـبث بقشـة النجـاة.. بصعوبة ابتسـم لهـا.. حـاول التحدث بطبيعتـه المعتادة:

- يليق بك اللون الأخضر يا وردة! تبدين وكأنكِ.....

تحركـت شـفتي «نيـار» تريـدان النطـق.. إلا أنهـا صمتـت، هـي تعلـم أنـه مـا إن يبـدأ بالـكلام بهـذا الشـكل لايتوقـف.. تنهـدت بخفـوت.. حتـى وهـي تكـره كلامـه هـذا، ومهـما نهرتـه ..هـي تسـتمتع بـه.. ويـزداد تأثرهـا بـه.. بتلكؤ تشـكلت ابتسـامة عـلى ثغرهـا.. وكيـف لا تتأثـر؟! لديـه سـحر خـاص الأعمـى يلاحظـه، يكفـى هـذا الغمـوض الـذى يملكـه.. يجيـد انتقـاء الكلـمات.. لاتعلـم كيـف يمتلـك شـيئًا مـن المـرح وشـيئًا مـن الصمـت؟!

بغرفتهـا الخاصـة.. تجلـس «نيـار» عـلى فراشـها يتآكلهـا القلـق.. تهز سـاقيها بعصبيـة.. منـذ مكالمـة أمـس الغريبـة.. وهاتـف «ياسـين» مغلـق كـما هاتـف شـقيقته تمامًـا.. حـين عـادت للبيـت ليلـة أمـس، اتصلـت عليـه؛ لتطمئنـه عليها كـما طلـب.. رد عليهـا شـخص آخـر بنـبرة حـادة فظـة.. حتـى ظنـت أنـه سُرق منـه بالحفل..

نظـرت للسـاعة فـوق الكومـود المجـاور للفـراش بعبـوس.. مازالـت السـاعة لم تتعـدَ السـابعة صباحًـا.. هـل تذهـب لبيتـه؛ لتطمـئن عليـه أم تنتظـر بعـض الوقـت؟..

بتوتـر تحركـت لشرفتها تنظـر لأوراق الخريـف المتناثرة في الشـارع.. مـا زالت أوراق الخريـف ترسـم صـورة رائعـة لحيـاةٍ بـلا طعـم، نسـمة بـاردة مـن الهـواء لفحـت وجههـا.. مـدت يدهـا تحـاول التقـاط بعـض الوريقـات لكـن عبثًـا.. كلما

فشلت كلما أخرجت جسدها أكثر.. كادت أن تقع عندما رن هاتفها.. ولكنها تمسكت بحافة الشرفة تزفر براحة، عادت بجسدها للداخل.. فتحت الخط وهى لاتزال تلتقط أنفاسها بطريقة سريعة وحين تأكدت أنه هو.. قالت بنبرة متكدرة:

- هل من عادتك أن تترك هاتفك ليرد عليه أيًا يكن؟

تصلب ياسين بالكامل، وأوشك أن يترك نفسه لهواجسه تتصارع.. للآن لم ينم، لقد قضى الليل بأكمله يتنقل من زقاق لآخر بحثًا عن الأطفال.. هناك من يأتي طواعية.. وهناك من يأخذهم قسرًا.. وهناك من يأتى بالحيل كما حدث ليلًا.. لكن الطفل لم يتوقف عن الصراخ حين أدخله السيارة، وحينها اتصلت به «نيار» وفتح الاتصال بالخطأ فكمم فمه.. كي لا تسمع صراخه وهو يجيبها بحدة.. حتى أنه غير نبرة صوته .. ولتعتقد هى أى شيء.. وليبرر هو لاحقًا.. أوصل الصبي للمكان المخصص.. وظل يهيم على وجهه بالشوارع حتى بزغت الشمس.. حقيقة الأمر هو يلهي روحه عما يمثل اليوم.. اليوم صاحب أسوأ حدث مر بحياته.. نتيجة لأفكاره المكتظة بالصراعات.. خرج من فمه حروفًا تشكل أفكاره..

- سنوية أمي اليوم.

بعد أن أغلق الخط معها.. وجد «فرح» تدخل غرفته.. أوشك أن يترك الغرفة لها، ويخرج.. لكنها سبقته، وهمست بتعب:

- أنا فقط جئت؛ لأذكرك.

أكمل هو عنها:

- أنّ اليوم سنوية أمكِ.

تمتمت بصوت حزين وتجمعت الدموع بمقلتيها:

- أمي! نعم أمي! كنت قطعة منها.. أما أنت فلا.

(قطعة منها).. صنيع الكلمة به كصنيع مطرقة وقعت على قلبه، فقامت بفتفتته وصداها به كدودة تنخر أحشاءه.. تزرع به ألمًا لا يُحتمل، وتمنعه من القيام بأي رد فعل.. ألم يكن هو أيضًا قطعة من أمه! وأمه كانت محور حياته!

بينما أردفت هي بشرود يخالطه الحسرة والفقد:

- لقد اشتقت لها جداً.

بدأت حبيبات البكاء تنهمر من عينيه هو الآخر:

- وأنا أيضاً أشتاق..

توقفت الحروف في حلقه.. فأغمض عينيه بحسرة.. فقلبه يشتاق وعقله ينافيه.. كيف يكون السبب بموتها ويشتاقها؟! كيف يكون السبب بعذاب شقيقته ويواسيها؟! كيف يكون السبب ببؤسها ويتجاهله؟! كيف للحياة أل ا تُميت من هو مثله؟! لا يعلم كيف عاش للآن! مُذنب.. ويعيش حراً طليقًا! يؤذي نفسه وعائلته! لم يشعر بنفسه إلا وصوت بكائه يرتفع.

- أنا أتألم.

امتدت يدها؛ لتربت على كتفه.. ومع أن يدها كانت حانية عليه إلا أن صوتها كان قاسيًا بدرجة سامة..

- وماذا عن ألمي أنا؟ ألست أنت السبب فيه؟ ألست أنت السبب بموت أمي وأبي؟.. ألست أنت سبب الحرمان الذي أتمرغ فيه؟.. انظر لوجهي، وأخبرني أنك لست السبب.. مع الأسف أنت لا تستطيع.. ألست ترى وجه أمي بي؟ إلا أني مع الأسف لا أراه.. لا أراه إلا سببًا يزيد كرهي لكَ.

أغمضت عينيها بألم بعد أن جاورته.. حاولت ببطء أن تحتضنه.. شعرت بانكماشه ونفوره منها.. ومع هذا حافظت على ثباتها.. تقسم أنها تعبت، وملت من التعب.. منذ توفت والدتها وهي تدور في دوائر لا متناهية من الغضب.. وتضخم الأمر بصورة متفاقمة حين توفي والدها.. كأن أحدهم ألقى بها في متاهة، وكلما حاولت الخروج فشلت.. فتهدلت طاقتها، وأيقنت أن المتاهة مقفلة بلا مخرج! حتى فرض التسامح نفسه عليها فرضًا.. وكلما رفضته ولفظته لفظًا وكأنه شيء قميء الطعم، اللون، الرائحة.. كلما دس نفسه، وتوغل بها أكثر ببراعة انتشار الألوان حين تُقذف في المياه..

شدت من عناقه.. دائمًا بينهما حاجز، برود في السكون والأحرف.. فلمَ لا يكون اليوم؛ يوم الانقشاع؟..

- لقد سامحتك اليوم.

سامحته! كيف تقول أنها سامحته؟ هو لا يستحق.. لا يستطيع أن يغفر لنفسه ليطلب منها المغفرة .. خطيئته لا تُغتفر، لقد قتل أمه بيده، بقى صامتًا لوقت.. ثم قال ما صدمه..

- هل يمكن أن تكون أمي سامحتني؟

لم يشعر بخروج الكلمات من فمه إلا عندما التقطتها أذناه..

وبكل سلام نفسي أجابته..

- إنها أم.. وقلب الأم دائمًا يسامح.

إنه رجل.. لا.. سيكون من غير المنصف أن يضم نفسه لصفة الرجال، إنه ليس برجل.. وإن استعار التشبيه لسلامة الجملة ليس إلا.. هو رجل يهوى الاختناق والخنق.. يهوى ركوب الأمواج لبحر لا موج له..

هذا الصوت الذي يسمعه صوت مألوف.. كأنه سمعه قبلًا؟ أيكون صوته وهو لا يدري؟

صوت من هذا الذي يقتحم خلوته مع نفسه.. صوته هو واحد.. صوت نفسه اثنان.. وهذا الصوت الثالث من أين أتى؟.. أيكون عفريتًا من الجن سلط عليه؟ ومن هذا الذي سلطه عليه؟ أتكون شقيقته؟ يعلم بكرهها له.. لكن أيصل كرهها لفعل شيئًا كهذا؟ ربما، وهل يلومها؟ ألحق جهتها ولا سبيل لرفع هامته وسؤالها لمَ فعلت شيئًا كهذا؟.. أحيانًا لا يزول الألم إلا بألم مماثل.

وربما صوت ذنوبه.. نعم.. قد يكون هذا التفسير المنطقي.. فأصابعه تهوى الذنوب، وتتلمس الطريق إليها ولو بخطوات دامية.

"٥"

مرت خمسة أيام وما زالت كلمات والدة «عمار» اللاذعة تدوي بعقل (سچور).. «أنا أعرف ما يدور بينك وبين ابني، أريدك أن تبتعدي عنه.. أنهي علاقتك به.. لا أريد لشيء أن يجمعكما غير العمل، فأنت لا تليقين به ..انظري لثيابك! أنا لست عديمة البصر كي لا أرى أنكما علي علاقة

لم تنطق بحرف.. لقد أوشكت على البكاء، ولا تعلم من أين أتتها القوة للثبات؟.. فقط نظرت لها بصمتٍ متجهمٍ. انظري لثيابك، هذه الكلمة أذتها بشكل لا يطاق.. منذ ذاك اليوم وهي تشعر بالنفور من نفسها.. تقرف من النظر للمرآة وحين تفعل تنظر لكل شيء عدا انعكاسها.. أكل هذا التقريع، لأنها لا ترتدي الحجاب؟!

أجفلت على صوت «عمار» المرتفع يناديها.. فنظرت له بصمتٍ دون أن تُجيب.. فقال بقلق:

- أنا أناديكي منذ فترة وأنت ساكنة لا تتحركين .. فيم كنت شاردة؟

- أنا متعبة قليلاً، ولا أستطيع التركيز بالتدريب.. سأذهب للبيت.

اقترح أن يُقلها.. فاعترضت.. ولكنه أصرّ.. فارتفع صوت تنفسها.. وهتفت بانزعاج، وقد انفلتت أعصابها دون إرادة منها:

- ومن أنت لترافقني؟!

أمسك يدها كي يبتعدا عن البقية حتى لا يلفتا النظر.. منذ أيام وهي ليست بطبيعتها، يريد أنْ يعلم.. لذا ألح عليها بمعرفة سبب شرودها الدائم.. فقالت:

- أخبرني.. هل أخبرت والدتك عنا؟

اتسعت عيناه بصدمة، وهز رأسه نافيًا باستنكار.. هل أذتها أمه بشكل من الأشكال؟

أردفت:

- تريد مني الابتعاد عنك، فأنا لا أليق بك سيد «عمار».. لذا رجاءً ابتعد عني فمزاجي سيء، ولا أريد التشاجر.

أغمض عينيه بضيق.. لم يخطر بباله مطلقًا أن أمه قد تفعل شيئًا كهذا، ألم يكن من المتوقع حين تعلم بعلاقتهما أن تكلمه هو لا هي؟..

بداخل السيارة.. صمت.. ولا شيء سواه يتخلل الهواء بينهما.. سيخطبها ولا حل سواه غير هذا.. ما إن يُخبر أمه بقراره، ستنفجر كالبركان، وتنثر الحمم هنا وهناك.. عندما يرجع للمنزل سيخبر «نيار» ومن غيرها ستساعده.. نظر لها بطرف عينيه.. منذ ركبت وهي تنظر من نافذة السيارة.. لايعلم أيشعر بالشفقة ناحيتها أم ناحيته.. فهو حائر، ولا يعلم كيف السبيل للحل؟.

***

وصل «عمار» للبيت.. بعد ساعات من التجول بالسيارة بغير هدى في الطرقات.. لقد كان في أشد الحاجة ليُفرغ ضيقه بالقيادة.. يضيق عقله ولا يعلم كيف سيتصرف «حنان» لن تقبل مظهر «سچور».. و«سچور» لن تقبل تعامل «حنان»؟.. أي ورطة سيتورط بها! غرفة أخته ينبعث منها ضوء خافت.. لا بد أنها بانتظاره.. دلف لغرفتها كعادته دون طرق..

هي هادئة التعامل، وستستطيع محاورة أمه وإقناعها برغبته بالزواج من «سچور».. حتى إنْ لم تستطع إقناعها.. هل الزواج بمن يحب دون موافقة أمه عقوق؟! حاشا لله أبدًا.

- "حنان» تعلم بعلاقتى ب-"سچور».

تنبهت حواسها لثوانٍ معدودة، ثم قالت بفتور:

- أتحفني بمصائبك.. ما المشكلة إن عرفت أمي؟

- المشكلة لا تكمن فى معرفة "حنان" بل بالأمر الذي قامت به.

شعرت بالتوجس، وقد تأهبت له كامل حواسها.. لا بد أنّ أمها أخبرته برفضها القاطع.. نظرت له بتساؤل.. فأخذ يرتشف من عصيرها، زفر بتعب، وقال بصوت مجهد:

- لقد أمرت أمي«سجور» بالابتعاد عني.. ولا بد أنها أحرجتها.. لكنها لم تخبرني التفاصيل.

ستسانده بقراره أيًا يكن.. اعتدلت بجلستها، وسألته باهتمام:

- وماذا ستفعل الآن؟

باغتهابالقول:

- ستقنعين أمي بها.. وسأساعدك.

نظرت له بامتعاض.. وقالت بسخرية:

- حقًا أديت ما عليك من واجب.. بل وأكثرت.

لم تكن يومًا مِن مَن يتأثرون بالكلام .. ليست صلبة ولا تمت للقوة بصلة، ولكنها لاتبالي بما يتفوه به الناس بشأنها.. لذا أصابها الاستغراب والاندهاش لقضائها عدة أيام تفكر بكلام والدة «عمار».. انساقت خلفه لمجهول لا تعرفه.. شعرت بالكره تجاه نفسها، كانت تعتقد أنها ستفخر بها.. لا لم تعتقد لقد كانت موقنة..

لا صديقة مقربة لها.. كلهنّ صديقات على الهامش.. كل طلباتها مجابة من والديها ربما لهذا السبب لم تكن بحاجة لصديقة مقربة..

"عمار"، ليس ضعيف الشخصية كي يجاري والدته.. إنه يفعل ما يريد وهو يريدها.. لقد تصرفت معه ببرود ولكنه يستحق.

إنه التدريب الأخير قبل السفر.. كعادتهم كل عدة أشهر يقضون ثلاثة أيام بمحافظة أخرى لتوسيع انتشار مسرحياتهم .. لقد اتصل «عمار» وقال إنه سيتأخر ولم يأتِ للآن وأوشك وقت الراحة على الانتهاء.. أخذت نفسًا عميقًا، وتحركت لتكمل تدريبها.. فوجدته يُحدث زميلهم «أيمن».. ذهبت بالقرب منهما؛ وجدت «عمار» يؤدي دوره؛ ليساعده في التمرين.. التفت إليها، وتوقف عن الحركة وسار نحوها.. وهى تتساءل لِمَاذا لم تره وهو قادم؟.

تريد التعامل معه كالسابق، ولكنها لا تقدر لذا ستمسك الحبل من المنتصف، وتعامله بحيادية كي لاتتضرر.. تتمنى ألا يطول الأمر مع والدته أو يذهب كل شخص بحاله، ويجد طريقه الخاص مع شخص آخر.. تعلم أنها ستتألم بل تتألم منذ الآن.. لا هي فى منطقة مضيئة ولا حتى منطقة مظلمة.. وكأنها محبوسة بغرفة، وتعلم يقينًا أنه يقف أمام بابها ومعه المفتاح..

فقـط تنتظـر تحركـه؛ ليفتحـه، ويتحركا سـويًا.

وصـل "عـمار" إليهـا، ووقـف جوارهـا.. يسـألها عن حالهـا.. لم تجبـه وتحركت مبتعـدة كي تُكمـل تدريبهـا.. لكنه اسـتوقفها، فالتفتت له وهمسـت بهـدوء بارد:

- لا أرى داعيًا لحديث بيننا حتى تتخذ قرارًا تعرفه جيدًا.

أخفض رأسه.. وهمس بتفهم:

- لن يطول الأمرأعدك.

هـزت رأسـها بـشرود.. حبهـما مُرْتَهـن للزمـن.. لوسـيلة الإقنـاع ربمـا.. ينتظـر موظـف الشـباك كي يختمـه بالقبـول .. وهـذا الموظف ما هـو إلا أمـه؛ لذا فلتتركه لوقتـه الملائم.

***

دائمًـا مـا يجلـس «عـمار» مـع شـقيقته قبـل سـفره بيـوم.. للتناقـر بـأي شيء ولأي شيء.. يُخرجـان اشـتياقهما لبعـض قبـل الإحسـاس بـه.. لكـن اليـوم وعـلى غـير العـادة.. يُغلـف الصمـت الهـواء بينهـما.. تحتـسي «نيـار» فنجـان مـن القهـوة.. بينـما يُطالـع «عـمار» النجـوم بعـين شـاردة تسـبح في الظـلام وذهـن شـديد القتامـة.. عـلى بغتـة التفـت لهـا "عـمار"، وقـال بمـرارة:

- هل أنا سلبي الشخصية؟ انظري إلي.. أنا حتى لم أفاتح أمي بالموضوع.

نظـرت لـه بتمعن.. تستشـف سـبب شـعوره هـذا.. وسريعًـا تـدارك عقلها ما يؤرقـه.. لابـد أنّ شـيئًا حـدث بينـه وبـين «سـچور» أبسـبب كلام والدتهـا؟! ردت سريعًـا بأمل تُواسـيه:

- لا تبتـأس هكـذا سـنقنعها معًـا، سـأفتح الموضـوع غـدًا وكل يـوم حتـى تـرضى.. بالنهايـة إنهـا أمـك ولـن تجـبرك عـلى شيء، فهـي لا تريـد إلا سـعادتك.. أعـدك سـأقنعها.. ثـق بي.

لم تـزده كلماتهـا إلا سـوداوية.. غـاص بصـداع قـادر عـلى فتـك تنفسـه.. سـعادته! أمـه تراهـا وفقًـا لميولها هـي.. يقـف أمام مفـترق طريقـين.. والطريقان مهترئـان .. لايسـتطيع عبـور أي منهـما، إمـا أن يُـرضي والدتـه.. أو يـرضي نفسـه.. وكلاهـما ناقـص مـن دون الآخـر.

نظـرة عينيـه الحزينـة تتملقهـا.. ولا تعلـم السـبب ألا يجـب أنْ تكـون عيناه

تلمع.. ويتودد إليها حتى تشعر بهذا الشعور، أردفت ببعض التردد:

- أصدقني القول.. هل ترضى عن ملابسها؟

نظر لها لوهلة، وتنهد بضيق:

- لا.. لكن.. هل تتخلين عن شخص تحبيه لمجرد صفة لا تعجبك به؟.

هزت رأسها نفيًا.. فأردف:

- إذًا.. لا أملك جوابًا لك.

قرر"عمار" أن يفتح موضوعه مع «سچور"، ثم يترك والدته تفكر وهو غير موجود حتى لا تضايقه بالكلام.. وها هو يتناول الإفطار. بينما والدته تحتسي كوبًا من الشاى.. شفتاه تنفرجان بتردد.. لكن لا أصوات تخرج.. ارتشف بعض قطرات الماء من الكوب أمامه، ثم ناداها بهدوء.. فهمهمت والدته دون أن تلتفت له.. لذا أخذ نفسًا عميقًا، ونظر لشقيقته يستمد منها بعض القوة.. وقال مباشرة:

- أمي أريد أن أخطب.

عم السكون، ونظرت له والدته بصمت، ثم سألته عن هوية العروس.. فنظر لها بتوجس.. هل يلعبان لعبة أم ماذا؟ ألا تعلم؟ تنهد، وقال:

- أمي تعلمين كما أعلم أنها "سچور» لمَ اللف والدوران؟ ثم لم يكن عليك أن تُحدثيها بهذه الفظاظة .. لم أتصور أن تقومي بشيء كهذا قط يا أمي.. خاصة أن لا شيء.. معلنًا حتى الآن بيننا.. كل واحد محتفظ بمشاعره لنفسه .

نظرت له والدته بضيق تزم شفتيها رفضًا:

- هل ستعلمني كيف أتصرف؟

- لا يا أمي.. ولكن بفعلتك هذه أحرجت نفسك والفتاة أيضًا.. ووضعتني بموضع لا أحسد عليه ..حتى فى العمل لم تعد تحدثني كالسابق.

- خيراً فعلت.

- وما الذي ينقصها يا أمي؟ لا أرى ما يعيبها.

ردت أمه تلوي شفتيها بعدم رضا:

- بل قل ما الذي لا ينقصها؟

- ولكني أحبها، ألا يعني هذا لكِ شيئا؟

نظرت له بامتعاض، وهمست بفتور:

- الحب وحده لا يبني بيتاً.

نظر لوالدته بإصرار.. والعند يملأ صوته:

- وبيتي لا يحتاج سوى الحب.

- لنفرض أني تغاضيت عن ملابسها الفاضحة.. أي عائلة هذه التى تسمح لبناتها بالسفر مع مجموعة من الشباب، إن لم تكن تربية شوارع فماذا ستكون؟ هل تريد لأبنا.....؟

قاطعها.. وقد انفلتت أعصابه...

- يكفي يا أمي.. يكفي.

تدخلت «نيار» تداري الموقف بشحوب.. دون ترتيب للكلمات:

- ليست وحدها من ترافقهم.. وبعد الزواج ستكون برفقة زوجها.

لكن كلامها لم يزد والدتها إلا غيظًا.. فدمدمت:

- هل تسمعين نفسكِ؟

تركهما «عمار»، وغادر.. لم يعد لديه طاقة للمناقشة.. لم يتعكر مزاجه فحسب.. بل وصل لمستوى كفيل بأن يجعله متجهم الوجه والتفكير لبقية عمره.

راقبته «نيار» وهو يغادر بوجل.. ألم يكن باستطاعة والدتها أن تحدثه ببعض اللين؟.. أعادت النظر لوالدتها.. وفتحت فمها؛ لتتكلم.. لكن والدتها لم تسمح لها.. إذ تأفأفت بصوت مسموع، وقالت مغادرة تشوح بيدها:

- انتهى هذا النقاش، ولا أريد أنْ يُفتح بأي وقت.. مستحيل أن أوافق هل جننت؟ أم هل جننت لأوافق على هذه المهزلة؟.

تنهدت بضيق يبدو أنّ المعركة طويلة و«عمار» يعاني من قلة في الأسلحة.. زفرت بيأس، وقررت المشي قليلًا تفرغ نتائج هذا الحوار المشحون بالسلبية .. ذهبت لتغيير ملابسها، واتجهت للخارج.. بعد دقائق من المشي استندت على جذع شجرة، والتقطت هاتفها تنظر له بعبوس حائرة، أتتصل

ب-"عـمار» أم تنتظـر اتصالـه؟ سـقطت إحـدى وريقـات الشـجرة فى حجرهـا.. صفـراء اللـون.. إنـه الخريـف والـورق منتـشر فى الشـوارع.. التقطتهـا ومسـدتها برفـقٍ وشرودٍ.

التفـت "عـمار" للخلـف، يُناظـر «سـچور» وهـى مسـتلقية بكرسـيها.. تضـع سـماعات الهاتـف في أذنهـا مغمضـة عينيهـا.. إمـا نائمـة وإمـا منسـجمة فيـما تسـمعه.. منـذ رآهـا صباحـا وهـو مكفهـر الملامـح.. لم يتسـنَ لـه التنفيـس مـن نقـاش والدتـه..

ترتـدي تنـورة لمنتصـف فخذيهـا.. جـورب من النـوع الخفيف.. كلـما تحركت فى جلوسـها تنحـسر التنـورة لفـوق أكـثر.. فتكشـف أكـثر.. منـذ عنفتها أمـه وهي تعانـد في ملابسـها.. تبعـث لـه رسـالة إمـا أن يتقبلهـا كـما هي أو... اختنـق فقـام مـن مكانـه.. ذهـب لإحضـار زجاجـة عصـير يشربهـا.. إلا أنـه أحـضر كيـس العصائـر كلـه، وبـدأ يوزعهـا عـلى أصدقائـه واحـدًا تلـو الآخـر.. حتى وصـل إليها، وناداهـا بهمـس .. ففتحـت عينيهـا.. حسـنًا لم تكـن نائمـة.. همـس:

- اشربيها.

وقبـل أن يسـمع ردهـا.. ألقاهـا عـلى حجرهـا، وذهـب للجلـوس فى المقعـد الخلفـي.. أمـا هـى فقـد التفتـت للخلـف تنظر لـه بصمت للحظـات، ثـم عادت لوضعها..

أخـذ "عـمار" ينظـر لسـاعته كل دقيقـة بتجهـم.. يرجـو فقـط أن تلطـف «نيـار» الموضـوع حتـى يرجـع كي لا يفقـد أعصابـه فى الـكلام مـع أمـه وأعصابـه منهـارة بـلا شيء.. وبالـكاد يسـيطر عليهـا.. بعـد أقـل مـن سـاعة كانوا قـد وصلوا أحـد الفنـادق في وسـط القاهـرة.. بعـد أن أصبحـت فرقتهـم متبنـاه.. أصبحـوا يرتـادوا فنـادق جيـدة وليسـت ميـسرة.. عـلى أمـل أن يظهـروا بالتلفـاز بيـوم ما.. اتجـه كل منهـم لغرفتـه؛ ليأخـذ قسـطًا مـن الراحة قبـل الانطلاق للعـرض.. تذكر وهـو يسـتلقي عـلى الفـراش في محاولة بائسـة للنوم.. أن يبعث رسـالة لشـقيقته يخبرهـا بوصوله.

"صوت موشوم بأصابع كف وقدم"

صوت مألوف؟! أعلم كما تعلم أنك تعلم من أنا؟..

أتعلم متى يكون النور مطلق؟ حينما ينبعث من الظلام.. لا يكون نوره شديدًا فحسب بل نوره يعمي الأبصار.. هكذا سيكون خروجي إليك.. هيأ نفسك جيدًا لي.. كي لا تصاب بداء الدهشة.. كيف للسواد أن يخرج نورًا؟ خروجي سيخبرك أن نور الظلمة يغشي العقول!

أتعلم لمَ الجمال لعنة؟

لأن الجميع يريد امتلاكه والتنعم به.. وكيف يمتلكون من لا يملك نفسه؟ هذه سمة البشر يفكرون باللحظة وما دونها ولا شيء آخر.. هم السبب بتهاوي كل جميل وانتشار القبح.. يقتطف أحدهم زهرة جميلة ويظن أنه امتلكها؛ فتذبل بعد أيام قليلة.. إنه يعلم أن الحفاظ على الجمال بمراعاته وبعضه بالابتعاد عنه.. وأن الامتلاك لا يعني الاحتفاظ بالشيء بل أحيانًا بتركه حرًا..

وقد أوهمك عقلك أني وردة جميلة.. اقطتفتها؛ لتبصر وتشم جمالها ورائحتها.. وحين اكتشفت قبح وجهي ورائحتي الخبيثة لم تبتعد عني، ولم تنبذني لمكان لا تتلاقى فيه أرواحنا بل احتفظت بي بركن قصي وتجاهلته.. هذا؛ لأنك تماثلني قبحًا بل أشد.. أمازلت تظن أني وردة تستطيع الحفاظ عليها بعد الذبول؟ احذر فبتلاتي عفنة وبأنياب تذيب!

"ي"

العاصمة، بالمعرض الحديث للسيارات.. يتحرك «ياسين» ذهابًا وإيابًا في غرفة المكتب بخطوات يتلبسها التوجس.. وعينان حمراوان من شدة القلق، شعره متناثر على وجهه بعشوائية أخفت ملامحه.. بعض حبات العرق بدأت بالتجمع على جبهته.. "حسين" من كان يساعدهم بإيداع الأموال بسلاسة في البنك.. مريض وملقى بالمشفى منذ أسبوعين.. ولقد أخبرهم أن هناك امرأة ستساعدهم عوضًا عنه، وستأتي اليوم لمناقشة النسبة التي تريدها.. ولقد تأخرت وكان لا بد أن تكون هنا منذ ما يزيد عن الساعتين، وهاتفها مغلق! هو ليس خائفًا أن تكون مكيدة.. فإن أخبر الشرطة هذا يعني أن قدمه ستجر هو الآخر.. ولكنه غير مرتاح للعمل مع امرأة أيًا كانت.

على النقيض منه يجلس «أسعد» يده اليمين وشريكه مناصفة بالمعرض.. هادئ، يحاول أن يخفي قلقه..

- اهدأ قليلًا قد يكون نفذ شحن هاتفها، أو ربما تريد زيادة نسبتها.

جلس «ياسين» على كرسيه.. وقد فقد السيطرة على وتيرة أنفاسه.. يشعل سيجارة تلو الأخرى، وقبل أن تنتهي يدهسها بحذائه.. سبّ ولعن حين انفلتت واحدة من يده المرتعشة، وأوشكت أن تحرق سرواله..

صوت مساعده الشخصي، أعلمه أن السيدة وصلت وقبل أن ينهي كلامه.. كانت قد دخلت.. وبمجرد وقوع نظر «ياسين» عليها، هدأ تنفسه قليلًا، قليلًا فقط.. يطالعها بتمعن، يدقق بكل تفصيل بها.. هيئتها غير مريحة بالمرة.. ملابس شبه فاضحة.. تبرز مفاتنها بالكامل.. زينة كاملة.. أظافر مطلية باللون الأسود.. هذه ليست ملابس موظفة محترمة تعمل بالنبك مطلقًا .

- هل واجهتكِ مشكلة تسببت بتأخركِ؟

تحركت المرأة، وجلست جواره.. لاحت عيناها لبرهة على دبلة يده.. نفضت رأسها بلا مبالاةٍ متعمدة تلامس خصلات شعرها لوجهه.. وضعت يدها على كتفه.. تحرك أصابعها براحة، تعزف نغمة تنفر الأنوف..

وتقشعر الأبدان.

- هل أنت دائماً مستعجل هكذا؟

تحولت نظرة عينيه للقسوة، كبحر هادر، أمواجه عالية تنسف كل ما بشاطئه.. يُحب تشبيه نفسه كالبحر.. بل لا يرى نفسه إلا بحرًا ضخمًا.. تتكاثر مياهه وتفيض على شواطئه.. تملأها شيئًا فشيئًا حتى تختفي.. هادئ، هادئ.. لسببٍ يعلمه أو لايعلمه لا فارق في التعبير.. ثم تأتي لحظة النسف دون تبرير.. تركها تفعل ما تشاء حتى تُخرج ما بجعبتها من كلام.

- كم تريدين؟

- أريد خمسة بالمئة زيادة عن نصيب "حسين".

- واحد بالمئة وهذا ارتفاع كبير، فكوني شاكرة عليه.. ولا تنسي بقبولك العرض يعني أنك شريكة بالجريمة.

هزت رأسها لثوان، ثم قالت:

- موافقة.

أخرجت مفتاحًا من حقيبة يدها الصغيرة، وناولته ل-"أسعد".. وتمتمت تزم شفتيها تبرز الامتلاء قبل اللون..

- هلا أحضرت حقيبتي من السيارة فقد نسيتها.

نظر "أسعد" لحقيبة يدها الصغيرة بصمت.. ثم تبادل النظر مع "ياسين" بعدم ارتياح.. لكنه فعل كما طلبت وخرج..

بينما المرأة ألصقت فخذها بفخذه.. أدخلت يدها تعبث بجيب سترته من الداخل.. قوس «ياسين» حاجبيه بشكل حاد.. يبتسم لها بلا مبالاة، ويمنع نفسه من كسر أصابعها بين يديه.. يصبر على هذا التلامس قليلًا حتى يطمئن.. فكما يبدو هي لا تريد زيادة نسبتها فحسب، بل هدفها أكبر من هذا..

- هل تعجبك زينتي؟ لقد استغرقت وقتاً كي أصل لهذا المستوى.

كانت ستقول شيئًا آخر إلا أن دخول « أسعد» قاطعها.. وحينها ألقى يدها بجفاء.. وألقى عليها نظرة عابرة.. وقال بسماجة..

- لست مهتماً.

نهضت المرأة بغضب وصدمة من رفضه لها.. لكن سرعان ما ابتسمت تجاوبًا مع « أسعد» الذي غمز لها بعينه.. حسنًا، يبدو أنها أعجبت الآخر.. لمعت عيناها بظفر.. لا فارق بين هذا أو ذاك بالنسبة لشغف الخداع؛ رؤيةً، سماعًا، شمًا، لمسًا، تفكيرًا يلامس القلب كان.. فضولًا حتى.. من المهم ألا تخرج خاوية اليد.

قبل أن تخرج مالت على «أسعد» وهمست بأذنيه..

- سأنتظرك بالسيارة.

لم تنسَ التمايل بساقيها.. و»أسعد» يتابعها بتلذذ فج، صريح.. حين خرجت صدح صوت «ياسين» بتهكم..

- "أسعد"!

حرك الآخر رأسه بلا مبالاة حقيقية.. وقال بنبرة متسلية:

- سنمرح ليومين، وينتهي الأمر.. لمَ أنت دائم الخوف والحذر بهذا الشكل؟.

بقي «ياسين» مكانه متوجسًا.. ينظر للباب وكأنه ينظر لما سيكون سببًا بهلاكهم!

"صوت موشوم بأصابع كف وقدم»

أنا ثاني اثنين.. أنا ذاك الذي ظهر قديمًا بهيئة مساعد.. فجعلت حاضره نبذ.. فنوى أن يكون ظهوره حبل يلف على عنقك حد الموت..

جعلت الليل صباحي ومسائي.. فرحي وأتراحي.. مسكني وسكني.. جعلتني خليلة له يرتع بها كيفما شاء.. فأي ذل هذا! فما عادت عيني تفقه غيره.. حتى الموت سكني وخلاصي ما عدت أراه أبيضًا منيرًا برّاقًا.. اختلط علي، فماذا أنا فاعل بك؛ لأرد علي هيبتي، ولأسترد بصيرتي؛ لأعاود السير تجاه خلاصي؟

أعلم.. قد يكون كلامي مبهمًا أو لعله غريب..

لكني ضقت ذرعًا بي هنا.. بهذا العقل الذي يهوى السير على دوائر مرارًا وتكرارًا.. دون أن يقف ويختار طريقًا محددًا.. إما أن ينسى؛ فيحررني، وإما أن يحرر نفسه.

"أيكون الصوت بلاصوت!"

بعد عدة أيام ينظر «ياسين» لساعته.. تبقى ما يقل عن عشر دقائق حتى يصل لبيت «نيار»، لكن بمجرد وصوله أصابه الوجوم؛ لعدم وجودها بالبيت.. علم من والدتها أنها بصحبة شقيقها.. فجلس بانتظارها.. وأثناء انتظارها.. فتح غرفتها فوجدها مطلية باللون الأسود والذهبى.. دلف بهدوء سيضع الهدية التي أحضرها، ويخرج بسلام.. استوقفته مجموعة الصورالتي تُغطي جدارًا كاملًا.. صورة كبيرة تحتوى على عدة صور صغيرة الحجم.. بعض الصور لها وحدها وصور تشارك عائلتها.. وقف يتأمل صورة لها وهى طفلة معلقة بكتف والدها.. لا يظهر من ملامحها شيء غير شعرها المتطاير. تحركت ساقاه تجاه خزانتها.. يتذكر وشاحًا لها أبيض اللون منقط باللون الأسود.. يشبه ما كانت ترتديه أمه يوم وفاتها.. كلما رآه عليها يشم رائحة الدم! بدأت يداه تعبث بأغراضها حتى وجده.. اعتصره بين يديه.. ينوي حرقه حين يغادر، وخرج دون أن يتذكر ترتيب ما بعثره! وكأن حرقه سيمحو اليوم من قلبه قبل عقله!

هذا الصوت!

يتذكره؟

لا يتذكره؟

يتذكره؟

لا يتذكره؟

هو يقول أنه لا يتذكره؟

ونفسه تقول أنه يتذكره؟

يسبها ويلعنها.. نفسه خبيثة كالصوت.. لا تحبه ولا حتى تشفق عليه، لم يخطأ أبدًا حين اختار ألا يحبها مثقال ذرة.. تكرهه وتكره صحبته.. فكان لزامًا عليه أن يكرهها..

اللعنة عليهما سويًا.. لعلهما يدخلان جهنم معًا، ويلوذ هو منهما بالفرار علـه يفوز بالجنة.. سيكون أكثر من راضٍ ولو بافتراش ترابها..

بعد هذه السنوات من التجاهل واللامبالاة عرف كيف ينساه حقًا وليس مجرد تناسي.. عرف كيف يصنع من الصوت ظلًا باهتًا؟ وكيف يلقي به بزاوية مظلمة لا يستطيع الفرار منها والظهور أمامه؟..

ومحاولات الصوت دائمًا كانت تلوذ بالفشل.. لكن نفسه القبيحة الأمارة بالسوء تمد له يد العون.. ولولا نفسه لكان الصوت غادر منذ زمن، لكنها هي من لم تستطع التخلي عن وجوده.. وبسببها ظل يعاني معه.. يتمنى لو أن هناك أداة تقتلع النفس من الجسد لكان ارتاح.. يتآمران عليه حتى تكاد ذرات عقله تهم بالفرار والنجاة من غثهما..

يعرف صاحب الصوت.. يعرفه.. وهل يتوه الإنسان عن ظالمه وظليمته؟.

أي وسيلة ستساعدة الآن.. وقد اتحدا معًا.. كيف ستجاهله الآن بعد أن انضمت نفسه لتعون صوت الآخر؟.

تحرك «عمار» مصطحبًا والدته بيده.. ليفسح لهما حرية الحديث بعد أن لاحظ التوتر بينهما وانزعاج شقيقته..

حينها قال «ياسين» مباشرة فكلما حاول التحدث معها.. تنظر له بصمت دون إجابة..

- ماذا هناك؟

حاولت التحلي بالهدوء مانعة غيظها من الظهور، ولكنها همست بانفعال:

- كيف تعبث بأغراضي؟

ضغط بأصابعه على الأريكة يشعر بها تخترق القماش وجزّ على أسنانه بقوة.. كيف فاته أمر كهذا؟

- آسف أعلم أني مخطئ!

لم تستطع منع نفسها من توبيخه:

- ولمَ تفعل الخطأ وأنت تعلم أنه خطأ؟

أصابته موجة من القلق.. تنتابه بين فنية وأخرى.. دائمًا ما تبعث بداخله شعورًا يفتك به.. وهو ضائق من نفسه.. بالكاد أنفاسه تخرج منه وصدره لايتسع لأنفاسه، تُفضل أن تبقى محتجزة بالداخل على الخروج، وكأنها تمنع ما يعتريها من شدة وهم من الخروج.. صداع فتاك يطمسه بلا جهد، سيصرخ عليها إن فتح فمه وتحدث.. صوتها كفيل بتذكيره بأمه وهي توبخه على خطأ ما قام به.. كور كفه يعض عليها كي يمنع نفسه من الصراخ.. تمتم بحدة:

- لم لا تتقبلين أسفي!

ناظرته بغرابة شديدة.. وتحركت؛ لتغادر مستشعرة عدم الراحة.. فأمسك يدها، وصرخ بغضب:

- أنا أكلمك.

انقبض قلبها من الألم؛ فحاولت تحرير يدها بلا فائدة، فصاحت بغضب مماثل:

- هل جننت؟ أترك يدي.. أنت تؤلمني.. كيف واتتك الجرأة؟!

ترك يدها، وأمسك رأسه من الألم الذي يحاوطه.. وهو لا ينفذ ما يمليه عليه عقله.. يريد الخروج.. كي تسنح له الفرصة ليؤذي نفسه كي يُذهب هذا الغضب عنه!

خرجت أمها من المطبخ تسأل عما يحدث! و»نيار» واقفة كالصنم لا تعلم ماذا تفعل؟ ولا ماذا تقول؟ فقط تنظر لعينيه التي يشوبها الاحمرار.. سمعته يهمس بخفوت:

- أريد الحمام.

ذهب وتركهما.. فسألها والدتها.. وهي تحرك كتفيها بلا علم.. حتى عاد.. وجهه وشعره يقطران ماء.. جلس بصمت.. فسألته أمها.. عما به، فرد بخفوت:

- رأسي يؤلمني.

ربتت على كتفه قائلة:

- هل أحضر لك مسكنًا؟

- لا.. شكرًا لك.

تركتهما أمها وبقيت هي تنظر له بتوجس.. لا يتوقف عن ترتيد كلمة "آسف» فزفرت بتوتر، وتمتمت بحيرة:

- لست على طبيعتك.. هل أنت بخير؟

قال ورأسه منكسًا وحبيبات الماء تبلل ملابسه:

- أحيانًا رأسي يؤلمني بشدة ولا أستطيع..

قاطعتهتهمس:

- هل يتكرر كثيراً؟

أغمض عينيه كي لا تناظرها بغضب.. يكره الاستجواب وكثرة الأسئلة.. سيغادر، لم يعد يحتمل أكثر والماء الذي غمر به وجهه ليُجدي نفعًا وحتمًا سيظهر أثر بكائه.. يُريد فقط أن يخط أي جرحٍ به ليريحه! قال وهو يقف:

- لا.. سأغادر الآن.

تجلس " نيار" بالمطبخ تتناول قطعًا من الخيار بالصحن أمامها.. سمعت صوت الباب يُفتح ويُغلق وصوت أمها يناديها طلبًا للمساعدة.. فأسرعت إليها.. تحمل بعض الأكياس تدخلها المطبخ.. تبعتها أمها، وجلست على الكرسي أمامها؛ لتستريح.. ثم قالت:

- "نيار".. ألم تقولي أن «ياسين» سافر البارحة؟

أومأت برأسها، فأردفت أمها:

- لكني رأيته اليوم، وأنا أتسوق، وناديته لكنه لم يرد.

نظرت لها بتعجب.. هل عاد؟ كيف هذا؟ لقد اتصل بها من ساعة وكان مازال بسفره! سرعان ما تحول للامبالاة وقالت:

- ربما شخصاً يُشبهه.

- لا أبدًا وهل سأتوه عنه؟.. لقد نظر لي.. ولكنه ذهب دون مخاطبتي.

شعرت بالقلق، التقطت هاتفها، واتصلت به مرارًا وتكرارًا، لكنه لا يرد،

فاتصلت بشقيقته.. وتمتمت بحيرة واستغراب:

- "فرح" هل سافر «ياسين» البارحة؟

- نعم، هل هناك مشكلة؟

- لا أبدًا لا تقلقي.. لقد رأت أمي اليوم شخصاً يشبهه فظنته هو.. لا بد أنها أخطأت التقدير.. لقد قلقت عليه؛ لأنه لا يرد على اتصالاتي فهاتفتك .. آسفة إن كنت شغلتك.

لا تعلم "فرح" ماذا ترد؟ لا تعلم حتى إن كان هنا أم سافر حقًا؟، الاثنان سواء ..غبي وعنيد ولن يخبرها بشيء، فلتفعل هي إذًا، قالت بحذر:

- هل بجوارك أحد؟

انتبهت حواس «نيار» لما قالته «فرح»، وشعرت بالتوجس يملأها بهدوء، تحركت؛ لتخرج من المطبخ.. لكن صوت والدتها أوقفها.. فتنهدت بتوتر، وهمست:

- آسفة، سأهاتفك بوقت آخر لاأستطيع الآن.

وأغلقت الهاتف، وعادت لأمها بذهن شارد والتوتر يتآكلها.

أوشكت «فرح» أن تخبرها الحقيقة فلا حلٌ أمامها.. شقيقها مُصِر على عدم إخبارها إلا بعد العقد.. سيظلم الفتاة معه.. ألا يكفي أنه ظالم لنفسه.. تذكرت آخر حديث معه وهي تحاول جهدها أن تثنيه عن قراره.. حين قالت:

- هل ستبني سعادتك على تعاسة الآخرين!

"ياسين» يرد بعناد:

- سأحاول جهدي إسعادها.

هتفت بسخرية:

- إسعادها بخداعها، لنفرض علمت بعد الزواج، ورفضت إكمال حياتها معك ومعها كل الحق.. ماذا سيكون موقفك بعد أن علقتها بك؟.. اتركها تحقق سعادتها بمكان آخر من البداية.. فلا أمل.

صاح بمرارة وكلمات شقيقته تنخر بعظامه:

- ألا يحق لي بعض السعادة.. ألا أستحق!

حينها نظرت له بيأس.. لا تستطيع أن تخفف عنه شيئًا.. ولا تستطيع مطاوعته بخداع خطيبته.. رأت الدموع بدأت تتشكل بعينيه، فقالت بهدوء:

- تستحق.. لكن لا تأخذ سعادتك عنوة منها أخبرها.. يجب أن تعلم ودع القرار لها.

هاج ورفس بقدميه الأرض، وصرخ:

- لكنها هي سعادتي!

- أصدقني القول، لو لم يكن صوتها كصوت أمي، هل كنت لتخطبها؟ وهل تحبها حقًا؟

لم يولد شخص باختياره.. ولم يمت شخص باختياره.. قد يتعارض البعض قائلًا: البعض يُنهي حياته بيده بأي طريقة كانت... لكن أيضًا الكثير منهم يفعل ويعيد الكرة كثيرًا ولم يفلح بإنهاء حياته.. حتى هو فعل.. خلاصة القول، لا أحد منا يملك حياته لينهيها.. وجب علينا ألا نترك حياتنا بين يد هذا ليصفعها، ويد ذاك ليخط عليها أثرًا لا يمحى.. تتعدد الأيادي الضارة.. واليد المطبطبة نادرة كندرة كتب التاريخ الموثوقة، كندرة الصدق، كندرة الصديق، كندرة الراحة والسلام النفسي..

قلبه لم يترك له زمام الأمور ليختار.. قلبه عانق بها وطنًا.. وخط القلم بدمه نقطته الأخيرة.

لا توجد كلمة أجادت وصف الأنثى كالوطن.. الأنثى وطن.

الأم وطن لأولادها..

الابنة وطن لأبيها..

الزوجة وطن لزوجها..

الشقيقة وطن لشقيقها..

الجدة وطن للأحفاد..

لو كان ألمه حجرًا لنطق.. لكنه حجز بقوقعة بكماء لا تُجيد سوى الاهتزاز تعبيرًا.

- عانقتُ بها وطنًا.

أربكتها إجابته.. لم تتخيل قط أن شقيقها قادرٌ على الإحساس بالحب بعد ما كان.. تعلم أنه يتألم.. لكنها لاتستطيع الشعور بألمه.. هي الأخرى، الألم أوجد بها شقوقًا لا مجال لرأب صدعها.. لكن لا سبيل غير أن تضغط عليه لذا قالت:

- أخبرها خيرًا لك ولها.. أعطها فرصة وما أدراك قد ترضى!

لا يستطيع المخاطرة بإخبارها.. ولاحل أمامه.. ولن يُخبرها.. هتف بجمود:

- ليست بهذا العته لترضى بي! ولنفرض أنها رضيت.. ماذا عن عائلتها؟ كل ما أريده أن يكون لي عندها مخزون من المشاعر حتى أستطيع إخبارها كي تتقبلني.

ابتسمت بسخرية هل يظن أنها ستخبره بمشاعرها؟.. واهم وغبي وعنيد.. صرخت، وقد ملت:

- حتى الآن والله يسترك أمامها.. ماذا ستفعل بعد الزواج؟ هل ستظل تهيم هنا وهناك؟.. ألن تطلب منك هي أن ترافقك بسفرك؟.. ماذا ستفعل حينها؟.. والله وحده يعلم أين تكون؟.. هل تراني أصدق أنك برحلات الشركة؟.. على من تضحك؟.

لا زال لا يستجيب لكلامها.. زفرت بضيق وقد تعبت أعصابها منه.. هو حر.. ليتصرف كما يشاء.. فلا فائدة تُرجى من الكلام معه غير أن يُصيبها الوهن!

بأحد المولات تحاول "سچور" اقتناء فستان جديد لزفاف «وجد» زميلتها بالفرقة.. عقلها مازال يفكر إن كان «عمار» نجح بإقناع والدته أم لا، وهو لا يكلمها.. زفرت بضيق بل هي التي لا تحدثه منذ زمن.. ستتصل ب-"نيار» قد تخبرها أي شيء.. لا تريد أن تظهر مظهر المتلهفة .. لكن اليوم مناسبة سيكون عذرًا، بعثت لها برسالة، وانتظرت إجابتها بتوتر.

بعد الشراء والانتهاء من التجول.. جلستا تحتسيان القهوة.. بالكاد اشترت

«نيـار» قطعـة واحـدة، هـي مشـغولة البـال.. تشـعر بالانقبـاض بسـبب مكالمـة «فـرح» .. لازال «ياسـين « لا يـرد عـلى الهاتـف، كلـما مـر الوقـت كلـما زاد القلـق في النمـو داخلهـا.. خائفـة أن تعيـد الاتصـال بـه ثانيـة لـذا أجلتـه للغد.

حركت «سچور» أصابعها تصنع دوائر على الفنجان، وهمست بتوتر:

- كيف حال والدتك؟

ارتفـع حاجبـي «نيـار» لهـذا السـؤال الغـير متوقـع.. منـذ فـترة ينتابها شـعور بتكهـرب الجـو كلـما اجتمعـت بهـا.. أزاحـت إحساسـها جانبًـا، وقالت بهـدوء:

- أريـدك أن تكـوني صريحـة معـي.. لم تهاتفينـي للتسـوق.. أنـا هنـا لتعلمـي مـاذا فعـل «عـمار» مـع أمـي.. أليـس كذلـك؟

نظـرت لهـا ببعـض الحـدة.. مـاذا تتوقع؟ وهـى كالبلهـاء ظنت أنـه يمكنها أن توقعهـا بالـكلام دون أن تشـعر.. ردت ببرود:

- وهل ستخبريني ؟

قالت بابتسامة ودودة:

- سؤال بسيط.. كنت سأخبرك بلا حاجة لكل هذا العناء.

صمتت قليلًا، ثم أردفت:

- لأكون صريحة معك أمي.

قاطعتهابسخرية:

- تكرهني!

زفرت بقوة تخرج السلبية، وردت بهدوء:

- حسـنًا، نوعًـا مـا.. أمي طيبـة القلب.. ربما تكـره مظهرك.. بعـض تصرفاتك.. أو بالأحـرى تحـررك الـذي يتخطـى الحـدود.. آسـفة لقـولي هـذا.. أنـا فقـط أسرد حقائـق.. لكـن يمكنـك كسـب قلبهـا بالقليـل مـن التغيـير.. وأخـي يريـد أمـي راضيـة.. لكنـه سـيضحي.. ويختـارك أنـت حتـى لـو عارضـت أمـي.. ألا يُمكنـك أنـت الأخـرى التضحيـة ولـو قليـلًا مـن أجلـه؟

ابتسـمت قليـلًا بثقـة.. هـى تعلـم هـذا، ولكـن سـماع الـكلام مـن أختـه لـه وقـع آخـر عليهـا.

- ماذا تريدين أن أفعل بالضبط؟

- أريدك أن تحسني مظهرك أمام أمي.. فكري قليلًا قبل تصرفك.. جاريها بالكلام حتى ترضى.

- لكني لا أريد أن أغير من نفسي لأيٍ كان.

قالتها باستنكار، وقد ارتفع صوتها، فهمست «نيار» بخفوت كي لا يلفتا انتباه أحد:

- ومن قال أن تغيري من نفسك.. تظاهري أمامها فقط.. وافقيها فيما تقول.

فكرت قليلًا بكلامها.. والذي نوعًا ما هو صحيح.. ألا يقولون أحيانًا لتحصل على ما تريد يجب أن تخالف نفسك؟..

❁❁❁❁❁❁

يرمق «عمار» والدته بتردد.. وهي تشاهد أحد البرامج النسائية بتركيز.. لا يعلم كيف يُعيد فتح الموضوع بهدوء ثانية؟.. وخاصة أنه تحدث مع والد "سچور" وقرأ معه الفاتحة.. وترك الأمر له هو و"سچور" لتحديد يوم الخطبة بما يناسبهما..

- أمي.

وقبل أن ترد عليه، أردف قبل أن يتراجع:

- لقد خطبت «سچور» من والدها.

أغمض عينيه، وتوقفت أنفاسه لبرهة.. يهيئ نفسه لتقريع والدته.. إلا أنها على العكس تمامًا ناظرته بصمت.. وتحركت من جواره تنوي المغادرة.. فتح عينيه، وأمسكها من ذراعها يمنعها..

- أمي!

أبعدت يده بجفاء.. وتمتمت بغلظة:

- بم أنك ترى نفسك رجلًا، وفعلت كل شيء بمفردك، فما الداعي من إخباري؟ ليكن بعلمك أنا لست راضية عن هذه الزيجة ولن أرضى.

ابتلع الإهانة بصمت.. ووقف قبالها مطأطئًا رأسه، وهمس بصوت خفيض:

- تعلمين أنه من حقي الزواج بمن أريد دون موافقتكِ.
- وهل ستفعلها؟
- نعم.
- ألهذه الدرجة.
- أحبها يا أمي.. وهذا أكثر من كافٍ بالنسبة لي.

”إ

استيقظت «نيار» اليوم باكرًا، صاحبت «عمار» لعمله، وما إن بدأ التدريب حتى انزوت لركن ما.. تنظر لهاتفها بقلق.. لقد تآكلها الخوف أو ربما هي تهوّل الأمور.. اتصلت «بفرح".. جاءها الرد سريعًا.. فهمست:

- لقد اتصلت لأنك...

لا تعلم "فرح" إن كان ما تقوم به صواب أم خطأ، لكنه لم يترك لها خيارًا، فقاطعتها:

- نعم.. الموضوع يخص «ياسين «.. إنه مريض.

لم تنطق "نيار" بحرف.. الزفاف بعد أسبوع، هل سيموت؟ هل سيموت؟

زفرت "فرح" بتعب كأنها تقاوم العلقم بحلقها كي تنطق:

- ماذا أخبرك أنه مصاب بالاضطراب الحدي.. ولديه ميول للعنف عندما تُصاحبه حالات الاكتئاب والغضب.. لديه خلل ما لايستطيع التحكم بمشاعره وانفعالاته.. ينقلب من حال إلى حال.. يعاني من مشاكل في التعرف على مشاعره..

ثم غيم عليها الحزن.. وهمست تخبرها بنصف الحقيقة:

- لقد قُتلت والدته أمام عينه وهو مراهق..

ما تسمعه أشاح فجأة ذكاء عقلها.. فهمست بغباء وبنبرة متحشرجة.. وحبات البكاء تنهمر من عينيها بصمت، لكنها ردت بثبات تحسد عليه:

- لا أفهم ..سآتي إليك.

قُتلت أمه أمامه وهو مراهق، أي وجعٍ هذا؟ مسحت دموعها وبعثت رسالة لشقيقها تخبره أنها ستخرج؛ لتتمشى قليلًا.. استقلت سيارة أجرة.. وصلت سريعًا للبيت، ووجدتها بانتظارها.. تمتمت «فرح» ما إن رأتها.

- لا أعلم إن كنت أستطيع إفهامك أم لا؟ .. لكن هذه التقارير ربما تفعل.

تناولتها منها، عيناها تجري على الأوراق دون تركيز.. بعد فترة رفعت عينيها تهمس بذهول واستنكار:

- هذه الأوراق منذ سنوات.

همست «فرح» بتبرير:

- منذ توفى طبيبه وهو يرفض الذهاب لأي طبيب آخر.

شوحت «نيار» بيدها.. وتمتمت بذهول:

- كيف سمحت له بالرفض؟ لم يحرز أي تقدم.

وهل ستضربه؟ يُحرز تقدم، إنها لا تظن.. ولا تتأمل.. إنه ليس بالمرض الهين.. فهذه الأمراض كالطوفان حين تتلبسه تحوله لإنسان بلا هوية.

نظرات «نيار» ما زالت مُعلقة بالأوراق.. ملامحها مشدوهة؛ عيناها جاحظة.. لا يملك شهادة جامعة، كيف؟ لقد تحدث أمامها عدة لغات بطلاقة، سؤال سخيف، ليست الجامعة الطريقة الوحيدة للدراسة، ابتسمت بمرارة، وهمست:

- إذًا.. هذا يعني أن من رأته أمي كان هو؟

- صدقًا لا أعلم ربما نعم وربما لا.

همست "نيار" بشحوب ووجهها منكس يطالع الأوراق ودمعة سقطت بللتها:

- مكتوب هنا أنه مدمن، سُجن قبلًا.

- كان هذا منذ زمن.. لقد عُولج من الإدمان.. لكن..

- لكن ماذا؟

- لقد سجن لجريمة قتل.

شحبت "نيار"، ونهاوت الدنيا حولها..

- يا إلهي! أنت تمزحين؟.

- للأسف لا.. في هذه الفترة من حياته كان يعيش بالشارع ويبيع أي شيء ليعيش.. وقد حدث شجارًا مع شخص ما كان يضايقه.. وصدقيني لقد حدث عن طريق الخطأ.

أجابت بلهجة نصفها ساخر ونصفها غير مصدق..

- خطأ، وكيف خرج؟

ودون أن تطلب تبرير.. أكملت..

- لأنكم أغنياء.. أليس كذلك؟

- لا.. لقد أخبرتك أنه مريض.

قالتها وشردت عينيها لبرهة من الزمن؛ لقد أراحت ضميرها أمام «نيار»، وأخبرتها بعضًا من الحقيقة.. وأراحت ضميرها أمام شقيقها، ولم تخبرها الحقيقة كاملة.. بالنهاية هو شقيقها، ولزامٌ عليها أن تنصر كفته.. ليس فقط حقيقة أنه قتل والدته، ولو كان بالخطأ.. بل أيضًا، حقيقة أنه مجرم يقوم بغسيل الأموال، لقد علمت منذ عام عن طريق المصادفة.. حين سمعته ذات يوم، يتكلم بالهاتف دون أن يلحظ وجودها.. لم تُخبره أنها تعلم بالأمر.. فكيف ستخبرها هي؟

تُقسم "نيار" أنها لاحظت أنه ليس طبيعيًا، ولكن لم تتصور شيئا كهذا، ولاتزال لا تستوعب..

- متى كان سيخبرني؟ أم لم يكن ينوي من الأساس؟

- بعد الزواج.

همست لنفسها بسخرية.. بالطبع يضمن حقه أولًا، المحتال لقد احتل عقلها بكلامه.. حتى لو كان كذبًا لكنه معسول، وهي كالحمقاء انساقت له.. تحركت بوهن لتغادر لكنها نادتها:

- إنه يحبك!

أغمضت عينيها بألم، وهمست لنفسها.. فليسامحه الله، فأنا أيضًا قد أحببته.

"صوت موشوم بأصابع كف وقدم"

تعرفني.. نعم.. انتظرت طويلًا لأسمعك تخرج هذه الكلمة.. للأسف أنت لا تعي ما تقول.. لأزيد من معلوماتك.. أنت تعرفني على الصورة القديمة.. قلت سابقًا أني كنت يد العون لك..

هل تعلم لأي درجة يمكن للحقد أن يغير النفوس؟

لقد أطعمتي الحقد والظلام لأعوام.. وكما تعلم فأنا بشر مثلك يأكل ويخرج فضلات.. وسأخرج فضلات هذه الأعوام دفعة واحدة بعقلك، فيصاب بالنتانة.. فلا تستطيع الاقتراب منه.. ولا تجد حيزًا للاختباء خير من سجني.. عقلك شائك البال الآن، وكم يسعدني هذا!..

أنتظر أن تنادينني باسمي الذي أطلقته علي حين قررت إنهاء علاقتنا.

"الحب أحيانًا قهر!»

دخل «ياسين» البيت بصمت.. لقد قضى ثلاثة أيام يتجول بالشوارع، ولم يخرج إلا بطفلة.. طفلة واحدة، وجد شقيقته تجلس بالردهة.. تتمتم ما إن لمحته:

- أخيرًا.

لم يرد، وصعد أول درجات السلم.. لكن صوتها أوقفه:

- لقد رأتك السيدة "حنان " بالأمس، واتصلت بي «نيار» بمَ أنك لا ترد عليها.. وبتجمدك هذا يبدو لي أنك من رأته، لقد أخبرتها أنه ربما تشابهت فقط.. عدم ردك عليها يثير الشك.

تجاهل كلماتها.. ورد ببرود دون أن يلتفت له:

- هل اقتنعت؟

هزت كتفيها.. وزفرت بضيق منه، وقالت في محاولة أخيرة:

- عاجلًا أم آجلًا ستعرف.. أخبرها بنفسك خيرًا من أن تكتشف بنفسها.

أكمل الصعود منكسًا رأسه، يفكر أنه لم يبقَ الكثير وسيخبرها بنفسه، دخل غرفته.. إنه بحاجة لحمام بارد.. ملابسه تفوح منها رائحة القذارة.. يشعر بالتوجس.. بل لا سيخبرها الآن أهون.. لكن، موجة من الخوف ابنعثت داخله، وبدأت تأخذ حيزًا أكبر به.. ولا يعلم إن كان قادرًا على تحملها أم أنها ستنسف به..

السحب تمطر قبل مجيء الشتاء.. سيكون شتاءً باردًا هذا العام.. وضعت "نيار" شالًا على كتفيها، واتجهت للنافذة تفتحها.. كلما مر الوقت تزداد قوة الانهمار تارة وتنقص تارة.. مطر كلمة تبعث بنفسها المحبة والسرور.. فمن لا يحب المطر، لكنها الآن تمقته.. وكأنها للتو تذكرت أن هناك أناس لا ملجأ لهم من المطر غير الله سبحانه وتعالى.. هناك من يعتبرونه بلاءً؛ لأنهم بلا مأوى يقيهم شره.. وهناك من يشعرون وكأنهم ملكوا الدنيا

بما فيها لأنهم فقط يجدون سقفًا يحميهم منه.. مطر! تبدو الكلمة الآن وكأنها مصيبة تبعث فى النفس الجزع والمرض.. مدت يدها ليطالها شيئًا من القطرات.. تغمض عينيها.. تذكرت عندما سألته السؤال المعتاد لأي أنثى.. «لم أنا؟» إجابته حفرت بقلبها مكانًا خاصًا له.. "لأني مذ رأيت لهيب النار وأنا أتطلع لدفئها الحاني" يا إلهي!.. كيف لبضع كلمات أن تسلب قلبك وروحك دون جهد من صاحبها؟ لم يطرأ على عقلها قط أن تتراجع وتتركه.. كل ما يشغلها عائلتها، أمها لن تقبل شيئًا كهذا قط.. ولا تعلم إن كان «عمار» سينصفها أم لا.. التقطت حاسوبها وبدأت بالبحث، مئات الصفحات أمامها تفتح الواحدة تلو الأخرى، ولا شيء لتفهمه.. عقلها لا يستطيع الفهم.. بل لا يعمل من الأساس.. لذا ألقت الحاسوب جانبًا، وتذكرت ما قرأته بالأوراق.. مرض لا يصيب إلا نسبة قليلة.. أمن كل البشر لم يجد غيره، أُخطئُ بتشخيصه ما يقارب العامين.. تفكر فى البحث عن أطباء وتناقشهم.. لا تعلم إن كانت قوية كي تساعده ليتخطى مرضه.. أم ستقع عند أول شائكة، تنهدت بتعب وأغلقت النافذة.. واتصلت به.. هذه المرة فتح دون رد.. صمت الاثنان فقط يسمعان صوت تنفسهما.. استهل هو بصوتٍ بدا قلقًا متلهفًا:

- هل أنت بخير؟ لم تسألينى عن سبب عدم ردي عليك؟

همست ببساطة:

- ربما أنتظر أن تخبرني من تلقاء نفسك.

تملكه الاستغراب، ولم يرد.. فأردفت ببساطة أشد:

- هل تعلم؟ لا يهم .. ربما كنت مشغولًا.

صمتت لبرهة.. ثم قالت بغتة:

- أفكر أن نلغي حجز القاعة.. ونكتفي بشيء بسيط بالجامع.

دون حتى أن يسأل عن السبب أجاب:

- موافق كما تريدين.

موافق كلمة تدعو للسخرية، بعد أن قرر إخبارها.. حقًا كان ينوي الاتصال بها وإخبارها على الهاتف أسهل عليه من إخبارها وجه لوجه.. لكن الكلام لا يخرج من شفتيه.. يشعر أنه محاصر ولا يعلم كيف سيتصرف؟! زفر

بضيق.. وشعر بحركة.. التفت للباب، فوجد شقيقته تنظر له بما يشبه الذهول!

ناظرته شقيقته بعدم تصديق.. زفاف من؟ جميع صفات العجب لا تصف ما يحدث إطلاقًا.. "نيار" تأتي بردود أفعال غير متوقعة.. لقد ظنت أنها ربما ستفسخ الخطبة.. أقصى ما توقعه أن تؤجل القران حتى تفكر.. لكن أن تُكمل الزفاف وكأن شيئًا لم يحدث أمر لا يتخيله واقع! لكنه القدر أحيانًا يُفاجئنا برفعه لنا للسماء أو الخسف بنا للأرض.. ابتسمت براحة وهدوء.

- الأمر، أني لا أريد أن أترك الموضوع حتى الزفاف عالقًا.. ولاأستطيع إخبارها!

قالت شقيقته مغادرة الغرفة:

- الإجابة بداخلك لكنك تُماطل فقط.

كلمات شقيقته دائمًا لها صدى بداخله ودائمًا ما يتجاهلها! كالصوت العالق بعقله.. يحاول الخروج والسيطرة عليه، وما عاد بقادرٍ على تجاهله أكثر.. يا إلهي! العجز يتآكله.. سيخبرها وليحدث ما يحدث.. لا يضمن ردة فعلها.. من الآن وهو يتنفس بصعوبة.. ليته فقط يصحو غدًا، ويجد نفسه أخبرها بلا عناء.. ما يطمئنه أنها تفكر قبل أي شيء.. ردات فعلها هادئة لا تصرخ ولا تنفعل بشدة.. هيئتها.. تصرفها.. كل ما فيها.. يُريح البصر والسمع.

"صوت موشوم بأصابع كف وقدم"

أضحك ملء شدقي ببلاهة لعظم سعادتي.. على بعد خطوات؛ لأنال حريتي.. ستصبح أنت سجيني وسيكون ضربًا من المستحيل تحررك من قيدي..

لا أظنني بحاجة لسماع لقبي منك.. نفسك تخبرني أنك تذكره..

سأعاقبك على كل هذه الأعوام التي منعتني بها من رؤية ومعرفة ما تقوم به..

من الآن أشفق عليك.. نفسك لم تكرهك كما يخيل لك.. بل كانت تنجو بنفسها من براثين عقلك المتفجرة.. وبعد سنوات من المعاناة معك استطاعت العثور على مكاني.. فشاركتني ما تقوم به.. عرفت أنك تحب وتقترب من الزواج؟ كيف هو الحب عندك؟ أتراه لطيفًا وأعجبك.. افرح قليلًا، فسنوات الأحزان ستحل قريبًا، ولن يفيدك بكاء.. نم قرير العين، واستيقظ على أهوال من النار لا سبيل لمحو ذكراها!

ينتابني الفضول لأعرف كيف أحببت؟ وكيف هذه التي أحببتها؟.. أتراها تشبه والدتك كما شقيقتك؟ لا أظن؟ وجه كهذا كنت لتخاف منه لا أن تحبه.. أجميلة هي؟ ربما تعجبني فأحبها وأحببها بي.. فتميزني وربما أخبرها أننا اثنان بجسد واحد، فتفر هاربة، وتظن أنك مجنون خرف لا تعاشر!

"الحب أحيانًا أخرى لذة لا تصدق!"

لا تعلم "نيار" لمَ شعرت بالتردد قبل أن تمضي؟! أشعرت بالخوف لما هو قادم أم أنه التهور؟!. ألقت نظرة على «ياسين» وهو يُقاوم الرقص مع «عمار» ورفاقه.. هي أيضًا محاطة بالفتيات.. حفلة الخطبة كانت أكثر صخبًا.. تراه يأتي تجاهها وهاهو يشد يدها، ويعتذر للفتيات لأخذها من وسطهم.. أجلسها في المكان المخصص لهما.. وقال ينظر للدبلة بيدها:

- هل جِعتِ؟ هل أحضر شيئًا تأكليه؟

لم ترد فقط هزت رأسها بالرفض.. فنظر لها لثوانٍ.. ثم أعاد النظر للدبلة، فناظرته بحيرة بعد أن لمحت الدموع بعينيه.. ما به؟ منذ العقد وهو لا ينفك ينظر للدبلة..

ما يشعر به من سعادة الآن إنْ وُزعت على البشر ستكفيهم بل ستزيد.. وكيف يشعر بالسعادة وبداخله ألم إن سمح له بالخروج لن تسعه الأرض؟ سيفيض ويُغرقها.. سيقتلع السعادة من جذورها وستبقي الدنيا بحزن دائم.. أمسك كفها يربت على الدبلة بخفوت.. كم تبدو دبلته جميلة بيدها!.. دبلته هو، قبل أن تخط بأصابعها ورقة العقد.. نظرت له نظرة طويلة تجمع كل معاني الغموض.. جعلت الآهات تطرق أبواب قلبه.. ومع هذا لا يجد له ملجأ غيرها! لا يد تلتقفه من حاله المثير للغثيان غير يدها.. أخذ عدة أنفاس سريعة.. زاغت عيناه.. يطوي صفحات الصمت بداخله، كل صفحة تصدر أنينًا لاذعًا لصمت الأخرى.. يريد أن يهرب.. هو على وشك الانهيار، اجتمع عقله وقلبه عليه يعنفانه بالقول "لقد نفذ الوقت، ولم تخبرها" يقسم أنه كان يريد إخبارها.. لكن كلما تشجع ليتحدث تتسرب الكلمات منه.. أي حجة سيقولها بعد أن تزوجا؟ تنفس بقلة حيلة، وقال بتوتر وصعوبة:

- أريد إخبارك بش..

أمسك شقيقها بيدها يجرها خلفه.. وهي عيناها معلقة على «ياسين».. رأته يغمض عينيه يبدو عليه التعب.. إنها حقًا تعذره.. تعلم أنه يريد أن يخبرها.. كان متوترًا ومرتبكًا.. أغمضت عينيها توارى امتلاء مقلتيها بالدموع..

لم لا تخبره أنها تعرف لتريحه وترتاح وينتهي هذا الأمر؟..عقدت حاجبيها بتفكير كيف ستخبر «ياسين» أنها راسلت طبيب وأخذت منه موعدًا؟.. وستذهب له بعد عودتهما من الرحلة.. احتضنها شقيقها.. وقال بتأثر:

- سأشتاق لك يا شبيهتي!

لكزه على كتفه بمرح.. وتمتمت:

- لعلمك أنا أكبرك أي أنك من تشبهني وليس العكس!

تحركت «حنان» تجاه "سچور"، وجلست جوارها ترمقها باستخفاف.. التقطت «سچور» عدة أنفاس تهدأ من روعها.. وأمعنت النظر بفستانها الذي يصل لكاحليها، كما أنه محكم الغلق من العنق.. وكميه لمرفقيها.. لقد طبقت نصيحة «نيار» حتى حين..

بمجرد أن لمح «عمار» والدته تقترب من «سچور» ترك الرقص مع شقيقته.. ثم تحرك باتجاه «سچور».. وجدها تنظر له باضطراب.. فقال مخففًا التوتر بينهما:

- فستانك رائع عليك.. أليس كذلك يا أمي؟.

شدد على كلمة أمي.. يرجو منها أن تقول كلمة حسنة.. بينما نظرت لها والدته بامتعاض، وهمست بصوت يشوبه السخرية:

- إنه محتشم.. وكل محتشم جميل.. لكن لم هذا التغيير المفاجئ؟

أجبرت «سچور» نفسها على ارتداء قناع اللطف، وقالت:

- لمَ خالتي ألا يليق بي؟

تجهمت قسمات وجهها.. نظرت لها بعبوس.. لم تترك لها الفرصة؛ لتسخر منها:

- أريد أن أعلم والدتك محجبة لمَ لست مثلها؟

زفر «عمار» بسخط.. والدته لن تتغير أبدًا.. فتح فاه ليرد لكن «سچور» سبقته..

- أمي لم ترتدِ إلا قريبًا، أما أنا لن أترك نفسي أصل لهذا السن حتى

أرتديه.

لوت شفتيها بامتعاض.. لم تلبسه إلا قريبًا، عائلة مشرفة حقًا.

- هل ستغادرين بسيارة أجرة؟

زمت «سچور» شفتيها تستغفر سرًا.. حاولت جهدها ألا تخرج الكلمات من فمها بسخرية:

- ولم خالتي؟ هل تخافين عليّ؟ لا تقلقي سيأتي أبي ليُقلني.

تخاف عليها، أي خوف هذا؟ إنها فقط لاتريد ألا يقلها ابنها الهمام للمنزل.

"أنا وأنا اثنان.. خلقنا واحدًا.. ثم طفقا يختلفان"

"نقطة حقيرة لا أهمية لها ببداية السطر"

"مني أفعال إلي أقوال"

"بخ بخ"

هذه ليست لك.. هذه فخر واعتزاز بي.. هذه مني إلي..

مرحبًا بي قبل مرحبًا بك!

اعتدت أن تسميني نقطة حقيرة لا أهمية لها ببداية السطر!

أهنأ نفسي قبل أن أهنئك بدنو أجلك.. ولم أجد من هو أعز منك لأبشره أني أوشكت أن أمتد لامتلاك سطر آخر كامل من حياتك التي سلبتني إياها..

هل تظن أنك تملك زمام مركب حياتك.. هيهات هيهات... ها قد حضر النوتي.. أيها الشريد الهائم في ظلمات البعث.

لك مني كل الويل.. كيف أمسك شخص متخاذل جبان زمام الأمور؟.. وكيف عدت للبيت وعارضت مشيئتي في الابتعاد نهائيا؟.. وكيف لازلت بغباءك؟ تتشارك البيت مع شقيقتي شبيهة أمي.. ومن سمح لك بالحب؟ بل وكيف وصل بك الحال للزواج أيها البائس المحتضر؟.. تظن أن باجتماع الملامح والصوت ستحضر روح الوالدة، وبهذا ستبعدني نهائيا عنك.. لم أرَ من هو أشد غباءً منك.. فكما تعلمت أنت السيطرة فقد تعلمت المقاومة، وبهذا سأستعيد السيطرة.. لا أستطيع أن أصف لك مدى اتساع ابتسامة روحي.. أيها الغبي أنت تسلك طريق الهلاك وهلاكك نجاتي.

هنيئًا لك بالاضمحلال، وهنيئًا لي بالازدهار..

اعتدت أن تلومني على كل شيء حتى اقتحمني السوء كغيث لا نجاة منه..

لست أنا من قتل أنا من فقد، أنت القاتل والظالم ها هنا.. والقتل يورث الجبن.. والفقد يورث الألم فالقوة، فيا عزيزي هنيئًا لك بالنار، وهنيئًا لي بالجنة..

قبلة على الجبين قبل وداع التحرر..

عودتي!

- أين أنتَ؟

جاءها صوت طفلة تلهث.

- "مَنْ؟»

طفلة، منذ علمت "نيار" بمرضه وعقلها تعطل فهل شاركته أذنها الآن؟ هل ضاع منه؟.. إنها لاتفهم .. أدركت أنها صمتت لفترة، ولم ترد وأُغلق الهاتف.. فأعادت الاتصال ثانية، فوصلها نفس الصوت لكن متذمرًا «مَنْ؟»..

فتنهدت بقوة، وقالت بلين:

- أين أنتَ؟

- من أنتِ؟

- أنا صاحبة الهاتف.

- أنا لم أسرقه.

- أعلم، لا أريده، خذيه لك، لكن أخبرني أين أنت؟

- ماذا تريدين مني؟ هو أعطاه لي.. لم أسرقه.

- من أعطاه لك؟ ثم أين أعط.....؟

لم تكمل حيث أُغلق الهاتف، فعاودت الاتصال لكن يبدو أنه أغلق نهائيًا .. اضطجعت على الفراش تبكي بصمت لا تعلم سببًا له أهو القهر؟ لكنها لم تجد رفيقًا غيره يواسيها حالها.. لازالت تذكر نظراته المبهمة لطفلة تبيع المناديل، طلبت منهما الشراء أثناء عودتهما للفندق بعد تناول الغداء بمطعم بعيد إلى حد ما عن الفندق.. لا تنكر أنها تأثرت لحالها.. فملابسها تشارك الأرض وسخها، وإن دققت النظر ستجد أنها أشد وسخًا.. وقد أعطاها «ياسين» من النقود ما أعطاها.. لكن تأثره هو برأيها كان مبالغًا فيه.. لقد كان يراقبها بشدة وبدا لها وكأنه يريد تبنيها، صحيح لم يلفظها لكن عيناه كانت صريحة.. وبمجرد عودتهما للغرفة.. دخلت؛ لتغتسل وحين خرجت لم تجده.. فنزلت للأسفل، وأخبرها موظف الاستقبال أنه رآه يخرج من دقائق.

لم تشعر بنفسها إلا والهاتف يعلن عن اتصال ما.. نظرت للهاتف بلهفة

عـلى أمـل أن يكـون هـو.. وجـدت "عـمار" المتصـل.. التقطـت عدة أنفاس ترسـم ابتسـامة بشوشـة عـلى وجههـا.. وكأن مجرد ابتسـامة سـتعيد للصـوت حيويته.

شـاردة بذبـول.. والحـزن اتخـذ ملامحهـا سـكنًا لـه.. حـل الليـل ولم يرجـع بعـد.. ولاتعلـم متـى سـيعود؟ وماذا سـتفعل وحدها هنا؟ هل سـتحبس نفسـها بالغرفـة حتـى يـأتي، لقـد اجتمـع عليهـا الشـعور باليـأس وقلـة الحيلـة والإنهـاك وكونـا خليطًـا لا يحتملـه بـشر، وحتى الجـوع.. لم تأكل منـذ وجبة الإفطـار والنوم أخذهـا والجـو أصبـح ليـلًا سـتأكل أولًا.. ثـم تهدأ وتفكـر ماذا تفعـل؟ لكن عندما وُضـع الطعـام أمامهـا شرعـت بتناولـه بغـير نفـس.. تشـعر أنهـا سـتغص بـه من شـعورها بالاختنـاق؛ لـذا خرجـت مسرعـة مـن الفنـدق بأكملـه.. ومـا إن عـبرت مخـرج الفنـدق حتـى صفعهـا الهـواء البـارد لكنهـا لم تبـالِ بـل أخـذت تتمـشى بالسـاحل لا رفيـق لهـا سـوى الصقيـع.. اختـارت مكانًـا تجلـس بـه بعيـدًا عـن النـاس.. العـبرات تنسـكب مـن عينيهـا تختلـط بحبـات الرمـل حتـى تـأتي أمـواج البحـر لتمحوهـا، ابتسـمت بسـخرية لواقعهـا المريـر، فالأمـواج تمحـي الظاهر لا الباطـن! مـاذا سـيحدث إن انغمسـت بمـاء البحـر حتـى يـزول ألمهـا؟.

لِـمَ تبـكي؟! حقًـا لا تعرف سـببًا لبكائهـا الذي لا ينضـب.. ربما أيقنـت عواقب اختيارهـا.. لأنهـا لا تظـن أن لديهـا القـدرة عـلى مقاومـة هـذا البـلاء.. بـلاء! كيف وهـي مـن اختـارت؟ ربمـا لأنهـا لم تُخـبر "عـمار" وهـذا يُشـعرها أنهـا أخطـأت.. حتـمًا هنـاك سـبب لشـعورها بالشـفقة تجـاه نفسـها، الغريـب بالأمـر لم يطـرأ بعقلهـا قـط، أنـه ربمـا أصابـه مكـروه أو تشـاجر مـع أحدهـم بنوبـة غضـب.

ظلـت تمـشي حتـى سـاعات متأخـرة مـن الليـل.. لم تشـعر بنفسـها إلا عنـد شروق الشـمس والـبرودة تنقشـع إثـر الحـرارة.. قامـت بتكاسـل وتعـب إثـر تخشـب جسـدها.. فـور وصولهـا غرفتهـا اغتسـلت بمـاء دافـئ، واسـتلقت عـلى الفـراش، وراحـت بالنعـاس.

وقف "ياسين" يراقب السيارة التي أخذت الأطفال لإيصالهم.. لم يستطع المقاومة عندما رأى الطفلة التي تبيع المناديل أمس.. وتبعها حتى بيتها ووجد اثنتين غيرها.. أظلمتهم الحياة بولادتهم أم أن حياتهم وأرواحهم لا تستحق، بالكاد أقنع والدتهم بأخذهم، وأنها سيصلها راتب شهري لها.. لكنه لم يستطع المغادرة كي لا يهربوا.. انتظر حتى أتى موظف يأخذهم.. دائمًا ما يكون مبعثر الهيئة وملابسه مغبرة إلا أنّ هذه المرة مشحمة! كيف سيدخل الفندق بهذا الشكل؟ فكر بتشتت ماذا سيفعل؟.. ماذا حدث لها؟ هل عادت لأهلها؟ هل عرفوا جميعًا؟.. ضرب رأسه بيده.. أحمق، أحمق.. كان لا بد أن تعرف منك أنت لا أن يصل الأمر لهنا، كيف سيبرر وبأي وجه سيواجهها؟.. لا يملك الحق بشيء، أمسك هاتفه.. اتصل بشقيقته فربما يجد لديها الحل.

بعد المجادلة مع موظف الاستقبال استطاع أخيرًا الولوج لغرفته، فتح الباب وجد «نيار» نائمة ملتفة بالغطاء.. شعرها فقط ما يظهر منها، وقف يراقبها لدقائق بهدوء.. ثم ذهب؛ ليغتسل، ويزيل عنه هذه الملابس...

استيقظت «نيار» على إثر بعض الحركة في الغرفة، توقف نبضها للحظة، وفتحت عينيها بجزع.. ثم أبصرت «ياسين».. أما هو فقال بغموض:

- أخفتك؟

- قليلًا فقط.. متى جئت؟

- منذ قليل.

تُشبك أصابعها، ولا تَجد ما تقول.. لم تُجهز نفسها لموقف كهذا، فهمهمت بكلام غير مفهوم.. حتى شعرت به يستلقي جوارها، وسمعته يقول:

- هل تزوجتني شفقة؟

قالها بنبرةٍ عاديةٍ، ولكنها سمعت ألمًا يشوب صوته وحدة بالسؤال.. أتتوهم أم لا؟.. ظلت تنظر له بصمت حتى أعاد السؤال وهو يغطي عينه بذراعه.. فنكست رأسها، لم تعد ترى شيئًا سوى خصلات شعرها السوداء.. رفعت رأسها تنظر تجاهه وهو على حاله، قالت:

- لمَ اخترتني لتتزوجني؟ يحق لي أنا الأخرى السؤال.

هنا عاوده الشعور بالأنانية.. أزاح ذراعه عن عينيه، وفتحها لكنه لم ينظر لها بل نظر للسقف، وهمس بشرود متحشرج:

- سمعتُ همسًا من أضلعي يناجيكِ!

- وها أنا أجيبك.. أنت فرض اخترته بنفسي، لمَ أُجبر عليك «ياسين»؟

نظر لها لأول مرة منذ الحديث، وسأل:

- لماذا لم تخبريني أنك تعلمين بمرضي؟

لملمت شعرها بيدها، وهمست بخفوت:

- انتظرت أن تخبرني أنت بالحقيقة.. وما زلت أنتظر.

وماذا تريد بعد؟ لقد أخبرتها شقيقته عن مرضه.. وعن حادثة السجن.. لم يعد هناك ما يقال، لم يظهر عليها قط أنها تعرف، كان يجب أن يعرف يوم طلبت إلغاء القاعة.. أحقًا قرأت التقارير الطبية ووافقت عليه؟ هل أهلها يعرفون؟ قوس فمه بسخرية.. بالطبع لا.. من المستحيل أن يرضوا وهم على علم بالأمر.

صمته هذا وضاعة منه.. جعلها تحترق بنار العجز.. تريد أن تسمع منه، ولكنه كالجماد.. فقط عيناه تطوف عليها بسخرية أزعجتها.. فهمست بحزم:

- لقد اتصلت بك.. وطفلة من أجابت عليّ، وأرى هاتفك على الكومود أي أنه لم يسرق أو وقع منك.

- طفلة كانت حزينة، وأردت إسعادها قليلًا.

ببساطة لم تصدق، ولم تكن لتفعل.. قالت بصبر:

- أين كنت كل هذا الوقت؟

مد يده لخصرها، وشدها جواره وعانقها بقوة، وقال:

- أنا مرهق وأريد النوم.

قبل شعرها، وأردف:

- شكرًا لأنك معي.

ذهنها غائب وعالق التفكير، فبقيت صامتة ولم تزعجه.. حتى شعرت بهدوء أنفاسه وارتخاء يديه حولها.. يبدو أنه نام.. انسلت من يديه وغطته جيدًا.. اتجهت للحمام تفتش عن ملابسه.. وجدتها جمعها في كيس بلاستيكي..

فتحتـه ونظـرت له بقـرف وفكـرت بامتعـاض.. أكان يقـضي اليـوم بالقمامة؟.

"الحيـاة تبـدأ حـين نظـن أنهـا انتهـت، الدنيـا جـزء صغـير مـن الحيـاة فـلا تلتهـي بالجـزء الضئيـل، وتخـسر مـا هـو باقـي"

حـين يتآكلنـا اليـأس وتصبـح الحيـاة داكنـة يثـار داخلنـا شـيئًا ليقـاوم ولـو كان ضئيـل الحجـم.. حـين ينتـشر الفسـاد، ويتملكنـا الاضمحـلال، يبـزغ شـخص كقائـد وحينهـا أيضًـا يجـد مـن يسـانده.. هكـذا هـي الحيـاة لا يوجـد شـخص لم تمـر عليـه لحظـات سـعيدة فقـط أو حزينـة فقـط.. كل شـخص يمتلـك قـدرًا مـن السـعادة والحـزن يسـتطيع التعايـش معـه.. البعـض يتسـاءل مـن أيـن يـأتي المريـض بالقـوة والعزيمـة للمقاومـة ويتجاهلـون أنـه أمـر يُبعـث مـع المـرض.. فـلا يُبتـلى النـاس عبثًـا، يقولـون عندمـا يُبتـلى شـخص بمـرض تُبعـث معـه القوة ليتحمـل ويصـبر.. فـلا يمـرض إلا مـن يسـتطيع تحمـل المـرض، فلـمَ "ياسـين" لا يقـاوم.. كالصنـم معهـا كلـما تكلمـت عـن مرضـه يتجاهلهـا تمامًـا.. سـتطلب مـن الطبيـب مسـاعدتها في كيفيـة جعلـه يوافـق.. فهـو حتـى لايتجـاوب معهـا بالحديـث عـن مرضـه، وسـتضغط هـي مـن ناحيـة وشـقيقته مـن ناحيـة حتـى يذعـن لهـما.

"إياكم وحب البدايات فإنها تترك أثر الخواتيم"

حين يحل الموت بهيئة مرض لا أعراض له، فنضحك ونأكل ونشرب بالأحرى نحيا الحياة العادية.. ثم يفاجئنا الطبيب بعد الموت.. لقد كان مصابًا بمسمى مرض.. وماذا لو جاء بأعراض متشابهة لأمراض عدة؟ وحين نذهب للطبيب المتخصص الصحيح يكون قد فات أوان الشفاء.. كلاهما قاسيان مفجعان أليس كذلك؟ لكن ماذا لو جاء المرض غير مميت ولا سبيل للشفاء منه، وألمه لا يحتمل إلا بمسكنات.. والمسكنات تتسبب بضرر، وقد تتسبب الموت بعد حين..هل إذا اخترنا تناولها نكون نحن السبب بهلاكنا؟ من الصعب تصديق أن الدواء هلاك وترك المرض يعبث بنا حياة؟

فهل يصدق أحدكم أن شخصًا يفترش الشاطئ.. مشمرًا بنطاله لركبتيه.. يلعب بالرمل الممتزج بالماء.. لا.. بل للدقة يكب الرمال فوق فخذيه تارة وفوق رأسه تارة أخرى بيده اليسرى، واليد اليمنى تحفر حروف مفككة.. حتى تأتي الأمواج فتخفيها فيعيد حفرها بإصرار عجيب.. وحبيبات المطر تهطل عليه بلا هوادة.. يبدو غريبًا أن لا أحد أحب الجلوس والسماء تمطر.. أليس غريبًا أن يتفادى الكل البلل مع نزول أول قطرة والابتعاد عداه.. أوليس؟

قد نرى جلوسه عاديًا وكأنه مستمتع بالمطر وبلله.. وإن اقتربنا سنجده ساكن الجسد عدا يديه المرتعشتين ليس بردًا.. لا.. أخبرته أمه منذ كان صاحب الثلاثة أعوام "هذه الرعشة في يديك بُرْعم اشتياق»

وقد كان دائم الإلحاح عن سبب هذه العلة.. فيده ترتعش صيفًا وشتاءً.. ليس للبرد.. بل دون سابق إنذار.. فكان ما بيده يقع دون شعور.. وكان شديد البغض لهذه الارتعاشه خاصة حين يأكل أمام أحد.. اعتاد الأولاد أن يسموه في الفصل.. "صاحب اليد الهلامية" "بياض البيض"، وكعادته لا يبالي بأحد.. لكن تقطيب خفيف لا يحس مر بخاطره.. لو كان لا يبالي حقًا لما كان تذكره بعد هذه السنوات.. وربما لأنه كان طفلًا والطفل لا ينسى

ولـو مـرت سـنون.. هـو يؤمـن بالـشيء ونقيضـه.. ولا يهـم إن كان محقًـا أم لا.. المهـم أنـه يسـير بـلا توقـف.. التوقـف تـردد.. والـتردد أجـبن صفـة قـد يوصـف بهـا خلـق..

سـاكن الجسـد لكـن عقله لا يكـف عـن الـصراع.. أصابعه تخط أحـرف كلمة مـوت كل حـرف عـلى حـده.. ميـاه المطـر والبحـر تتسـابقان لمحوهـا وأصابعـه تعيـد حفرهـا بـإصرار.. ملابسـه التـي تبللـت بالكامل يشـعر بهـا عرق ملحـاح لا ينضـب.. هـو يكـره العـرق.. العـرق نتيجة للتفكـير.. والتفكـير جنون حـين يكون بلا هـدى ولا سـكينة..

كان صغيرًا لا يعي معنى اشتياق وإن أصابه الشعور يرتبك ويبكي..

حـين سـمع إجابـة والدتـه للمـرة الأولى أصابتـه حـيرة مزمنـة، وكأنـه لغـز لا طاقـة لصغـره بـه.. فطفـق أيامًـا يبحث بالإجابـة.. ثم أعـاد السـؤال.. وهـذه المرة زادت الإجابـة بسـمة.. "هـذه الرعشـة في يديـك برعـم اشـتياق"

مـا بـال الرعشـة بالاشـتياق؟ وباللـه مـاذا تفيد كلمة كهذه.. أوليسـت شـبيهة بحـرف ألقـاه محـب لحبيبـة.. لا ينكـر أنـه لمـا اشـتد عـوده عشـقها، وكـما يتغير الحـال تغـير فكرهـا، ثم اشـتاقها، وثبـث على الاشـتياق..

يتذكـر أنهـا المـرة الأولى التـي سـأل والـده مبـاشرة، وقـد كان شـديد الالتصاق بوالدتـه.. يغـار مـن والـده كـما يغـار والـده منـه.. وقـد خيـل لوالـده أن شرحـه سـيقرب طفلـه منـه.. أخطـأ التوقـع، وزاد حـب الطفـل لأمـه، وزاد التصاقـه بها..

"أمـك تفـسر أن سـبب الرعشـة لأنـك ولـدت ولم تكمـل السـابع.. فخرجـت مشـتاقًا لـدفء رحمهـا"

زاد حبًـا بوالدتـه وزادت الغـيرة.. وكلـما اشـتد عـوده خـبر الشـوق، وبالـت السـخرية فالشـوق لا يكـون لحبيـب وحبيبـة فقـط.. إن عظـم هيـام الأحبـاء.. فلـن يصـل لجوهـر حـب الأم وخـبّر أنـه لـولا الأم لـكان الحـب عبـارة عـن علكة مسـتعملة.. تخـرج مـن فـم هـذا، ويتلقاهـا آخـر وكأنهـا جديـدة لا غبـار عليهـا، وهـذا لا ينفـي أن الحـب مسـتهلك، فقـط عبواتـه تختلـف.

بلـغ الحـب منتهـاه، فبلـغ الكره مسـعاه، ثم حـل الاشـتياق كعـذاب مطلق.. هـل كتـب عليه أن يشـتاق أمـه دائمًـا وأبدًا؟ وماذا يسـمى شـوق القاتـل لقتيله؟

هل هو شوق للقتل ذاته أم للفقيد؟ وقد عاشه مرة ثانية لكنه لازال لا يفقه.. أحدهما خطأ وآخر استرداد حق فكيف يفقه وهو لم يعشه عبثا؟!

إن كان كره رعشة يده صغيراً فقد كرهها أضعافًا بعد فقد أمه.. وخيل إليه لبرهة من الزمن أنها السبب بقتل أمه.. لم تذهب عنه رعشة اليد، لكنه تعلم السيطرة بإحكام بما في قبضة يده أثناءها..

لم يكن الوقت رحيمًا به.. لقد ظلمه الماضي وعافاه الحاضر، ولا يظن أن المستقبل سيحمل ما هو خير منهما، فاختار ألا يكون نصيراً له، وعاداه، ونسي أن الوقت عدو لا سبيل لمعاداته.. الوقت يمر دون مبالاة بأحد لن يدير رأسه؛ ليستعلم إن كنا شعرنا بمروره أم أصابنا اللهو.

الوقت معركة لا انتصار لغيره بها، إن دخلتها خرجت خاسرًا، وإن كنت حكيمًا اخترت الاستسلام له.

وصاحبنا أصابته لوثة العاقل.

بطريق العودة.. يجلسان متجاورين.. لكنهما بعيدان عن بعضهما مسافات لا تحصى.. نظرت له.. وجدته ينظر للشارع ووجه باديًا عليه علامات الألم.. ليلًا بالأمس سمعت صوت الباب.. فاستيقظت، ولم تجده جوارها.. لم تكلف نفسها عناء الخروج خلفه كي لا تثير فضيحة بالفندق.. عاد ظهرًا بنفس الألم المطبوع على وجهه الآن.. لم تدم المحادثة بينهما سوى بضع كلمات.. حين قال بيأس وكأنه يحتاج تبرير ما:

- آسف.. ليس بيدي.

لم تجب سوى بكلمة واحدة «أعلم» وبقى كل منهم ينظر للآخر يستجدي شيئًا ما.. ثم التقطت عيناه الحقائب الملقاة على الفراش، فنظر لها باستغراب.. فهمست:

- لقد جهزتها لأني أنتظر رجوعك حتى نغادر.. فلا حاجة للبقاء أكثر.

لم تسأله حتى أين كان ولا ماذا فعل؟ إنها تخاف الإجابة، لقد استوطنها الشك بأنه ربما متزوج أو حتى له علاقات بلا زواج.. أو أكثر لربما لديه أولاد،

لقد قرأت أن من أعراض مرضه أنهم على علاقات متعددة بالنساء فهل هو منهم؟ عادت تنظر له، وأمسكت كفه تربت عليها بحنو.. وهمست بخفوت:

- ما بك لا تبدو بخير أبدًا؟

طَبعَ على وجهه ابتسامة مهترئة، ولم يرد.. بينما هي تود أن تشاركه الحديث حتى يزول هذا الألم من وجهه.. إلا أنه لا يسمح لها.. لكن عقلها أبى إلا أن يرجع لتفكيره ويغلق عنه أي شيء آخر.. رأسها يؤلمها من كثرة التفكير.. أمامها أسبوعان حتى موعد رجوع الطبيب من سفره.. ومهمة إقناع "ياسين" بالعلاج، وتريد إخبار «عمار»، ولا تعلم الكيفية حتى الآن.

"مني أقوال إلي أفعال"

"إليك عني"

أعلم أن هذه ستكون كلمتك الأولى والأخيرة.. الوحيدة التي سيخرجها فمك لي.. وكيف ألومك واللوم لي؟ وكلانا يلوم عقل الآخر، وربما الزمن والتيه وجحود الأقدار.. ولعلي ألوم خلقك.. منذ فعلت فعلتك القذرة مع أمي لم أحبك قط ولن أحبك قط حتى لو واراك التراب.. قط تتساءل بسخرية كيف أتحدث إليك ولا أطيقك أيها المجرم الحقير؟.. أتحدث إليك؛ لأني أكره اقتحامك عقلي وفقداني السيطرة عليه.. أكرهك ولا ألومني في هذا الكره.. والزمن يجبرنا على فعل ما نكرهه كحديثي إليك.. لقد هدّ كياني حتى شفيت من مساوئك، وقد ظننت أنك سجين بنقطة لا سبيل لفكاك جملتها واحتياجها لسطر آخر لا حق لها فيه لترتع به.. أيها الواهم لم ولن أعطيك حق السيطرة..

نعم أنا من قَتل.. لكن فاتك أني من قُتل ومن فقد.. فحظيت بالجبن والألم والقوة معًا.. لكن ألم يكن أنت من سعى للانتقام؟ كلانا مجرمان فلا تخصني وحدي..

ألست أنت من سعى للابتعاد فمات والدي؟.

ماذا فعلت بوحدتك غير البؤس؟ ألست أنا من باعد بيننا وبينه؟ ألست أنا من وجد طريقًا للسعادة فأحببت؟ ألست أنا؟

ألست أنت من حاول قتلي مرارًا وتكرارًا؟ ألست أنت؟ فكيف لا تكون مجرمًا مثلي؟ أستحق الموت نعم.. وهذا لا ينفي كونك مجرمًا.. أكان نجاتي ونجاتك سوء حظ أم سوء فهم.. وإن كنت تباعدني كما أباعدك فابقَ حيث أنت.. حتى يجمعنا الموت بإرادته.. ومن أكثر منك معرفة برفضه ذهابنا بإرادتنا.

كائن متهالك نعم.. لا وجه ثابت له نعم.. وإن كان لا خير مني فلا خير

منـك أيضًـا.. لا تـزداد عنـي إلا بـكل مـا هـو سيء.. وإن كنـت تكـره الحـب وتكره اجتماعـي بهـا؛ فلزامًـا عليك البقـاء بقعـر النسـيان دون مقاومة..

"إليك عني" هذه مني إليك.

"لا خير لي معك، ولا خير لي سواك فهلا اخترتِ

- لا تبدين لي بخير.

قالها «عمار» بقلق.. فحاولت "نيار" رسم ابتسامة على وجهها، ولكنها فشلت، وظهرت كأنها تشنجًا بخدها:

- أنا فقط لم أنم جيدًا، لقد وصلنا متأخرًا.

بشرتها الباهتة، لا بل عيناها الباهتة.. بعض الخطوط الزرقاء التي ظهرت تحتها.. روحها المنزوية.. أكدت له صدق كذبها..

- أنت تكذبين علي يا ابنة أمي.

نكست رأسها، وهمست باستسلام:

- نعم.

بدأ القلق يعبث به، سيعلم الآن.. فلا طاقة له للانتظار، دار بجسده كي يواجهها ويحثها علي الكلام، فقالت بهمس:

- "ياسين".. إنه مريض.

- أكملي هل سيموت؟

تنهدت بتعب لا مخرج لها سوى التكلم.. لكنها ابتسمت بخفوت.. فهو مثلها تمامًا.. فالموت هو ما فكرت به حين عرفت:

- إنه مرض نفسي.

زفر براحة بديهية..

- لقد أخفتني لوهلة، أهو اكتئاب؟

- إنه مريض باضطراب الشخصية الحدية.. بأسلوب مبسط.. من يصابون بهذا المرض.. لا تستطيع أن تحدد لهم صفات تميزهويتهم .. لا تتوقع لهم ردود أفعال.. يمكن أن يسعده شيء وبلحظات يحزنه.. تارة يغضب وتارة يسامح.. سلبي تجاه نفسه وإيجابي تجاه نفسه.. لا يمكنه السيطرة على مشاعره.. حين سألت الطبيب قال لي بالحرف عن هذا المرض: «لنفرض أنّ مشاعر المريض محبوسة بغرفة واحدة، وباب الغرفة يُفتح على غفلة بموعد غير مُحدد وغير متساوٍ.. ربما لا يُفتح إلا بعد لحظات، دقائق، ساعات، أيام.. وهذا

الباب لا يتسمع إلا لخروج شعور واحد.. ولا نعرف أي شعور سيخرج؟ فهو خارج عن إرادته.. فقد يحدث موقف يُفرح الإنسان وتجدين أن من خرج شعور مُخالف تمامًا.. فقد يكون سعيدًا ويضحك وبلحظة يحزن ويكتئب دون سيطرة منه.. كما أنه يستغرق وقتًا طويلًا حتى يعود لطبيعته « ما لم تتوقعه أن ينفجر بالضحك..

- وهل المزاجية مرض؟

ظلت صامته حتى انتهى، ومسح عينيه بأطراف أصابعه.. وجدها تنظر له بجمود:

- أنت لا تمزحين! أهو خطير؟

- لقد قُتلت والدته أمام عينه وهو مراهق.. المخيف بالأمر أنه لا يُعالج.. إنه كتوم ولا يتحدث معي.. لقد تركني مرتين برحلتنا.. حتى أني شككت أن يكون متزوجًا أو لديه عائلة.. لا أعلم سر هذا الاختفاء وحتى شقيقته لا تعرف.

أما هو يبدو أنه فقد عقله، ولا يستوعب ما يتلقاه منها عندما سمع كلمة.. متزوج، خرج وتركها، هل تريد أن تفجعه؟ خرجت الكلمة منه بتقطع:

- م ت زوج؟

- لا يا "عمار" أنا شككت فقط..

قاطعهاصارخًا:

- هل تهذين؟ تركك وحدك أين؟

توقفت عن الكلام.. ونظرت له بقلق من صوته المرتفع.. خشية أن تسمعهم أمها.. الحمد لله لم تخرج والدتها من المطبخ، إذا هي لم تسمع شيئًا.. وهي من كانت تفكر أنه سيعطيها القوة.. لكنها لم تجد سوى شعلة موقدة من الغضب.. لكنه شقيقها أقرب شخص لها.. غشاشة من الدموع ملأت عينيها، فدفنت وجهها في كتفه، وهمست:

- أنت لن تخبر أمي.

- متى علمتِ؟

- قبل الزفاف بأسبوع.

حاول تهدئة غضبه، ولكنه يفشل؛ فضرب بيده على فخذه:

- لقد فقدت عقلك.. ما يحدث محض جنون!

أغمض عينيه بألم.. لن يتحمل رأيته وسيتهور ويبرحه ضربًا.. لذا تركها وآثر المغادرة.

بعد زيارة الطبيب ظلت طوال اليوم بغرفتها تُفكر.. لا تعلم لمَ شعرت بالخوف؟.. لأنه فقط طبيب نفسي. ومجرد ذكر اسمه يثير الخوف. الطب لا بد تقدم ولو قليلًا في هذه السنوات.. لقد تفهم "عمار" موقفها وإن كان معارضًا لها، ولكنه وعدها بأنه سيساندها.. وربما يكون هناك أمل ويُشفى.. لقد وعدتها «فرح» أنها ستحاول إقناعه بالعلاج أيضًا.. ولكنها لا تتأمل كثيرًا، لقد فشلت كل هذه السنوات أسيرضى الآن! وبم أنها لا تعرف الكثير عن حياته فقد طلب الطبيب رؤية شقيقته.. كما أخبرها أن الأوراق التي معها ناقصة.. تنهدت برهبة، واقشعر بدنها وهي تتذكر كلام الطبيب عندما سألته عن سبب المرض؟ «ياسين» لم يكن طفلًا صغير السن وقتها؟

"لقد كان مراهقًا يعي معنى الموت وهذا أشد تأثيرًا من كونه طفل.. وهذا لا يعني أننا جميعًا لو تعرضنا لم تعرض له سيحدث معنا ما حدث معه.. فربما بعضنا يراه شيئًا عاديًا والبعض الآخر قد لا يتحمل ما رآه وقد يكون رد فعله أشد وطأة.. لقد خُلقنا جميعًا مادة خام نختلف لتأثرنا بالمكان، الزمان، البيئة، الأشخاص، الأحداث.. حتى لو تأثرنا جميعًا بنفس الأشياء لن نتطابق.. فكل شخصٍ ينضج بفكر مختلف.. ولو تشاركنا بوراثة صفات متشابهة.. فهل يتطابق الأشقاء؟ الأشقاء قد يتأثروا بنفس المكان لكن ولدوا بزمان مختلف والحياة تختلف بمرور اليوم الواحد.. فالأمر لا يقتصر على الأسرة دخل المنزل.. عند ذهابهم للمدرسة يعاشرون أشخاص مختلفة .. ولا يتشاركون نفس أحداث اليوم.. فحتى التوأم.. وإنْ اشتركوا بالمكان والزمان.. فقد يكونا ولدًا ذكرًا وأنثى فاختلفا من البداية.. وأخيرًا هذه المادة الخام وإنْ تشابهت في الهيئة وبعض الصفات فهي تختلف في درجات الصفات فلو

كانا مثلًا شخصين عصبيين.. ستجدين واحد أكثر عصبية من الآخر وردات فعله أكثر تهورًا مقارنة بالآخر وقيسي عليها الباقي.. فهذا مجرد مثال واحد لا أكثر"

لقد سألها الطبيب، إن كان «ياسين» تعرض لاعتداء بصغره.. وبدورها سألت «فرح» وقالت: أنها لا تعرف.. تتمنى لو كان والده مازال حيًا.. كان سيكون الطريق سهلًا أمامها.

أجفلت عندما فتح باب الغرفة.. وطلّ منه «ياسين»، لقد أصبحت تتجاهل غيابه، ولا تسأله أين كان؟ ولا ماذا يفعل؟.. تابعته بعينيها وهو يتجه للخزانة يغير ملابسه.. سألته بغتة:

- "ياسين".. ماذا كان شعورك عند موت والدتك؟

توقفت يداه عن الحركة، واتجه إليها..

- لم هذا السؤال الغريب؟ ماذا حدث؟

- وهل يجب أن يحدث شيء؟ لقد تذكرت يوم وفاة والدي لا أكثر.. أخبرني.

مد يده لرأسها يضعها بحجره، وبدأ يتخلل بيده خصلات شعرها، وقال:

- كشعورك حينها.. لمَ تريدين إزعاج نفسك؟

- لا «ياسين» لقد كنت طفلة لم تبلغ السابعة أما أنت كنت صبيًا يعي كلمة موت.

همس بشرود والأحرف تتقطع منه:

- إنه شعور مؤلم.. هل تعلمين كيف يأكل الصدأ الحديد.. هكذا يكون وكأن الصدأ يصيب عضوًا ثم ينتشر حتي يتآكلك نهائيًا ولا يترك أثرًا للحياة فيك.. تصبحين باهتة.

- معك حق.. لقد كان أمرًا مفجعًا.. لقد كان قتلًا، ليس طبيعيًا كباقي البشر.

وقطعت كلامها حين شعرت بارتعاشه وتوقف يده عن الحركة بشعرها.. اعتدلت توازيه، وهمست بقلق:

- ما بك؟ أنا آسفة إن كنت ذكرتك بالماضي.

ابتعد عنها وتحرك بتخبط بالغرفة لثوانٍ، ثم نظر لها بجمود، وقال بيقين:

- "فرح" من أخبرتك أليس كذلك؟.. أنا لم أخبرك كيف ماتت أمي؟.

ثم صرخ بها بحدة:

- ماذا أخبرك؟ تكلمي، ماذا قالت لكِ؟

انكمشت على نفسها بتوجس.. بداية الكلام لا تبشر بالخير أبدًا..

- لا شيء، لقد قالت أنه كان حادث سرقة وأنت رأيت اللص وهو يقتلها.

صمتت وصمت هو الآخر.. تنفست بخفوت تهدأ نفسها من صراخه.. وحين طال الصمت تشجعت للحديث ثانية:

- إنه لشيء مهيب ما حدث لكن ألم تستطع الصراخ.. أو أن تستنجد بالجيران أو فعل أي شيء.. الاتصال بالشرطة مثلًا لكني أعذرك ربما خفت.. هناك بعض الأشخاص لا يستطيعون الحراك من الصدمة.

صمت ونظر لها ببرود قبل أن تظفر لحظة من الغموض بعينه.. فحضرت رهبة الصمت بداخلها.. وكيف لا يُهاب الصمت وفي حضرته تفقد قيمة القيم؟.

- لقد فعلت ما هو أكثر.. لقد استللت سكينًا، وذهبت لأصيبه عندما رأيته يهدد أمي.. إن لم تعطه كل ما هو ثمين بالمنزل سيقتلها.. الأمر المضحك والمخيف في الأمر أني بدلًا من إصابته هو أصبت أمي.. هل عرفت الآن؟.. أنا من قتلها.

اتسعت عيناها، وتوقفت أنفاسها لثوانٍ.. لكن سرعان ما أفلت الضحك من بين شفتيها:

- أنت تمزح، هل ألفت هذه القصة لتخيفني كي أتوقف عن الأسئلة؟ لن تنطلي علي هذه الخدعة.

تمتم بهدوء مخيف.. أرعبها حد النخاع:

- لا أمزح.. يمكنك التأكد من «فرح» ستخبرك أنه عندما عاد أبي.. وجدها غارقة بدمائها وأنا جالس جوارها بلا حراك.. وقد فر اللص.. ستخبرك أني تركت أمي تنزف للموت، ولم أتحرك لفعل شيء.. ستخبرك أنه كان يمكن أن تعيش إن ذهبت مبكرًا للمشفي.. ستخبرك أني من قتلتها.

أما هي فتضع يدها على أذنها تسدها من هول ما تسمع وهي تقول:

- لا، أنت تكذب.

أمسك يدها يمنعها من وضعها ثانية على أذنها:

- أريدك أن تسمعي.. أنا «ياسين» من قتلت أمي، لم أكن مريضًا كنت سليمًا.. هل تعلمين أي عذاب عِشت وأعيش وسأعيش من لحظتها.

بدأت ترفس بساقيها، وتتلوى بين يديه.. وهو يحاول إخضاعها لكنه فشل تمامًا:

- لم ترفضين الحقيقة؟.. ها أنا أخبرك الحقيقة كاملة.. لم ترضين بأنصاف الحقائق؟

أمسك يدها وقدميها بحذر يمنعها الحركة.. ليتفادى ضرباتها العشوائية:

- اهدئي.. لا مجال للمعارضة لقد حدث وانتهى الأمر.

صوت بكاءها يعلو وشهقاتها ترتفع وهو يضمها أكثر ويهدهدها:

- شششش يكفي.. أنت السبب انظري لفضولك أين يُوصلكِ؟ تكثرين الأسئلة.

بعد وقت هدأت، ووقف صوت بكائها فقط دمعاتها تنزل بصمت.. فأرجع رأسها للخلف قليلًا، ومسح وجهها بيده.. بعد وقت همست بصوت متعب بالكاد سمعه:

- أريد النوم.

كان سيعترض فالساعة بالكاد تعدت السابعة.. إن نامت الآن لن تستطيع النوم ليلًا! لكنها تنظر له نظرة تفطر قلبه.. ففعل كما أرادت، ودثرها بالغطاء جيدًا دون أن يتركها.. لديه شعور يلكمه أنه إن أفلتها ستهرب منه، لكنه ظل يناظرها بحيرة واستغراب.. وكأنها كائن غير قابل للفهم.. ما ردة الفعل هذه! ألم تخبرها «فرح» أنه سبق وقتل شخص وإن كان عن طريق الخطأ ومرضه كان كفيلًا بإخراجه.. إلا أن هذا لا ينفي عنه أنه مجرم، قاتل.. وقد وافقت به فما الذي تغير الآن؟.. زفر بضيق رهيب.. يا إلهي! إنه لا يفهم نفسه فكيف سيفهمها هي؟..

"نقطة حقيرة لا أهمية لها ببداية السطر"

"مني أفعال إلي أقوال"

كان يومًا صقيعًا اختارت الشمس أن تتعطر بلوح من الثلج يضاهيها حرقة.. أمطار غزيرة ينتج عنها ما يشبه البحار.. فيبدو البشر كأسماك تحاول النجاة من بحر عكر.. بينما البشر يتساقطون متسائلين كيف النجاة من بحر لا شاطئ له؟ يومًا أجبر مَن بمنزله على عدم الخروج.. ومن خرج على عدم العودة إلا بعد شوط عذاب.. والطلاب على معاملة اليوم وكأنه عطلة رسمية..

أتلحف بغطاء سميك يقيني من البرد وعيني لا تغادر فراش شقيقتي البالغة من العمر عامين.. بعد محاولات متعددة للإنجاب من بعدي باءت جميعها بالفشل استمرت اثني عشر عامًا.. جاءت "فرح" ثمرة نجاح بعد فقدان الأمل.. نائمة بهناء لا يزعجها صوت مطر ولا خوف رعد.. فتحت نافذة الغرفة.. أشاهد حلاوة المطر.. حلاوته بالتساقط.. حلو يشاهد ويسمع ويشم ويحس.. فأي حلو هذا؟.. الهواء محمل بروائح عدة وحلوها رائحة المطر الخاصة.. تتشابه مع رائحة الحنين.

المطر حلو بتساقطه وليس بآثاره على البشر.. وإن كان ظلمًا أن يتحمل وحده الإثم، فالبشر يحتلون الإثم الأكبر.. نادرًا ما يجتمع البرد مع المطر بذات اللحظة.. تعودنا أن يسبق أحدهم الآخر.. وفي المعظم يسبق البرد، وبحلول المطر يختفي البرد.. تتساقط بيضاء نقية عذبة، وعندما تتلامس بالأرض تتغذى بالوسخ فتملح.. تصاب بلعنة الأرض ...كما الإنسان يخلق نقيًا، وعندما يخرج للأرض تصيبه لعنتها؛ فيتوسخ.. ألم ترفض الأرض في بداية الأمر بأخذ حفنة منها لنخلق؟!

أصدرت ضحكة ساخرة.. ماذا عساي أقول؟.. انشغلت بالتفكر بالطقس وكأني خبير.

صرخة أمي كانت الفاصلة.. تحركت سريعًا ظنًا مني أن المطر تسبب بكسر زجاج المطبخ، وأنها أصيبت بجرح ما.. فقد كانت صرخة مفزعة.. نظرت سريعًا لشقيقتي؛ أطمئن لنومها، ثم نزلت الدرجات سريعًا كل درجتين معًا.. وقبل اقترابي لمحت شخصًا بالمطبخ معها.. سريعًا انحنيت أرضًا أزحف للباب الخلفي وبطريقة ما لا أتذكرها استللت سكينًا.. وربما رآني حينها فكان هذا سببًا باستدارته وإصابة أمي.. خبيثًا كان هذا اللص.. وخبيثًا كنت.. فقد تركت أمي تنزف للموت، وتركت اللص يفر.. وجلست أحاكي الصدمة..

أخبرك سرًا.. فأنا أحب الأسرار.. لم أكن قد بعثت بعد.. لكنه العقل الباطن حينما يرى صورة أو يسمع كلمة فلا بد وأن يترجمها ويتخيلها.. وشخص مثلي شحيح التخيل.. لم ينتج بمخيلتي ما هو أكثر...

"الحب أحيانًا أخرى كريه الرائحة كبيضة فاسدة»

صباحًا تجلس "نيار" بالشرفة شاردة بالسماء.. تحتسي فنجانًا من القهوة المحلاة. "ياسين" يقف جوارها يراقبها بصمت.. إلا أن رنّ هاتفه وَجد رقم «أسعد" على الشاشة.. فأغلق الهاتف..

جذب الرنين انتباهها؛ فنظرت إليه، وهمست مباشرة:

- لقد حجزت لك عند طبيب؛ لتباشر بالعلاج.

ضحك حتى دمعت عيناه:

- طبيب! ولم؟ من أخبرك أني بحاجة لعلاج.

بالأمس ظنت أنها وقعت تحت يد مجرمين كبيرين.. وبعد تفكير لقد أخبرتها «فرح» بقتله لشخص غريب، وعدم إخبارها بقتله لوالدته.. لو كانت هي بمكانها لفعلت ما فعلت.. لم يكونا متزوجين بعد، ولم تكن لتفضح شقيقها أمام أيًا كان.. وربما ظنت أنها ستتركك شقيقها.. لذا هي معها حق بتصرفها هذا.. لكنها فقط تعتب عليها؛ لأنها لم تخبرها بالحقيقة بعد زواجهما.. ومن اليوم ستعمل على معرفة كل ما يخصه منه هو شخصيًا..

- أنت بحاجة ماسة إليه.. لن أقول افعله من أجلي.. لأجل شقيقتك.. لأجل أمك.

شدّدت على الكلمة الأخيرة.. بينما هو رد ببرود لا يملكه:

- لست بحاجة لشيء.. أريحي نفسك وعقلك وتفكيرك من هذه الأشياء.. لقد عشت لسنوات بلا شيء، وسأفعل للباقي من عمري.

تحرك مغادرًا.. لكنها استوقفته قائلة:

- لا تتجاهلني ككل مرة.. وتتهرب من الأمر؛ لأنك ستذهب.

ودون أن يلتفت لها تمتم بجبروت، وقد احمرت عيناه خوفًا..

- وما الذي جعلك واثقة؟

قالت بثبات دون أن يطرف لها رمش:

- لأني ببساطة سأرحل إن لم توافق.. ولا تتحداني لأني سأفعلها حقًا.

وقف بمكانه وأدار وجهه إليها ينظر لها يستجدي كذبًا في كلامها:

- أنت تكذبين.. بهذه البساطة ترحلين، هذا يعني أنك تستسلمين.

- لا.. من يستسلم هنا هو أنت.. أما أنا كنت موقنة أني سأقنعك بتلقي العلاج حتى أني بحثت عن أطباء قبل الزفاف.. لأني آمنت أنك ستوافق.. وما أراه أمامي الآن هو خضوع للمرض ليس أكثر.. وهكذا سأرحل ببساطة.

ظل ينظر لها لدقائق دون كلام.. ثم غادر وتركها.. أما هي فذهبت للخزانة تنتقي ما ترتديه، فاليوم خطبة «عمار».. التقطت حقيبتها.. وقبل أن تغادر قررت الذهاب لرؤية «فرح» والتحدث معها بشأن ما عرفته البارحة.. نزلت للطابق السفلي، ودخلت غرفتها دون طرق.. وهمست بصوت يشوبه العتب:

- لم تخبريني كل شيء؟

خيم الحزن عليها وقالت بألم:

- آسفة، كان يجب أن تعرفي منه هو.

ثم أردفت بصوت خفيض:

- عندما عاد أبي للمنزل.. وجدها غارقة بدماءها.. سأله عما حدث ولم يجب، ولم ينتظر إجابة منه.. أخذها للمشفي وعند وصوله كانت فارقت الحياة، وأخبروه أنها كانت تنزف ما يزيد عن الساعة.. تركها تموت، لم يتصل بأبي أوحتى بالإسعاف. لم يتكلم "ياسين" لستة أشهر.. صحيح أن أبي أحضر له عددًا من الأطباء.. لكنه أهمله، وأودع اهتمامه بي.. ومل منه.. حتى أنه كان يحبسه بغرفته.. لقد كرهته وقتها وكرهته أكثر حين توفي أبي.

صمتت ومسحت بأصابعها دمعة أفلتت من عينيها..

- هل مازلتِ تتحاملين عليه؟

- جزء مني يفعل!

- لكنه حدث بالخطأ لم يكن بيده!

- لم يكن هذا رأيك البارحة!

كان هذا صوت «ياسين»

بدخوله بدا وكأن ثاني أكسيد الكربون اقتحم المكان، فهرب الأكسجين

مـن الهـواء.. هـل نـادى أحدهـم عـلى إغـماء الـروح ليحـضر؟.. أم هـل نـادى أحدهـم الراحـة لتحـضر؟.. الاثنتـان صمتتـا.. واحـدة صمـت التخاذل خشـية من الوجـع.. والأخـرى صمـت الراحـة خشـية أن تسـتدرجها في كلام آخـر..

بينـما «ياسـين» في حالـة مـن النكـران.. يخـشى المواجهـة، يخـشى الـكلام، يخـشى النظـر، يخـشى السـماع.. يـا إلهـي.. وجـه أمـه مصاحبًـا لصوتهـا.. أي وجع قـادر عـلى دك عظامـه الآن؟.. وأي أمـل خـادع قـادر عـلى فعلهـا؟.. يتآمـران عليه وهـو بالأصـل غـير قـادر عـلى مواجهـة نملـة.. كل مـا فيـه يحرقه ويـود الهـروب.. جلـده، عظمـه، أعضـاؤه، دمـه، خلايـاه، أعصابـه.. كلـه يـود الهـرب مـن كلـه.. يريـد أن يُصبـح هـو والعـدم سـواء.. ليـس بعقـل العـالم بل بعقلـه هـو.. يريد أن ينـسى نفسـه.. يتحـول لذرة أكسـجين؛ تُخرجها شـجرة خـضراء.. فتلتصـق بإحدى غصونهـا.. بـل يهـرب لقـبر أمـه يحتضن اسـمها.

"كيف لمن أهواه أن يهواني متنكرًا، "مني أقوال إلي أفعال،

ذليل النفس، وقح، مدعي!

كيف لمن اختار لحياته أن تكون نقطة أن يمتلك حق الاستمرار؟.. كفاك تبجحًا، واذهب إلى حيث جئت.. ومن أعطاك حق السرد لشيء لا تفقهه أيها الغبي الأحمق.. تتكلم وكأني لا أعلم أنك لم تكن متواجدًا حينها.. أي سر هذا بالله ما هذا الحمق؟!

غير أني متفق معك في شيء واحد.. لقد كان الهواء صقيع لا أثر لحرارة شمس به.. لقد اختارت أن تشرق بنورها دون حرارتها.. مهما حاولت إشعال عود ثقاب فإنه لا يشتعل.. أبي يملك شركة سياحية، وقد افتعلت "فرح" الكثير من البكاء لمرافقته.. بينما آثرت أمي البقاء معي في فترة امتحاناتي.. وكان اليوم يوم عودته..

انتفضت فزعًا لصرخة أمي، وسرعان ما هدأت.. كانت صرخة مفاجأة ليس إلا، وقد خطر ببالي أنها رأت حشرة ما.. ومع ذلك اتجهت للأسفل.. رأيتها تتشاجر مع أحد يحاول انتزاع خاتمها، فلما أبت أخرج سلاحه.. حينها عدت أدراجي.. وجه أمي كان لي بينما اللص موليًا ظهره.. تحركت حدقتي أمي لي لأقل من الثانية، ثم عادتا للص كي لا يلحظني.. وصلت لغرفتي أتعثر بخطواتي.. لبيتنا ساريتين إحداهما أمام غرفتي.. احتضنتها وببطء نزلت للأسفل.. دخلت من الباب الخلفي للمطبخ.. مازال اللص يحاول إخراج الخاتم من يدها، ومازالت أمي تتملص منه وبدون تفكير استللتُ سكينة موجودة على الرخام بجانب بعض الخضراوات يبدو أن أمي كانت ستباشر بتقطيعها.. وجهتها لقلبه من الخلف.. أدار أمي ناحيتي واحتمى بجسدها.. وقد رأيته بعيني، وكان بإمكان عقلي إعطاء الأوامر ليدي لتتوقف مكانها وبكل أسف لم يحصل، وأكملت يدي اندفاعها؛ لتنغرس بجسد أمي..

غاب ذهني لحظتها نهائيًا.. كنت أشاهد لكن كالمقيد من أخمص قدمه

لشعر رأسه.. تعلمون لمَ؟ لأنه ظهر لحظتها استغل ضعفي وحضر.
ألقى اللص جسدها على الأرض وهرب.. فسقطت جوارها أرفس بقدمي غير مصدقًا ما أرى.. لا أدري إن طالها أذى من قدمي أم لا.. توقفت عن الحركة والتفكير عندما شعرت بأصابع يدها تحط على قدمي اليسرى.. شاهدت شفتيها تتحركان بما لا أسمعه ولا أفقهه.. كما شاهدت بقعة الدم تزداد اتساعا بملابسها والأرض على حد السواء..
نظرت لأصابع يدي بارتباك أو كره أو لعله كان اشتياق لأي شعور.. وربما قطبت حاجبيّ قليلًا.. أناشد أصابعي بصمت.. كيف لها ألا ترتعش كعادتها وتسقط السكين؟.. كيف لها وهي التي لا تمسك بزمام أي شيء؟!
أكره يدي كما أكرهك.. إن كانت يدي من أصابت أمي.. فسكونك أنت من قتلها.. إن كنت أنا لحظتها الجسد المضيف للوحش، فأنت ساكنه..
فقط أخبرني كيف سكنت والمصابة أمك!
يا بعضًا مني.. يا كل بعضي.. أكرهك كما أكرهني.

"ب.. ن"

أشار «عمار» بعينيه لشقيقته كي تعطيه علبة الدبل، فناولته إياها، وعادت تقف جوار «ياسين".. رأته يتحرك؛ فأمسكت يده تمنعه.. لا تريده أن يفارقها لحظة.. لذا تمسكه بشيء من القوة.. الجو مشحون ولا يحتمل.

بالجانب الآخر العروس ترتدي فستانًا أزرقَ يصل أسفل ركبتيها بقليل.. حزام من الورد الأبيض على الذراع الأيسر للفستان.

لقد فُجعت عندما استيقظت صباحًا، ووجدت رسالة وقحة من والديها أنهما خرجا برحلة، ويعتذران عن عدم حضور خطبتها، لم تصدق وظلت تعيد قراءتها مرات عدة.. ولم تتصل بهما.. لم يجل بخاطرها قط أن يصدر عنهما شيء كهذا، شيء بداخلها كُسر وطُبع على عينها فانكسرت حدقتاها.. وألغت الحجز، واكتفت بالذهاب لمحل المصوغات لشراء الدبل وارتدائها بالبيت.. لكنها ساهمة.. بالكاد تعي ما حولها.. لم تسمع من «عمار» إلا كلمة.. مبارك لنا.. ربما لأنها قيلت كثيرًا اليوم فألفتها أذنها...

كلما حاول «عمار» محادثتها لا تستجيب.. ما فعله أبواها لايُحتمل. من حضر من أصدقائهما يصفقون بأيديهم لثوان، ويتوقفون، ثم يعيدون الكرة، يزيلون التوتر الذي يملأ الجو.. وخصوصًا موقف والدته عندما عرفت.. لم تتوقف عن نعتهم والسخرية منهم "عائلة مشرفة"، لقد أكلت وجهي أمام الناس بعد أن قمنا بعزيمتهم» لكنه لم يهتم لهتافها به.. خائف على من تجاوره، فعيناها تنافس الألم تألمه، ولا تنطق بحرف، كان يريد تأجيل الخطبة حتي يرجع أبواها، ولكنها هي من أصرت بشدة.. انتبه لأصدقائه يباركون قبل أن يغادروا.. رافقهم للخارج كي يتنفس هواء ينعشه لتلافي الصمت.

عندما خرج «عمار» همس «ياسين» بأذن «نيار»:

- لقد خرج الجميع ألن نغادر نحن أيضًا؟

- انتظر حتى...

وتوقفت الكلمات بفمها وهي تسمع والدتها تُؤنب «سچور» بصوت مرتفع:

- ألا تخجلين من نفسك؟ كيف ترتدين شيئاً كهذا بخطبة ابني أمام الناس؟

أجفلت «نيار» من هذا الهجوم المباغت.. بينما ردت «سچور» بفتور:

- إنها خطبتي أنا أيضاً خالتي.. والفستان إلى حد ما محتشم.

- محتشم! من أي جهة انظري لعري ساقيك.

نظرت «سچور» لساقيها، ثم أعادت النظر ل»حنان»، وهمست ببرود:

- لا يظهر منهما إلى جزء صغير.

هتفت بها بحدة:

- ألا تشعرين بالخجل؟! على الأقل استحي من نفسك لقد كان هنا عدداً من الشباب.

نظرت لها بجمود ويبدو أنها وجدت من تفرغ به غضبها.. ومع هذا قالت بهدوء.. لكن بنرة لاذعة؛ لتثير غيظها:

- لا يا خالتي.. أنا لاأستحي في الشارع.. أسأستحي بمنزلي؟ ومع هذا تقنيًا التزمت.

قاطعتها بغضب، وقد احمر وجهها:

-لا أعلم أين يذهب حياء الفتيات هذه الأيام، لقد أصبح شيئًا نادر الوجود، أتعلمين أن «السيدة فاطمة رضي الله عنها وأرضاها» أول من صُنع لها النعش المغلق.. من شدة حيائها خشية أن يرى الناس معالم جسدها وهي ميتة.

"نيار" كانت تنظر لهما بذهول وفم مفغور وكأنها تشاهد مشهدًا للقط والفأر.. نظرت ل-"ياسين" وجدت مكانه خاليًا يبدو أنه غادر دون شعور منها، استجمعت صوتها، وقالت لتخفف الوضع:

- أمي.. ليس هناك من خلق أو سيخلق على وجه الأرض يصل لمكانتها فلا تقارني أرجوك.

أشارت لها «سچور» بالتوقف، وأكملت هي وقد ملت من هذا الوضع:

- وهل الحياء يقتصر على الإناث فقط، حد علمي خالتي أن زوجها «سيدنا علي رضي الله عنه وأرضاه « لم يرَ عورته قط .. أوليس هذا نوعًا من

الحيـاء أيضًـا.. أكـثر مـن وُصـف بالحيـاء كان رجـلًا أيضًـا خالتـي.

- كوني له "فاطمةُ" يكن لك "علياً".

- وأنـا أجيبـك بالمثـل أيضـا خالتـي، ليكـن هـو "علياً" أكـن أنـا "فاطمـةً".. مـاذا تريديـن أن تسـمعي خالتـي؟ أني مخطئـة لعـدم ارتـدائي الحجـاب.. أني مخطئـة لعـدم ارتـدائي مـا يسـترني.. معك حق أنـا أعلم بكونـه فرضًـا، ولا أطبقه.. معـك حـق أنـا مخطئـة.. عاصيـة.. أيـا كان مـا تريدين سـماعه.. نعـم أنـا كذلك.. بـم أن المجتمـع يحكـم عـلي الإنـاث بملابسـها.. فبـماذا تحكمـون عـلى الذكـور أيضًـا كي أعلـم إن كان «عـمار» صالحًـا أم لا؟

وتركتهما، وذهبت فقالت «حنان» تُحدث «نيار»:

- أرأيت كيف تكلمني إنها لا تحترمني؟!

هزت «نيار» رأسها بيأس وقلة حيلة وهمست:

- أنـت المخطئـة يـا أمـي.. الحيـاء يُعرف بالمـشي والصـوت والأخـلاق.. صحيح أن الملابـس تُؤكـد.. ولكـن هنـاك كُثر ملابسـهن تـدل على علو أخلاقهـن وحيائهن وحـين تقتربـين تجدينهـن لا يعرفـن حتـى أن هنـاك صفـة تُسـمى حيـاء، لم يكن عليـك أن تعامليهـا بهـذا الشـكل الغـير لائـق.. لقد أشـعرتها بالنبـذ، كـما أن حالة «سـچور» أرى أن أكـبر اللـوم يقـع عـلى والديها!

وتركتها هي الأخرى، وذهبت لترى «سچور».

بالخـارج نظـر «ياسـين" صـوب "عـمار" ينـادي عليـه مـن بعيـد.. لا يحبـذ الاقـتراب منـه الآن:

- "عمار".. إنهم يريدونك بالداخل.

أغمـض "عـمار" عينيـه بضيـق.. ألا يكفـي ضيقـه اليـوم ليـأتي هـو ويُسـمعه صوتـه؟ بالـكاد يمنـع الغضـب الـذي يرتسـم عـلى وجهـه.. يحـاول جاهـدًا تقبـل وجـوده في حيـاة أختـه، وأنـه الآن يشـكل حيـزاً كبيراً منهـا، لقد بحث عـن أعراض مرضه..»مشـاعره خـارج السـيطرة.. سـلوك مؤذي لذاتـه يؤدي للانتحـار، الغضب والقلـق والاكتئـاب يسـيطرون عليـه.. علاقاتـه غـير متزنـة.. ينتابـه خـوف مـن تخـلي النـاس عنـه.. يتعاطى مواد مخـدرة وكحـول.. يتسـم بالاندفاعيـة والتهور.. التلاعـب النفـسي للحصـول عـلى الرعايـة والاهتمام مـن الآخرين» وهـذا الأخير لا

بـد أنـه يسـتعمله مـع أختـه.. وهي تنسـاق لـه.. فقط سـتكررها معـه حتى تمل منـه وبعدهـا سـيُرجعها للمنـزل.. تنهـد بقـوة ودخـل.. وجـد أمه تجلـس وحدها وقبـل أن يسـألها عـن أختـه وخطيبتـه.. هتفـت بنـبرة لاذعة:

- كيف سمحت لها بارتداء ثوب كهذا؟ ألا رأي لك؟

نظر لها ببلاهة وهمس بتشدق:

- أخبريني ماذا قُلت لها بالتحديد يا أمي؟.

شردت «نيـار» عندمـا بـدأت «فـرح» السرد.. تحدثت عـن طفولة «ياسـين».. علاقتـه بأمـه.. تنبهـت حواسـها حـين سـمعت أنـه حجـز عـام بمصـح عقـلي.. واللـه إنّ مـا عرفتـه صعـب.. يبـدو أنهـا لم تكـن تعطـي الموضـوع أهميتـه التـي يسـتحقها.. ولا تستشـعر خطورتـه! لمَ لا يفـردون الحقيقـة أمامهـا كاملـة؟ وإن حُجـز الآن مـاذا سـيكون موقفهـا؟ الشـعور بالعجـز أسـوأ مـا يكـون.

اسـتغلت وقـت خـروج «ياسـين».. أحيانًـا لا يغيـب ويرجـع بعـد عـدة سـاعات.. لكنهـا ترجـو أن يطـول غيابـه هـذه المـرة حتـى يغـادر الطبيـب.

بعـد أن أنهـت «فـرح» الإجابـة عـن أسـئلة الطبيـب.. تركتهـم وغـادرت لغرفتهـا.. الـكلام آلمهـا بشـكل لا يطـاق.

تكلم الطبيب بجدية:

- مـا علمتـه أن المريـض يرفـض العـلاج بشـكل قاطـع.. هـذا يعنـي أنـه لـن يـرضى بـأن يـأتي للعيـادة.. مـا سـتفعليه.. أنك سـتضعين له حبـة منـوم في الطعام وعندهـا ينـام تربطيـه جيـدًا.. يديـه وسـاقيه كي لا تسـتطيع التحـرك وسـآتي لبيتكـم.. أعلـم أنّ الأمـر صعـب لكنـه تُـرك دون عـلاج.. وكـما ذكرت شـقيقته أنه قتـل قبـلًا ولـو عـن طريـق الخطـأ.. لكـن مـا أدرانـا قـد يكـون متورطًـا بـشيء...

قاطعته "نيار" بحدة:

- أوليس هذا عذابًا؟

- كيـف يعاملـك حـين يغضـب؟ يـصرخ بـك؟ لكنـه لا يؤذيـك أليـس كذلـك؟ لكـن مـا لا تعرفيـه أنـه يـؤذي نفسـه وبشـدة؛ لأنـه لا يُعالـج ولا يجـد طريقـة

لضبط مزاجه إلا التعرض للألم الشديد.. كما أنه لا بد وحاول الانتحار، ولم أسأل لأني على يقين أنه فعل.. ألم تلاحظي علي جسده شيء لا بد أنك فعلتِ ؟.

نظرت له بذعر.. تتوه من نفسها.. لا تعلم أين تجدها؟.. حركت أصابع يدها على كفها كطبطبة خافته كأنها تهون على نفسها ما بها من هوان.. يا إلهي! لقد لاحظت، والكثير أيضًا.

- أنت تُخيفني!

- لا بد أن تخافي.

نظر لها "عمر" ببعض الشفقة وهي تنكس رأسها تواري دمعاتها عنه.. لكنه لن يعطيها أملًا زائفًا يريدها أن توقن صعوبة الأمر.. كما أنه يفكر باحتمالين: إما أن يكون «ياسين» غير مريض وببعض الذكاء مثّل، وأقنع الأطباء بمرضه أو ربما والده رشى الطبيب؛ ليكتب في التقرير ما يفلته من العقاب.. والاحتمال الثاني أن مرضه تفاقم ولا يقتصر على مجرد اضطراب كما أن شقيقته لم تخبره إلا القليل.. إما أنها لا تعرف وإما أنها تكذب.. فقال بجدية :

- لأكون صريحًا معك مدام.. سأسألك سؤالًا.. من يهزم الآخر الماء أم النار؟ سيكون جوابك الماء أليس كذلك؟

أومأت برأسها دون رد، فأردف:

- معك حق فلنعتبر إذًا أنّ النار هو المرض.. الماء هي العلاج، ولا بد أنك تؤمنين أن العلاج سيكسب دائمًا أليس كذلك؟

بللت شفتيها بلسانها وهي تستشعر أُوامًا لا تعلم له سببًا، وهمست:

- نعم.

- مخطئة! النار تستطيع أن تترك أثرًا بعد الاندثار.. دائمًا ما يبقى أثرًا، عندما يكون هناك منزل ما اندلع به حريق سيبقى أثرًا للحريق بعد إطفائه بالماء حتى وإنْ غمرناه كل يوم بالماء لن يرجع لأصله بالماء وحدها.. البيت هو «ياسين".. النار هي المرض.. الماء هنا الطبيب.. أسرته هي الترميم.. وهنا يكمن دورك أنتِ، فالبيت تدمر وبحاجة لترميم.. وهذا ما أخطأ به والده،

لقد ترك أمره كله للأطباء ونسي أن المريض بحاجه لكامل التفهم والرعاية من عائلته.. إن احترقت سفينة كبيرة الحجم بالبحر الواسع.. والماء يحاوطها من جميع الاتجاهات ستبقى النار مشتعلة لوقت ولن تستطيع الماء إطفاءها في لحظتها.. وهذا هو العلاج لا يصل لمفهوم الشفاء الكامل.. نحن فقط نجعله يتماشى مع حياته دون أن يسيطر عليه بالكامل.. ولا هو علاج سريع بل يستغرق وقتًا طويلًا بل أحيانًا يستمر للأبد.. ثانيا المريض توقف عن العلاج لسنوات، وهذا يؤزم الأمر كما أنه سيأخذ وقتًا حتى يثق بي ويتكلم، أريد أن أعرف تفاصيل حياته الدقيقة حتي أستطيع أن أبدأ بالعلاج وأنت وحتى شقيقته لا تعرفون عنه شيئًا بعد وفاة أمه سوى قشور.. أمر آخر.. نسبة تعافي الإناث أكبر لكبر استجابتهنّ للعلاج ولأن الرجال لديهم ميول للانتحار أكثر من الإناث.. وهناك من يُشفى، ثم يُعاوده المرض مرة ثانية.. لا أريدك أنْ تبتئسي، الشفاء يعتمد على استجابته للعلاج.. أي هناك أمل فهناك نسبة من المرضى تعافوا.. إن رفض التكلم ولم أستطع أن أحثه علي الكلام سيخضع للتنويم المغناطيسي.. هناك ست طرق للعلاج.. وأكثرهم نجاحًا وفاعلية هو» السلوكي الجدلي» لكن التحدث عن العلاج الآن مبكر جدًا.. سنعطيه مضادات تخفف من الاكتئاب والغضب ورغبته بالانتحار ك-"الأحماض الدهنية أوميجا.. فلوبينتكسول.. أولانزابين.. هالوبيريدول» سنرى أي منهم سينفع معه ويكون بلا أعراض جانبية.. وستتأكدين من أخذه للأدوية.. وإن رفض وهذا احتمال وارد ستكثرين إطعامه من المأكولات الغنية بالأوميجا ٣ كالأسماك وبالأخص «السالمون والأنشوجة.. واللحوم لكن تأكدي أنها ربيت على النباتات.. وهناك السبانخ أيضًا.. وبعض البذور ك «الكتان.. اليقطين.. الجوز» زيني بهم الطعام أو دسيهم بالحلوى.

صمت ونظر بطرف عينيه للباب الذي فُتح وظهر منه شاب طويل الشعر والقامة يبدو أنه المريض.. ثم أعاد نظره ل»نيار» وتبدو لم تنتبه له فقال:

- أهذا هو "ياسين"؟

رفعت له وجهًا شاحبًا مصدومًا لا يدل على حياة، فتأكد أنه هو فتحرك

مغادرًا.. تقابلت نظراته بنظرات «ياسين» للحظات.. ثم مرّ من أمامه.. بينما تقدم «ياسين» بضع خطوات حتى وقف أمامها صامتًا.. فقط نظرة عينية تنبئ بإجرام قادم.. قال بهدوء يشّدد على الكلمات حرفًا حرفًا وهو يعلم هوية الذي خرج.

- ألم أخبرك مراراً وتكرارًا أن تمرري هذا الشيء من عقلك.

شردت بعيدًا بكلمات الطبيب، ولا تظنها ستتحمل تقريعًا منه، فجأة شعرت به يهزها بقوة مفجعة:

- هل جننتِ؟ ماذا أصابك لتفعلي شيئا كهذا؟

انكمشت على نفسها، وأمسكت ذراعيه بوهن.. الهدوء والصراخ لهما نفس التأثير عليها يرعبانها منه.. الصداع يفتك بها، والألم كان قد استحفل بها؛ فألقت ما ببطنها أرضًا.. أمسكها خشية أن تقع أرضًا وهمس بقلق:

- "نيار" ما بك؟

خرجت «فرح» على الصراخ وتمتمت وهي ترى المنظر أمامها:

- رفقاً بها.. أنا أتحمل المسؤولية معها.

تحرك بها للحمام، وأزاح عنها حجابها وغسل وجهها بالماء ونظف فمها.. وأدخلها المطبخ يُجلسها وهي لا تبدي أي رد فعل.. صبّ لها كأسًا من العصير البارد، وذهب لينظف الأرضية.. ثم عاد إليها وجلس مقابلها غاضبًا، وتعبها لا يشفع لها.. يريد المغادرة من هنا.. لكنه لن يتركها بهذا الوضع المزري.. وهي لا تحيد بعينيها عنه، والله إن عينيها كفيلة لتشعره بقرب الموت.. عضّ على نواجزه بقوة عسى أن يشعر بالألم كي يتجاهل غضبه.. همست «نيار» بصوت غريب.. غريب جدًا لم يرحْه:

- أخبرني الحقيقة لم لا تريد العلاج؟ هل تعجبك حياتك؟

- لا تعجبني حياتي لكن لا دخل لكِ أنتِ بها أنا سأسعدك، وهذا هو المهم؛ لذا أريحي نفسك من هذا الموضوع وتجاهليه وعيشي معي، وكأنك لم تعرفي شيئا.

حتى نبرة السخرية بصوتها غريبة عليه:

- أعيش! إنها لكلمة غريبة حقًا كيف أعيش؟ أنت واهم لا سعادة لي

وأنت بهذا الشكل.. كل ما أشعر به أني أفقد جزءً من نفسي! هذه آخر مرة أرجوك فيها أن تذهب للطبيب.

التقطت أنفاس متعبة.. ومع هذا أردفت بثبات:

- إنْ لم تفعل سأغادر بلا رجعة، كن على يقين أني لن أتراجع عن ما قلت إما العلاج وإما سأغادر.. إنه بيدك.. هل تعلم مناداتك لي بالوردة أراه تشبيهًا دقيقًا لما نحن فيه الآن فحبك رائع من الخارج كلما رأيته تود الاقتراب منه.. إذا اقتربت تشم رائحة رائعة.. عندما تمسكه يشكشكك.. بعد فترة يجف ويذبل تمامًا كالورد.. أظنني الآن في مرحلة الذبول «ياسين»! أنت حتى لا تتركني بلا ماء للسقاية بل تسقيني ماءً فاسدًا كأنك تُسرع موتي!

أمسك يدها يجرها خلفة لغرفتهما لكنها عضت كفه الممسكة بيدها حتى أفلتها، وقال محاولًا جرها ثانية:

- أنت متعبة، وتحتاجين للراحة، ولا تعرفين ما تتفوهين به.

صرخت بصوت يصم الأذن، ولا تعلم من أين أتتها القوة والجرأة لفعلها؟

- سأغادر.

التقطت وشاحها ولفته كيفما اتفق وتحركت؛ لتغادر.. فسد طريقها بجسده ويديه تمنع تحركها، وقال بجبرت:

- لن تذهبي لأي مكان على جثتي أن تغادري وتتركيني .. سأعيدها لك حتى تمليها أنا لن أعالج مهما فعلتِ.

- هذا قرارك إذا.. سأغادر.

أمسكته شقيقته تبعده عنها، وتعنفه بالقول:

- اتركها تفعل ما تشاء أنت تزيد الضغط عليها فقط.

ثم أردفت تحدث «نيار»:

- اذهبي.

ثم تحركت به تجاه غرفته، ونظر «ياسين» مُعلق بزوجته المغادرة.. ببساطة يستطيع أن يبعد عنه شقيقته، ويلحق بها يمنعها.. لكنه لم يعارض خشية أذيتها.

يتحرك «ياسين» ذهابًا وإيابًا في الغرفة، وشقيقته تراقبه بقلق، فتنهدت بضجر، وسألته:

- متي ستذهب وتحضرها؟ لم تتركك إلا من ساعة وأنت بهذا التيه والتخبط.. تتعثر بأثاث الغرفة والتوتر يشع منك، أتخاطر بها لأجل رأسك العنيد، وكأنها تريد إهلاكك وليس مصلحتك، الوقت ليس معك إن علم أهلها لن يرجعوها لك، ولو أمت نفسك.. لا أجد سببًا لرفضك هذا، لقد رأيت الطبيب وتكلمت معه يبدو يعرف ما يقوم به.. ثم كل شيء بيد الله ادعو لنفسك بالشفاء، وكن على يقين أن الله سبحانه وتعالى سيستجيب.. لم يفت الأوان بعد.

توقف عن الحركة، وجلس على الأرض يضرب رأسه بالجدار.. إن وافق هذا يعني عذاب لا ينضب، وهو لا يريد تحمل ما مر به سابقًا.. ولا يمكنه تحمل خسارتها.. وما أدراهما أنه سيعالج أبعد هذا الفشل لسنوات، وبعد هذا الكم من الأطباء سيأتي هذا ويفعل، لمَ هما بهذه الثقة؟ قال:

- ها أنت تقوليها كل شيء بيد الله، إن كان يريد أن أُشفى لفعلت من زمن لكن يبدو أني سألقاه بهذا المرض.

صرخت به.. فلم تعد تتحمل جموده هذا:

- إن لم تعالج لأجل نفسك افعله لزوجتك فهي تستحق السعادة، وأنت تكاد تفتك بها.. وإن لم تفعله لزوجتك افعله لأجل أمك.. لا تنظر لي هكذا نعم لأجل أمك.. هل تظن أنها ستكون سعيدة وهي تراك بهذا الشكل المزري، وافق.. كن رجلًا وافعل.

- سأفعل.. سأفعل.. سأذهب لجلبها الآن.

يقولها بصراخ وهو يلقي بمحتويات الغرفة يشد ملاية الفراش ووسائده حتى تقطعت بيده وتبعثر الحشو وملأ الغرفة.. ذهب للكومود وصب قنينة المياه على رأسه، ثم رماها على الأرض، ثم ألقى بالكومود أرضًا بساقه، وضرب رأسه بالجدار حتى شعر بخيط من الدماء يسيل على جبينه.. خرج من الغرفة بعد موجة الهياج دون أن يبالي بمسح دمائه.. أوشك أن يفتح باب المنزل .. عندما سمع طرقًا مرتفعًا، ففتحه بتوجس.. وجد «عمار».. أيكون

حدث لها شيء لقد كانت بالية المنظر كمن لا صحة لها.. لم تسعفه الفرصة ليسأله ويدعوه للدخول.. فمجرد أن فَتح الباب لكمه «عمار» بقبضته على وجهه، وانهال عليه بالضرب اللكمة تلو الأخرى.. وهو ساكن بلا حراك لا يدافع عن نفسه، لا يحاول حتى تفادى الضربات.

- حقاً بالله إن لم تكن أختي وافقت عليك بمحض إرادتها مع علمها بقذارتك لما أبقيت عليك حيًا إلى الآن.. أنت غير مبالٍ لحياتك، أنت حر.. لكن أختي تهتم وتؤلم نفسها لأجلك لهذا ستذهب للطبيب سواء رضيت أم لا، حتى لو اضطررت لجرك له سأفعل.

وتركه وغادر.. بينما «ياسين» تحرك للحمام.. عقله وقلبه تشاركا بسؤاله أهي بخير؟ غسل وجهه بالماء.. نظر للمرآة؛ شفته العليا ممزقه.. والاحمرار يحاوط عينيه، يريد رؤيتها الآن والمكوث جوارها.. فسعادتها هي مطلبه الوحيد.. ذهب ليغير ملابسه التي تناثرت عليها قطرات من دمه ونزل ثانية للخروج..

تنظر "فرح ل"ياسين" بغموض مع بسمة خفيفة.. لم يبدِ أي رد فعل حول ما فعله "عمار" به.. إنها شقيقته وهذا أقل شيء قد يفعله.. كانت تتمنى أن يؤذيه أي شخص منذ زمن.. ربما تخبر «عمار» أن يفعلها كل يوم حتى يتخلص "ياسين" من سلبيته.. المهم أنه انصاع لها، وسيذهب ويحضرها فهي من أعطت هذا المنزل روحًا، أما شقيقها فلا يزيده إلا كآبة.

"هلك من ظن أن الحب عبد للجمال"

يحبس "ياسين" نفسه بالحمام.. يصارع نفسه للبقاء، ويصارع نفسه للموت.. علم أن الوصول للكره يسير، وأيقن أن الخروج منه شبيه بالمستحيل.. يكره نفسه للموت.. ويحب نفسه لتشبثها بنجاته.. "نيار" الجنة التي خلقها الله له بالأرض.. وكما الوصول لجنة الخلد محفف بالمكاره.. فالحفاظ على جنته يلزمه بما لا تطيقه نفسه.. ونفسه عبثية لا تطيق ما لا تطيقه..

أخرج خاتم والدته.. الخاتم الذي كان يود اللص سرقته.. ولم يفعل وهرب خوفًا ففعل هو.. لقد عاد وعيه بمجرد أن سمع صوت شقيقته تصيح بأنها عادت.. فاستل الخاتم من يدها ليبين حقًا أنها حادثة سرقة.. ولم يتفوه بحرف واحد مهما تساءل والده عما حدث لم ينبس بحرف ولم يرافق والده عندما ذهب بأمه للمشفى.. بل لم يتحرك من المطبخ حتى تم الدفن، وشاهد والده ينظف الأرضية من دماء أمه.. حينها فقط غادر لغرفته.. وظل والده لأيام عدة يظن أنها حقًا حادثة سرقة، وأن اللص هو المسؤول عن موت زوجته وليس ابنه..

لم يغسل الخاتم قط، ومازال للآن بدمائه الجافة شاهدًا حيًا.. يضعه داخل سلسلة دائرية، ولا يخلعها من عنقه مطلقًا، ويفتح الدائرة كل يوم يخرج الخاتم يبصره لثوان لدقائق كي لا ينسى، يهوى الألم؛ قلبه لا يتقن من الشعور سواه، والألم عنده آلة زمنية تترصد مواضعه وخطاه لترافقه المسير..

سيذهب اليوم لطريق المواجهة.. ويأليته يواجه نفسه بل يواجه ذنوبه المتقرحة.. طريق يخرج الصديد من فمه لا عضو آخر..

أعاد الخاتم مكانه.. وتمتم من بين شفتيه بحرقة..

- سأذهب يا أبي.. سأذهب يا أ... سأذهب!

كم ود لو ينطق بكلمة أمي.. لكنه لا يقدر.. هو لم يذهب لأجل أبيه ولا حتى أمه ولا من أجل نفسه الخبيثة.. بل لأجلها.. لأجلها هي

ولا سواها، وليت الهوى يقدر تضحية الأحباء!

تجلس "نيار" بغرفة ما باهتة الإضاءة.. بعيادة الطبيب تنتظر دخوله عليهما.. أمسكت كف «ياسين» تضغط عليها برفق، ولا تتوقف عن سؤاله إن كان بخير.. وهو يجيبها بإيماء من رأسه فقط.. رغمًا عنها شرد تفكيرها.. لقد قامت باختبار الحمل المنزلي، وثبت أنها حامل.. مسؤولية كبيرة لتتحملها بهذا الوقت.. لكن شعور غريب يعتريها.. ربما هذا الطفل يُعطيه أملًا وإصرارًا ليقاوم..

دخل الطبيب يُلقي عليهما تحية.. وتحركت لتغادر فأمسك «ياسين» كفها يمنعها، وهمس:

- إلى أين؟

كانت تُريد أن تنتظر بالخارج كي يتكلم بأريحية.. ولكنه منعها من المغادرة، فنظرت للطبيب بتساؤل، فأشار لها بالجلوس.. وقال مخاطبًا «ياسين «:

- حسنًا «ياسين» أخبرني عن نفسك قليلًا.

بقي يناظره لثوان معدودة بتجهم دون رد، ثم قال أخيرًا بسخرية:

- لقد وصلتك قصة حياتي كاملة.. ماذا تريد؟

ضغطت "نيار" بيدها على كفه، وفتحت فمها بضعف كي ترجوه، فهو يتصرف بلؤم.. فأشار لها الطبيب أن تصمت، ثم قال موجهًا حديثه ل»ياسين»:

- حسنًا أخبرني عن علاقتك بوالديك.. منذ كنتَ طفلًا.

أدار «ياسين» عينه على الغرفة لأول مرة.. وهو يهز ساقيه بعصبية.. ويضرب على فخذه بحركات مرتجفة.. ليس مستعدًا للكلام، وعلى يقين أن وقت الاستعداد لن يأتي مهما طال الزمن..

- لقد شُخصت بالاضطراب الحاد.. فلمَ لا تكتب أدويتك؛ لأغادر من هنا؟.

- فقط؟

التوت شفتي «ياسين» بعقم .. يوقن أن المصائب بدأت للتو..

- فقط!

- نحن ندردش سويًا.

- حقًا!

- هل أنت مصاب بمرض آخر؟

وبسخرية لظى.. تلفظ «ياسين»..

- وماذا تفعل أنت هنا؟

- بعض المعلومات لنبدأ بداية صحيحة وفعالة.

لكي يرد «ياسين» فتابع الطبيب..

- هل أنت مصاب بانفصام في الشخصية.. أو تهلوس مثلًا؟

صمت «ياسين» لثوان وإن مرت عليه كالدهر.. وصوت بداخله يضحك من سفاهة الحوار.. في معظم الأوقات الصمت يعني الإيجاب.. لكن بأحيان أخرى يعني كظم الغيظ ليس إلا..

- وهل يعلم الإنسان أي مرض يسكنه؟

- يسكنه؟ هل نتحدث عن الأرواح ها هنا؟

- وما أدراني؟ ألست أنت الطبيب؟

- حسنًا.. قلت إنسان وليس مريضًا.. ألا تعد نفسك مريضًا؟

- لست مريضًا.. ما أنتم إلا متوهمون.

ناظره «عمر» بغموض.. ثم تنهد قائلًا..

- ألن تتحدث عن علاقتك بوالديك.

رفع «ياسين» نظره ل»عمر»، وابتسم باستهانة..

- ولمَ لا تتحدث أنت عما تعرفه عني؟

لم يرد «عمر» وظل صامتًا.. هو يعتبر أول جلسة تجربة، ولم يرفع توقعاته عاليًا.. وأمر طبيعي ألا يتكلم من أول مرة..

- تحدث بمَ تريد إذًا؟

حين طال صمت وجمود «ياسين».. تمتمت «نيار» بنبرة راجية..

- "ياسين" أنت تعلم.

نظر لها وحدقتاه مشتعلتان بغضب أعمى.. ومن يجبره على الاحتراق بالكلام غيرها.. ألم تشترط علاجه لتبقى.. وما العلاج إلا بالإفصاح.. تحدث بعشوائية..

- حظيت بكمٍ هائلٍ من الاهتمام والتدليل خاصة من أمي.. كان أبي يغار من تدليلها الزائد لي.. حتى ماتت أمي ومن بعدها أنا وأبي متباعدان مررنا بفترة عشوائية لا أراه، لا يراني.. كنت أغيّر الأطباء كملابسي، وكان أبي يحاول التحدث والتواصل معي كثيرًا، ولم أستجب حتي بكلمة! هناك حالة من الغضب بي وموجهه لي.. ما أعرفه أني كنت السبب بما حدث له.. لقد أصيب بالشلل بعد وفاة أمي.. علاقتي لم تتحسن معه إلا فترة وجيزة.. تحسن طفيف.. ثم توفي.

وصمت، وهنا فهم الطبيب أنه لن يدلي بأكثر، فسأل آخر:

- أين كنت تحديدًا عندما جاء السارق واقتحم منزلكم؟ وماذا فعلت؟

لم يكن ليتكلم ويُفصح عن شيء.. أدار وجهه جانبًا لينظر لها.. مع أنها تحاول أن تبتسم له بنقاء وتشجيع.. عيناها تجلده بقسوة، تسحبه لسجن داكن.. إنْ لم يتكلم سيُحكم عليه بالإعدام وهو حي معها، بصعوبة شديدة قال:

- كنت بغرفتي.. حين سمعت صراخ أمي نزلت سريعًا، وجدت السارق يهددها بالقتل إن لم تعطه ما يريد.. يوجد لمطبخنا بابان، دخلتُ من الباب الخلفي، كان السارق ظهره لي فأمسكت سريعًا بسكين ما، ووجهتها لقلبه جهة ظهره، ولكنه تحرك سريعًا، وأصابت السكين أمي.. لقد كان الأمر سريعًا جدًا، فلم أستطع التحكم بيدي.. وقعت أمي، وبدأت الدماء تسيل منها، ووقعتُ.

- هل يمكنك أن تصف شعورك حينها؟

منذ توفت أمه تلبسه شعور أسود شنيع يعبث به كيفما يشاء.. ومع أن النظر لزوجته يُريحه.. إلا أنّ النظر لها الآن لا يجدي نفعًا..

فشعوره أكبر ويتعاظم كلما مر عليه وقت.. أغمض عينيه.. فقد اعتارته حالة من اللاوعي، وصمت لفترة وجيزة.. هو ليس بحاجة لاستحضار الصورة.. الحدث.. الشعور.. فهذه أشياء شاركته النمو.

- أن تهيم بفراغ له قاع.. لا تعلم إن كنت تخاف الوصول إليه أم أنك بحاجة للوصول إليه.. لكن عيناي اختارت الطَوَفَان في هذا الوقت، وحتى أيام عدة لم أكن أرى غير هذا المشهد؛ موجود بركن بالمطبخ أرى نفسي أطعن أمي ويصلني صوتها بخفوت «ياسين" "ياسين» كنت تائهًا.. لم أستطع غلق عيني كانت مفتوحة باستمرار.. تعطلت كل حواسي غير السمع والبصر، لكنها توقفت في زمن الحادث.

مع آخر كلمة أغلق عينيه.. لقد تعود على تذكر هذه الحالة والعيش بداخلها باستمرار.. لكن أن يفصح عنها.. لهو عذاب مستحفل.. فتح عينه بوحشية ينظر لزوجته.. عقله يحاول إدخال بوادر كره تجاهها.. إنه يُرغم نفسه على الكلام من أجلها هي.. كي لا يخسرها.

- هل استجبت لوالدتك وهي تناديك؟

- لا.

- وهل تراه الآن؟

- نعم.

- كمُشاهد أم داخل المشهد نفسه؟

- الاثنين.

أمسك الطبيب ورقة، وكتب عليها «أريدك أن تنادي عليه برفق كأن صوتك متعب ومرهق.. أي وكأنك أمه.. توقفي قليلًا بين كل مرة والأخرى"، وناولها إياها.

حالها هي الأخرى لا يسر.. ازداد شحوبها وكأنها تعاني معه، فأمسكت القلم وكتبت «أنا خائفة «.. كتب لها الطبيب «مِمَّ أنت خائفة نحن نرجع معه بالزمن فقط، تحدثي أنتِ.. لا أملكُ صوت أنثي».... ابتسمت بألم، وهمست بخفوت لا يُسمع «ياسين».. فكتب لها الطبيب «ارفعي صوتك قليلًا».. فبدأت تنادي عليه، ثم تصمت

للحظات.. بألم وإرهاق حقيقي.. وهو صامت منكس الرأس لا ينبث بحرف أو حركة لاشيء يدل على أنه حي، بعد دقيقة أمسك رأسه وبدأ يهزها قليلًا.. ثم صرخ فجأة:

- توقفي.. توقفي.

غادر.. همت باللحاق به.. فأوقفها الطبيب هامسًا:

- اتركيه لدقائق.. لقد قال أنه لم يستجب لنداء أمه، ولكنه قاوم الآن وهذا جيد.. على الأقل التيه الذي تحدث عنه لا أراه به الآن.. هل يتحدث عن والدته أمامك؟.

أجابته بالنفي.. فهو لا يتحدث عنها مطلقًا.. فأردف:

- هذه مهمتك إذًا.. أنت زوجته، أكثر من تمضين معه وقتًا.. حاوريه إن لم يتجاوب، استفزيه.. العلاقة بين الطبيب والمريض لا يتخللها الثقة من البداية.. لهذا لن يتكلم بأريحية معي.. أكثري من التحدث عن أمه وبالطبع ستسجلين له كل شيء.. أما الآن ألحقي به، ولا تتحدثي بشيء فقط كوني بقربه.

أسرعت تأمل ألا يكون غادر.. وجدته بالسيارة متكورًا على الكرسي؛ فجلست جواره.. ما إن شعر بها حتى أحاط خصرها بذراعيه، ووضع رأسه على فخذها.. عقدت حاجبيها وهي تشعر بانتفاضه هل يبكي؟ لكنها لاتسمع صوتًا لنشيجه، بعد لحظات شعرت بابتعاده عنها، وهمس:

- لا أريدك أن تريني بهذا الوضع.

ابتسمت بخفوت، وهذه المرة هي من أحاطته، وأعادته لحضنها، وهمست بهدوء:

- لمَ تخجل؟ البكاء ما هو إلا طريقة من طرق الوصول للراحة.. طريقة لإخراج العناء الذي تشعر به حتى يصل للصفر.. فتستطيع تحمل المزيد.. فهو يُزيح الهم ويُريح القلب.

- أشعر بالضعف.

خللت خصلات شعره بيدها ترفعه كي لا يتبلل من عينيه:

- ومن منا يكون قوياً طوال حياته.. جميعنا نشعر بالضعف ببعض الأوقات.. جميعنا أرواح من ورق تتقاذفها الرياح كيفما تشاء.. لذا إنْ كنت تظن نفسكَ قويًا حتمًا ستأتي فترة وتضعف وأنت بها الآن فاستغلها، الضعف أحيانًا رحمة.

شاركته البكاء بصمت.. فرفع رأسه، مد يده يمسح وجنتيها مفكرًا بسخرية.. هل تبكيه أم تبكي حظها البائس لارتباطتها به؟ أخرج رباطًا لشعره كي يربطه.. يشعر بالإزعاج منه وهو متبعثر على وجهه يمنع رؤيتها بوضوح.. أمسك ذقنها بأصابعه ينظر لابتسامة ثغرها بحيرة وريبة، وما زالت حبات البكاء تنزل من عينيها:

- أنت تبكين وتبتسمين.

ابتسمت أكثر حتي بدت نواجزها.. إنه يشبه الأطفال الآن، وحقًا هي تحبه على هذا الشكل:

- هذه الابتسامة.. لأني تذكرت أني أخبرت أخي ذات يوم أني لا أؤمن برجل لا يبكي!

"نقطة حقيرة لا أهمية لها ببداية السطر"

"مني أفعال إلي أقوال"

لا أعلم تحديدًا رقم هذه المحاولة للظهور.. لكني ظهرت.. تظن أنك تزداد قوة ومقاومة، وتنسى أن إصراري يزداد..

أصدرت ضحكة ساخرة، وربما متهكمة.. كيف لمجرد حب أن يغيرك ويرغمك على اختيار هلاكك؟

أيقنت الآن أنك مثلي في كره الذهاب للأطباء والتفاعل معهم كلامًا وتفكيرًا.. ولهذا فشل معظم الأطباء معنا.. تجاهلنا كرهنا، واتحدنا ضد العلاج وتأثيره.. فلمَ الآن؟!

أتفهم تجاهلك لي لكن كيف تتجاهل نفسك؟.. أولم نتفق على كوننا اثنين عدا هذا؛ فإننا واحد لا انفصام له.

ألا تخاف مني أن أؤذيها.. وما أدراك أني لن أفعل كي لا تخاف؟ أتظن أني غير قادر على الظهور والعبث بعقلك كما سابقًا؟.. صدقًا أتمنى لك أن يكون الظن يقين لكنه ليس.. ليس لا تفيد النفي بل تفيد خروجي إليك وسيطرتي عليك..

وربما أفعل ما يبغضها بي فتكرهك، وهذا أكثر فتكًا بك ومن غيري يعلم.. إن كنت تهوى الإيذاء فالموت أهون..

وكرهها لك هو السبيل الوحيد لتهوى الموت دون فرض مني.

عقلك كدائرة لا مخرج منها إلا إياك.....

فرحٌ أنت بتلاشيّ الآن لكن هيهات.

"وتظن نفسك بدور المضحي ولا سواك الظالم وتنسى أنك أردت دور المظلوم"

منذ عادا للمنزل و»ياسين» يجلس بالشرفة، أحيانًا يرفع بصره للسماء وأحيانًا أخرى ينكس رأسه.. هيئته توجع القلب وكأنه خرقة بالية من الألم.. لا يُخرج ما به إلا بشق الأنفس.. حتى ما يخرجه يبدو فتاتًا لما بداخله.. تنهدت "نيار" بإحباط، واتجهت للمطبخ تحضر فنجانين من القهوة، ثم عادت تجلس مقابله له.

نظر لها "ياسين" ومازالت عيناه موشحة بالاحمرار من فرط البكاء، تناول الفنجان منها، وشفتاه تتحركان بهمس لا يسمع "شكرًا"، لكنها رأت تشكل الحروف في فمه.. أسبلت أهدابها في رد له.. أبعد نظره عنها ونظر للسماء.. قال:

- هل تحبين السماء أم الأرض؟

قطبت حاجبيها بحيرة استغرابًا من السؤال، ولكنها أجابت:

- الأرض.

- غريب من أنثى.

ابتسمت، وشاركته النظر للسماء.. قالت بعد لحظة تأمل:

- يبدو أنك من مفضلي السماء.

همس بخجل وكأنه أخطأ بشيء ما:

- لا، لا أعلم أي منهما أفضل.

- ببساطة الأرض أمان.. الإنسان لم يهيأ ليطوف السماء كما الطيور.. حتى لو كان بأجنحة كالطيور.. فهم لا يستغنون عن الأرض.. لا بد لهم أن ينزلوا للأرض بحثًا عن الغذاء.

لم يرد، فقالت، تفتح مجالًا للحديث فربما يتكلم معها ولو قليلًا:

- هل أخبرتك أن الخريف فصلي المفضل.

وضع فنجان القهوة على حافة جدار الشرفة.. ونظر لها باهتمام.. وهز رأسه نفيًا.. فمنحته ابتسامة جميلة.. وتمتمت:

- يذكـرني بالمـوت! البـشر كأوراق الشـجر.. الدنيـا كالشـجرة.. كـما يتهـاوى الإنسـان حـين يحـين أجلـه.. كـما تتسـاقط أوراق الشـجر حين يـأتي الخريـف وكلٌ بـلا رجعـة.. الخريـف عنـدي هـو نهايـة الفصـول.. فـأوراق الشـجر تمـر بالشـتاء، الربيـع، الصيـف، ثـم يـأتي الخريـف وتتسـاقط.. كالإنسـان يولـد طفـلًا، مراهقًـا، شـابًا، كهـلًا ثـم يمـوت.

فاجأها حين ضحك بقوة..

- وإن سـألتُكِ وقلـت أن هنـاك أوراق تتسـاقط في غـير الخريـف سـتكون إجابتـكِ «ألا يمـوت البـشر فجـأة"

شـاركته الضحـك، وأمسـكت كفيـه وشـعرت ببرودتهـما، غريـب كيـف تكون بـاردة وكان بيـده فنجانًـا مـن القهوة السـاخنة؟! دخلـت الغرفة لدقيقـة وعادت تحمـل شـالًا، وضعـت طرفـه عـلى كتفـه والطـرف الثـاني عـلى كتفهـا.. وعـاد الصمـت يغلـف الجـو مـرة أخـرى؛ فبـادرت بـتردد:

- أخـبرني بـم تشـعر عندمـا يـراودك مشـهد وفـاة والدتـك؟ ولمَ أوقفتنـي عند الطبيب؟

نظـر لهـا مجفلًا مـن السـؤال.. زاغت عينـاه، ولم يـرد، ولم تأمل هـي بالإجابة.. ألقـى نظـرة عابـرة على ملامحهـا المتأملـة في الإجابة.. مسـدً جبينـه بتعب يُخفي كثـيرًا مـن التوتـر.. صوتهـا أزعجـه.. شـعر بالاختنـاق.. كان يـرى نفسـه مراهقًـا يجلـس بركـن بالمطبـخ يبـكي وآخـر يجلـس قـرب أمـه ملابسـه ملوثـة بدمائهـا.. وهـو بعمـره هـذا يختلـط عليـه الأمـر يتحـرك لهـذا كي لا يبـكي، ويذهـب للآخـر كي يفعـل شـيئًا لإنقاذهـا.. عندمـا نـادت هـي تحرك يبحـث عن الصـوت، ولكنه لم يجـد شـيئًا غـير صـوت أمـه، وحينهـا جلـس يبـكي هـو الآخـر مـن الإزعـاج والألم.. وعندمـا لم يسـتطع التحمـل أوقفهـا. كان ضـوء المطبـخ مغلقًـا يصـل إليـه نـورًا مـن الصالـة، وزاد الضـوء قليـلًا عندمـا فتـح البـاب الآخـر.. لم تكمـل أمـه حتـى صرختهـا ويظـن أنّ اللـص منعهـا.. ولم يـصرخ هـو الآخـر.. فلم يكـن هناك صـوت ليجـذب الجـيران.. بعدمـا أخطـأ بقـي كالصنـم.. جـماد لا يتحـرك.

ناظرتـه بضجـر مـن كثرة الانتظـار.. دائمًـا يُكايدهـا.. كأنه يتفنن إثـارة غيظها.. ومـع أنّ الإحبـاط تسـلل لها.. لم تيأس، وسـألته:

- هل عرفت أنها أنا من تناديك؟

انتظرت لدقائق لعله يرد.. تُشاهد نظراته الغائمة تسبح بفضاء ما.. عينه تتكلم بلغة لا عهد لها بها.. لم يرد، فسألت آخر:

- هل تُحّمِلُ والدك شيئًا من مرضك؟

أخيرًا.. أجابها بالنفي.. ثم تركها وغادر.

اضطجع على الفراش ينظر للسقف بشرود.. كان من البداية دائم التساؤل لم هذا المرض تحديدًا؟ بعد قتل أمه تسببّ بمرض والده.. قطع بر الوالدين والخطأ يقع عليه في الاثنين.. لذا مرضه هذا فرصة.. رحمة له كي تُمحى ذنوبه.. مرضه أشد من مرض الجسد، ولا يملك نفسه. لم لا يخبرها ماتريد من إجابات ويرتاح وترتاح هي؟ ولكن الحديث صعب.. عقله أضناه التفكير، قلبه أضناه الوجع، لسانه أضناه الصمت، أمن كثرة ما يصمت لم يعد بقادر على إخراج الحروف؟! يقولون مرضه.. متذبذب المشاعر فكيف ثبت على حبها؟ حبه لها وسع كل شيء فلا يضاهيه شعور آخر، ولا سبيل للهداية منه إلا إليه، فمن يضع عنه إصره؟ من يزيل عنه أغلاله؟!

أما هي بقيت بالشرفة تشرد بنظراتها في السماء.. يستفزها بتقطيره هذا وكم تكرهه لهذا السبب؟! لأن ترك أحدًا ما صنبورًا بلا غلق جيد فإنه بالتأكيد سَيُقطر أكثر منه، ومع هذا كل ما يخرج من شفتيه يرجف القلب، وتحتاج فترة للاتزان ثانية.. لكن لا بأس ستتأقلم معه.. ستعود نفسها عندما يخبرها شيء أن تقابله كأنه شيء عادي يحصل كل يوم.. وتترجم تعبيرات وجهها على اللامبالاة.. وتَلغي نظرة الذهول. مع ما يحصل إلا أنّ بداخلها أمل لا ينضب بشفائه.

"مني أقوال إلي أفعال"

قد يصدمك ما سأخبرك إياه الآن.. أنا لا أخجل من الحديث معك.. وكلما زدت تهكمًا زادت مقاومتي لك.. لا أعلم كيف أصف لك فرحتي؟ فأنت أشد بؤسًا مني.. وما الجديد في كرهك لي فمنذ زمن وأنت تكره كل ما أقوم وأفكر به؟

وما الجديد في إعلامي بكرهك؟ أتظن أنك رد فعل غير التجاهل؟!

خسئت وخسئت أفكارك.. لقد ملت لك سابقًا مرات عدة، واخترت الموت ولم أفلح به.. حتى أيقنت أن لي بضعًا من السعادة وإن قل.. وإن كان صنيعي للمشردين جزء فهي كله.. فكيف أسمح لك بإيذاء كلي وكلي كرهًا لك !

أتظن أني أسمح لشخصك بالتحدث بلساني بعد ما عاشرته منك؟!

أتعلم لقد أخبرتني منذ قليل أنها لا تؤمن برجل لا يبكي.. أتعني ما يعني ذلك.. يعني أنها تحبني.. وإن حدث وظهرت قسرًا عني هي تعلم أن لا صفة تميزني، ولن تأخذ كلامي على محمل الجد.. هي أصلًا لا تفعل.. ربما تتفاعل وتتأثر..

تلعثمت الحروف على منابت فمي.. وسمعته يحثني على الإكمال ويضحك ملءَ فيه.. فيه شبيه بفيه الخنزير كما يأكل القاذورات فإن أنفاسه تثير التقزز..

أعلم أنك لا تحب الإهانة، ولهذا أهينك.. وما يضمره قلبي الآن شبيه بأنفاسك.. يكمل ما كنت على وشك التفوه به.. ربما تتفاعل وتتأثر وربما تمل فترحل، وما أشقاني لحظتها!

لو أن للحياة أن تختار رفيقًا لربما اختارت الأمل أو الشغف.. وإن اختارت عدوًا فبلا شك سيكون الملل.. فالملل هو الخطوة التمهيدية لكل ما سلبي وسيء.. وبعد هذا.. أتظن أني أسمح لشخصك بالتحدث بلساني بعد ما عاشرته منك، وبعد ما علمت ما تنوي فعله.

- أتظن!

- أتظن؟

خيبة حلت.. وعتمة حزن أبشرت خيرًا على فجأة كأخواتها من الأحاسيس.. وكل شعور يأتي مبشرًا ومستبشرًا كل في طريقه أسود كان أم أبيض أم اختلاط فرمادي يعشق التشتت.. هذا هو حالي متشتت!

وقبل أن أهم بالرحيل.. أظن أني سمعت صوتًا يخرج من فيه يبعثر الخطى..

- نعم، أظن!

"أن تحيا؛ أن تحمل هدفًا بين جنبيك.. أن تسعى لتحقيقه.."

خرج "ياسين" من الغرفة.. يقاوم شعورًا يحثه على جلب ما هو حاد وقتل نفسه.. لكنه صعب.. منذ عاد وهو يقاوم دخول المطبخ، ولكنه فشل، وجلب سكين صغير.. أخفاه تحت ملابسه.. عاد لغرفته، دخل الحمام وأغلقه.. افترش الأرض بكامل جسده، ينظر للسكين بغضب ويأس وسلبية.. أيقطع وريدًا بيده؟ ولم لا؟ لم يفعلها منذ زمن؟ وريدًا! حقًا يفعلها لعله يرتاح ويريح غيره.. كأنه بالكهف، ولا يجد حسنة تُخرجه إلا هي.. هي من تزيل اليأس المتبرص بخلاياه.. لا يريد مفارقتها لكنه لا يستطيع مجاورتها بهذا الشكل.. هي وهج النار.. جمر مشتعل يخاف أن يطفئها، قلبه لا يعرف ما هو الدماء الآن بل يضخ غضبًا.. غضبًا ساخنًا لكنه لا يثير نيرانًا به بل يطفأه! يقولون لا الورد ينمو بلا شوك.. لا الحب ينمو بلا وجع.. ووجعه قاتل! هناك من البشر من يَفنى النباتات وهناك من يَفنى الحيوانات وهناك من يَفنى البشر، وهو من النوع الأخير بل يشملهم.. حين تأتي الفرصة؛ الجميع يَفنى قبل أن يُفنى! قلبه هو من يوحي إليه، عقله فقط يؤدي دور المشاهد.. ينتظر النتيجة كي يشمت به، خلع عنه قميصه ونظر لجذعه وذراعيه.. لا أحد يعلم كم مرة حاول قتل نفسه!، وككل مرة لم يقاوم أن يصنع ندبات أخرى على جسده، وكأنه يخط بالسكين لوحة من الألم نتيجتها الراحة.. جلس حتى جفت الدماء، ثم قام ليغتسل.. خرج من دورة المياه وجفف نفسه.

***

- ما بك يا أمي أراك مهمومة؟

- لقد تسرعنا بهذه الخطبة.. إنها لا تصلح للزواج.. دينها ينقصها.

أغمضت "نيار" عينيها بيأس.. هذه كلمة كبيرة جدًا! هل دخلت قلبها لتعرف علاقتها مع ربها؟.. قالت بصبر:

- لنفرض أنها كانت على دين آخر هل كان سيكون هذا موقفك؟.

احتد صوت «حنان»، وهتفت بصرامة:

- هل ترضيها لشقيقك أن يتزوج من هي على هذا الشكل؟

ستذهب "نيار" غدًا للمعهد، فهي لم تذهب منذ عرسها، وستصطحب «سُچور» معها.. خطوة ربما تجد صدى عندها.. قالت:

- حسنًا.. هي مسلمة صحيح ينقصها بعض الأشياء، وأخي سيقنعها وإن لم يفعل فهو حر.. لكنها تحبه وستفعلها ولو إرضاءً له فقط.. غيري أسلوبك معها يا أمي للين والود، فأنت تدفعينها للعناد أكثر.. تقبليها واستدرجيها شيئًا فشيئًا.. وما أدراك عندما ترى تغيرك معها قد تفعلها من تلقاء نفسها.

- إنه ابني، ألا يحق لي الخوف عليه؟.. ما ينقصها فرض! نحن لا نتحدث عن نافلة هنا.. ألن يحاسب شقيقك عليها؟.. هل سيتحمل عقابًا كهذا؟!

بدأت الدموع تتجمع بعيني «نيار».. أعصابها لم تعد تتحمل شيئًا.. همست بصوت مكتوم:

- معك حق يا أمي.. ولأنه ابنك وجبَ عليك أن تثقي به أنه سيفعل.

- سأجاريك فيما تريدين.. لعل وعسى أن يصدك قولك.

ولم يعيا أن صوتهما كان مسموعًا للمتوارية خلف الباب.. بجسد جامد وعين ذاهلة.. قلبها يأن مع كل كلمة.. ومع هذا لازال العناد بداخلها متأصلًا.. يا إلهي كيف كانت تتباهى بنفسها؟.. وكيف هوى بها الحال لقاع جرداء لا أمل بها؟.. كيف تحولت حياتها من حياة مركزها أبيض اللون.. إلى حياة مركزها داكن ويمتص كل ما هو سواه؟.. كلما تساءلت كلما زاد عقلها ضيقًا وانكماشًا.. هل مثيلاتها من الإناث يشعرن بما تشعر به من سوء؟ أم وحدها من تمر بهذه الحالة التي تستنزفها بلا رحمة؟

***

تقف "سچور" أمام المعهد منذ ما يقارب العشرين دقيقة.. نظرها معلق بالسيدات والفتيات يدخلن عبر البوابة.. شاردة بصغيرات السن .. ثيابهنّ كثياب الكبيرات منهن، لا تعلم لم أحست أنها أخطأت بالمجيء، فالمكان لا يعد لشخصية مثلها.. مع أنها ترتدي ملابس محتشمة جدًا بعرفها.. فنحن بالشتاء والملابس تغطيها بالكامل، ولكن ماذا عن شعرها وبعضًا من ذراعيها.. تشعر بالنقص أو بشيء من القلة.. لاحظت تحرك «نيار» تجاهها وهي من كانت توشك علي المغادرة والاعتذار منها.. ردت تحيتها بخفوت.. ثم رأتها تخرج وشاحًا من حقيبتها، وتناولها إياه فاعترضت.. إنه ليس بمسجد.. فقالت الأخرى بتبرير:

- معك حق.. لكن أحيانًا يحضر رجالًا يشرحون لنا.. لا يحدث كثيرًا لكنه يحدث.

أخذته بتردد ووضعته بعشوائية.. ودخلتا للصف.. جلستا متجاورتين.. ينتظران دخول المفسرة.. قالت «سچور":

- أنا أحفظ بعضًا من القرآن، ليس بالكثير.. وأنتِ؟

- وأنا أيضًا مثلك ليس بالكثير.. ما رأيك أن نشجع بعضنا ونحفظ أكثر؟.

تحفظ! وهي بهذا السن.. ما حفظته.. حفظته للصلاة منذ كانت طفلة.. وكان صعبًا جدًا آنذاك، فكيف الآن؟!

- أنا لا أعارض الفكرة، ولكن لنؤجله قليلًا لبعض الوقت.

- كما تشائين .

- لكن وجهك لم يقل هذا.

نظرت لها "نيار" بحيرة.. سرعان ما تلاشت.. لا بد أنها فسرت جمود وجهها خطأ.. ليس بيدها أنه بهذا الشكل منذ غادر زوجها، أوشكت على الرد حين دخلت المفسرة، وألقت السلام.. فردوا جميعًا سلامها.. وبدأت بتلاوة الآية التي توقفوا عندها المرة الفائتة، والجميع يسمع بتركيز إلا "سچور" لا تعلم ماذا صنعت بها هذه الآية وشرحها في سورة الإسراء" وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ

سَبِيلًا" الكل لله مطيع إلا ابن آدم فهو يرى ويشهد نعم وقدرة الله لكنه يغلق عينيه عن الحقائق.. فكما يفعل في الدنيا بإرادته سيُفعل به أشد منه بالآخرة بلا حيلة له.. أهي ممن ينطبق عليهم الآية؟.. تعلم طريق الطاعة وتسلك سواه.. تَعصيه، لم شعرت بفجاعة الكلمة الآن أَلِقسوة العقاب؟! الآية اصطحبتها لمكان بعيد ولم تسمع غيرها من الآيات.. ألهذه الدرجة كانت لا مبالية!

"نقطة حقيرة لا أهمية لها ببداية السطر"

"مني أفعال إلي أقوال"

تظن أني شخص ثرثار.. يهدد بالكلام؟
ألم أكن متواجدًا، وأنت تكسب قلبها بكلامك المعسول.. أنسيت قدرة الحروف على التأثير؟.. كما أكسبتك قلبها أستطيع فعل العكس فتخسر قلبها.. وكما تعلم القلب هو العضو الوحيد الذي لا يتميز بالثبات..
أليس الكلام هو سبب مرافقة المشردين لك؟
الكلمات يا عزيزي أشد تأثيرًا من السحر.. مغوية كالسلطة.. وسلطة القلوب تسيرك كما تهوى..
ألم تتأثر بي سابقًا من مجرد كلمات؟
فكيف إن تخلت هي عنك؟ ستزداد تأثرًا بي وستناجي الموت ليل نهار.

❁❁❁❁❁❁

بعد عشرين يومًا..

بنفس الغرفة الخافتة الإضاءة.. الطبيب يسأل "ياسين" أسئلة روتنية عن حاله.. وشيئًا فشيئًا يسأل أسئلة تخص والدته حتى قال:

- هل سامحت نفسك؟

سامح نفسه. هذه كلمة ثقيلة جدًا على روحه.. يكره مجرد التفكير بها أو ذكرها مصادفة حتى.

- هل تفعل أنتَ؟

- ولم لا، خاصة وإن كان الطرف الآخر مسامح.. الإجابة تكمن في كونها أم والمخطئ ابنها..

يتساءل «ياسين» إن كان هذا الشخص أمامه مجنون أم أنه يُداهنه بالكلام لا غير، كان ليفعل، كيف؟ فالطرف المتضرر لم يكن شخصًا واحدًا.. لم تكن أمه

فقط.. ماذا عن زوج فقد رفيقة دربه؟.. هل يظن أن ماحدث هين لوالده وشقيقته؟.. مازال يرى نظرات الكره موجهة له حتي لو لم تنطقها فمها.. ماذا كان ذنبها كي تفقد أعز ما يملكه إنسان؟ قال أخيرًا:

- لم يضربني أبي يوم عرف.. أترى حجم ما اقترفته؟!

- لكنه ضربك وحبسك بعدها بفترة.

أغمض "ياسين" عينيه بضعف.. لم يعد لديه قدرة على تحمل سؤال آخر..

- لم يكن لهذا السبب.

صوته بدأ في الارتفاع، ويبدو أنه يقاوم ليجلس، وظهرت حبات من العرق على جبينه.. وجهه يطوف به تعبيرات عدة.. أولها الغموض.. آخرها الوهن.. وما بينهما ذهول مجهول.. جسده يهتز اهتزازًا، قد لا يلاحظ ولكن «عمر» فعل.. ومع هذا أكمل، وسأل:

- لأي سبب كان؟

ثانية.. لاحظ "عمر" ارتفاع صوت تنفسه ونظراته التي تلتف حول الغرفة بأكملها حتى ثبّت نظره على زوجته.. والملل احتل قسمات وجهه.. فغير "عمر" مجرى الحديث:

- أخبرني عن إحساسك عندما ترى شقيقتك؟ ألازلت تشعر بالذنب؟

يُرهقه، يُرهقه.. ضغط بيده على كف «نيار» بقوة تكاد تحطم أصابعها، وهي تعض على شفتيها كي لا تُصدر تأوها منها، ولا تمانع حتى إن كُسرت يدها بيده المهم أن يكون بخير.. فقال ينظر لها وعيناه تترجاها كي تخرجه من هنا:

- لازالت.

- هل عقلك أم قلبك هو من يرفض تقبل ما حدث أو بالأحرى من منهما المقاوم؟

- الاثنان يتشاركان.

- وما هو السبب تحديداً هل تستطيع إخباري؟

تجعدت ملامح «ياسين».. وجز على أسنانه بقوة، وهتف بحدة:

- لأني شخص سيء.

- من يخبرك أنك شخص سيء؟ ولم أنت شخص سيء؟

قام من الأريكة، وشوح بيده في الهواء وصرخ:

- وكيف لا أكون وقد فعلت ما فعلت بعائلتي.. لقد قتلت أمي ألا تعي؟!

لم يجد شيئًا بالغرفة كي يلقيه أرضًا لا شيء بها غير الأرائك والكراسي.. دفعهم بقدمه، وجلس على الأرض.. شعره الطويل يغطي وجهه..

نظرت «نيار» عليه بشحوب.. ورغمًا عنها دمعت عيناها.. فأخبرها «عمر» أن تغادر الغرفة.. بينما صاح «ياسين» بهتاف:

- ستبقين هنا ما دمت أنا هنا.. أهذا ما تريدين؟! أن تشاهديني أتعذب على حسابك.. لأجل خاطرك أنت، إياك أن تتحركي خطوة واحدة.

نظرت له بجذع.. وسألت الطبيب:

- هل نكمل بيوم آخر.

- لا تقلقي سأتعامل معه.

جاور «عمر» «ياسين» الجلوس على الأرض، وهمس بهدوء:

- سأخبرك أمرًا.. موت والدتك كُتب منذ زمن.. نحن فقط أدوات لله على أرضه يستعملنا فيما كتبه لأنه يعلم بما سنقوم به.. هذا يعني أنّ والدتك كانت ستموت في هذا اليوم وفي نفس الدقيقة والثانية.. حتى إن لم يأتِ السارق حتى إن لم تخطئ أنت حركة السكين.. أنت ترى موتها بالكيفية الخطأ، وأدخلت نفسك في دوامة الذنب لسنين، ألا ترى أنه الوقت للعودة للطريق الصحيح، فأمر الله نافذ لا محال.. أما بالنسبة لوالدك وما أصابه من شلل.. فكثير يموت أحباؤهم، وتراهم يموتون هم الآخرون حزنًا وحسرة عليهم.. هذا لايعني أنك أخطأت.. بل يعني أنهم لم يمتلكوا القوة الكافية للصبر، وخانتهم قواهم وغرقوا بالحزن.. أخبرني مثلًا ألا يحزن الناس إن مات أحباؤهم طبيعيًا.. الجميع يحزنون لكن هناك من يستطيع التعايش مع الحزن وهناك لا.

شفتي «ياسين» تتشنج بما يسمى عوضًا بسمة.. فقام الطبيب من الأرض وتمتم:

- بم أنك عدت لهدوئك.. أخبرني كم مرة تزور قبر والدتك؟

- اذهب مرة بالعام.. لكني لا أدخل.

- ما رأيك أن نذهب أنا وأنت يوم كل أسبوع.

خرجت الكلمة من بين شفتي «ياسين» بتشتت:

- أسبوعيًا! مستحيل!

- ولمَ؟

لم يعد "ياسين" يتحمل المزيد.. روحة مثقلة بألم الوزر.. والألم يُلقي به بمكان مُقفر عن أي شيء يدل على حياة، فهاج بصراخ:

- لأني بلا فائدة.. بلا فائدة!

قال الطبيب يحدث «نيار»:

- سنذهب لقبر والدته.. كم تبعد عن هنا؟

نظرت له بتوجس، وهمست:

- عشر دقائق تقريبًا.

الرعب، الهلع، الجذع، الفزع.. كلها كلمات لا تصف ما أصابه.. قلبه ارتعد وجف.. برودة فتاكة احتلت جسده وأطرافه.. فأصبح الجلوس يتطلب منه قوة مهيبة فكيف بالوقوف؟.. الموت أهون ألف مرة من الذهاب لقبر والدته.. يُقاوم برعونة.. استغرق الأمر منه دقائق حتى يفيق من الصدمة.. هبّ من الأرض وهتف بصياح:

- مستحيل.. لن أذهب.. مستحيل.

- سنفعل إن أخبرتني السبب الذي يمنعك؟

نظرْ «ياسين» تحرك للباب تزامنًا مع تحرك قدميه.. ولم يُفتح معه، فصرخ بغضب:

- افتح الباب حالًا، أريد الخروج.

تنتفض «نيار» مع كل صرخة من صرخاته، ونظرت للطبيب باستفهام، فقال:

- كنت أعلم أنه سيهرب كالمرة السابقة لذا أغلقته.. وإن لم يتجاوب سأربط،ه وأسطحبه قسرًا.. لهذا حاولي معه الآن.

تحركت "نيار" بآلية تجاهه.. وضعت يدها على كتفه واليد الأخرى أمسكت بها كفه تضغط عليه برقة.. عيناها تلمح خطيْ الدموع الثائر على خديه.. رفعت يدها لرأسه تعدل من هيئة شعره.. أخرجت منديلًا تمسح حبات العرق التي تعتلي جبينه، همست:

- ستكون بخير لن أتركك.

وصلوا للمقبرة.. فتحركت "نيار" لتدخل أولًا، و»ياسين» لا يتحرك إلا عندما تُحركه هي.. وقفت أمام قبرها وفتحت فمها لتدعو لها.. وتوقفت عندما رأته يتقهقر للخلف، فلحقت به، وأمسكت يده تحثه على الرجوع، وقالت:

- ما بك؟ لقد أخبرتك أنني لن أتركك لن يحدث شيء، تعالى هيا.. إنه حقها عليك.

نظر لها بجمود، وقال:

- لا أستطيع.. افهمي.. لا أستطيع.

وأفلت يدها بقسوة وذهب مسرعًا.. دلّكت يدها.. والتفتت للطبيب بضيق:

- ألستَ من طلب الحضور لهنا.. لماذا لم تتدخل إذًا؟

- لقد أردت أن أعرف ردة فعله فقط.. سأتدخل المرة القادمة.

ثم ارتدى نظارته الشمسية وغادر.. بقيت «نيار» تزفر بغيط منهما الاثنان.. كأنها بمسلسل هزلي .. مرة مقبلة، هنا بالمقبرة، لا بد أنه معتوه.. بالطبع مرضاه مجموعة من المعاتيه وزوجها نموذج.. ومن يعاشر القوم..! أين حرمة المقابر؟ حركت يدها حركات سريعة يمينًا ويسارًا.. في محاولة فاشلة لتجديد الهواء.

"هل تساءلتم يومًا لم يلزم وضع الملح بالحلو؟ يقولون أنه يبرز الطعم.. لتزداد حلاوة الفرح يلزم تذوق المر.. فهل سيقدر شخص لم يذقه يومًا قدر الفرح، سيمر الفرح وكأنه شيء عادي.. غير مميز، لا يود الاحتفاظ به أو توثيق ذكراه.

"ن.. بـ"

لم يرفض الذهاب لقبر والدته؟

لقد سأل نفسه هذا السؤال مرارًا وتكرارًا؟

هل والدته ترفض ذهابه؟

هو يكذب ها هنا.. هو يعلم لم يرفض الدخول لقبر والدته؟..

عندما لم تعد والدته توقظه، وتدخل عليه غرفته.. عندما لم تعد أذنه تسمع إلا صوت والده..

خرج يتساءل عن مكانها، ولمَ لم تعد تدخل إليه بالفواكه؟ يحاول تذكر آخر ما قام به وأثار غضبها.. لكن عقله وذاكرته خذلاه.. أخذ يتخبط بالأثاث، ويصرخ كي تأتي إليه.. والده هو من لبى النداء.. عانقه قسرًا وبقوة كي لا يفلت منه كما يريد.. يناظره بحسرة ويبكي.. هو الآن لا يعرف أن ابنه هو من قتل.. صاح "ياسين" بصوت دامي..

- أريد أمي!

حمله والده للسيارة، وسار به حتى وصلا للمقابر.. لم ينتبه "ياسين" بادئ الأمر أين هو؟.. كانت المرة الأولى التي يدخل بها مكانًا كهذا.. ترك والده يقود خطواته بلا تركيز.. انتهى شيئًا فشيئًا حين تناول والده يده اليمنى، وجعلها تلمس اسم والدته المنقوش.. يشير بأنها هنا.. عينه تجري على الحروف بلا استيعاب.. وبإرادته تحسسها.. فجأة انبثق بعقله المشهد فلم يشأ تصديقه..

اتسعت عيناه بجزع.. فقد خرج طيف والدته من العدم أمامه بالكاد

يفصل بينه وبينها مقدار خطوة.. تراجع للخلف بتعثر، أوشك على الوقوع لكن والده مد ذراعه فدعمه من الخلف..

والدته ترتدي جلباب أخضر، تمسك بيدها سكين يقطر دمًا على الأرض بالرغم من الدم فملابسها غير ملوثة.. هيئ إليه أنها بدأت تتحرك وأنها توشك على قتله.. تملص من والده وتهاوى على الأرض، وبدأ يرفس الأرض بساقيه وذراعيه حتى أعماه التراب، وما عاد يرى شيئًا..

جميع محاولات والده بتثبيته باءت بالفشل..

لحظات معدودة، وتراءى له وجه أمه وسط التراب، فوهن عقله، وتوقفت حركته، وغاب عن الوعي!

استيقظ فوجد نفسه في فراشه.. والده نائم جواره.. بدأ يهذي بأمر من عقله..

- أنا قتلت أمي! أنا قتلت أمي! أنا قتلت أمي!

صوته بدأ وهنا توسطه صراخ وانتهى كحيوان جريح..

استيقظ والده حين بدأ بالصراخ، وناظره بإشفاق، ثم تساءل بهذيان..

- ماذا تعني؟!

لا يعلم أتخطو الحروف خطواتها داخل عقله ببطء شديد، فيلتقط حرفًا، وينتظر مرور حرف آخر ليشكل كلمة تصف بها حاله.. وبوصول الآخر يكون قد تناسى الحرف الأسبق.. أم أنها تتسابق بتلهف للخروج، فلا يكاد يميز حرفًا واحدًا!

- أنا قتلت أمي!

توجس والده بشدة أتكون هذه صدمة ما بعد التصديق أم أن ابنه محق وهو السبب بموتها؟!

- ماذا تعني؟

بأوقات عدة نسهى أن التخبط يفهم قولًا وحركة جسد! وأوقات أخرى نختار تجاهلها عن وعي.. قلة من تتجاهل دون وعي..

- أنت من طعنتها؟

- نعم!

أتكون الإجابات بنعم أو لا أسهل ما قد يخرج من الأفواه؟ أم أن الاعتراف بالذنب أسهل من نكرانه.. يمر مر المياه بلا شعور..

هل ثارت ثائرة الأب؟ لا لم يفعل.. لعله لم يصدق ابنه وهو بهذه الحالة النكراء..

- قال الطبيب أنه كان باستطاعته إنقاذها لو أتت بوقت أبكر.. أأنت من طعنتها وتركتها تنزف بلا طلب مساعدة؟! أخبرني أنك لم تفعل.

- لقد أشهر اللص مسدسه.. استللت سكينًا.. وكنت أريد...

غادر والده من جانبه، وبدأ يهذي كالمحموم..

- لا يمكن! أخبرني أنك لم تفعل.. لا أصدق أن ابنًا يفعل هذا بأمه وخاصة شخص مرتبط بها مثلك.

- كنت أريد طعنه.. سريعًا احتمى بجسد أمي، ولم أستطع إيقاف يدي..

مرت فترة من الصمت الموحش هذا يستوعب ما خرج من شفتيه، وهذا يستوعب ما سمعته أذناه.. عجيب كيف يتشارك الجاني والمجنى عليه صدمة الحدث، والده كان أول من تحدث..

- وتركتها تنزف للموت!

- كنت أريد طعنه.. سريعًا احتمى بجسد أمي، ولم أستطع إيقاف يدي..

- يا إلهي! توقف!

من المؤلم أن تفكر باحتماليه تحول الحب لكره خالص! أبعد والده نظره من على ابنه.. يمسك رأسه بألم واختناق شديد كيف له أن يفعلها؟! كيف وهو مرتبط بأمه وكأنها المخلوقة الوحيدة على وجه الأرض؟! أحلال فيه القتل؟ هل يضربه حتى ينكر ما قاله، وما فائدة الضرب؟ لقد خسرها، وأكملت الحياة مسيرها.. غادر من الغرفة والمنزل على حد السواء.. لعل الهواء البارد يبدد اختناق الحقيقة.

و«ياسين» عالق بذكرى أمه..

أخبرته أمه أن الألم فراق.

ترى كيف تترجم كلمة كهذه.. هل ما دون ألم الفراق لا يعد؟

الآن أيقن أن كلمتها حقيقية.. ليست مجرد كلمة مواسية؛ لتخفف عليه

ألم السخرية..

الآن فقط عرف ما يعني فراغ.. أن تتسع لكل شيء عداك! أن يحتويك بؤس الحياة! أن يصبح ملجأ للقاذورات! من هنا قرر أنه للشارع وأن الشارع إليه.. كمشرد لا أهل له، ولا سمة تميزه.. ألم يفقد أهله بفقدانه أمه، ألم يفقد نفسه بفقدانه أمه.

ومع أول خطوة بعقله تجاه الشارع.. قرر أن يكون كائن ليلي لا يتغذى على دماء البشر بل على دماءه!.

زفر زفرة تميل الرجوع للحاضر دون عيش الماضي مرات عدة.. يحاول تلفظ دخان الماضي العبق بأنفاسه وخلاياه، لكن قواه تضعف أمام سلطة الماضي عليه.. لا ينكر أنه يذهب لقبر والدته برفقة "فرح" كل عام.. يراقب قبرها لثوان معدودة على أمل ألا تظهر له حاملة للسكين.. إلا أنها لا تفعل.. لذا بمجرد أن يلمح طرفها يدير جسده، ويبتعد منتظرًا بالخارج..

الموت شبيه بزوال النعم.. فهل من يتمناه ناقم؟ أم أصابه الزوال على قيد الحياة؟ بل هيأ له الزوال.. إن زالت نعمة إما أن ترضى فتبصر للعدد الهائل للنعم الأخرى.. وإما أن تسخط فتحفر قبر هلاكك..

لعن بالغياب والندم وفجعة الاشتياق والحرمان والكره.. الحب الوحيد الذي اقترب منه هو حب الموت.. اختار هو التشتت.. فأصبح لعنة تصيب من يقربه ومن يحبه..

هو لم يجرؤ على الحب هو انساق بلا إرادة كعادة الحب يجري بلا اهتمام ممن يلحق به.. وهو لحق به، وأثار فضوله، ثم اهتمامه؛ فجاءه الحب كما يقولون على طبق من ذهب أو طبق من فضة.. لا يهتم بصحة المثل من عدمه.. وكما يقولون ما يجيء بلا تعب يذهب بلا تعب.. وهي من يتشبث بالحياة لأجلها..

أكلما زاد تعلقه بها زادت لعنته أم لعنته؟!

"نقطة حقيرة لا أهمية لها ببداية السطر"

"مني أفعال"

"وهم تشبث بكونه حقيقة"

بظلمات ثلاث؛ ظلمة ليل وبحر وحوت.. ظلمة عقله المدلهمة التي لا بصيص لسواد شاحب بها.. ظلمة تبتسم بخبث.. لا أراها بل تتحسسها أصابعي بتعثر مصاب في الروح.. أبكي وأتباكى في الخفاء دون صوت خشية أن يشعر بي.. لم أزدد قوة كما أوهمه بل تشتته من سمح بظهوري.. ضعيف كورقة خريف لا تملك إلا السقوط ليأتي من يكنسها عن الطريق أو تتقاذفها الأقدام فتتفتت، وتختلط بتراب الأرض وتصبح مداس!

هو لن يعلم شيئًا عن ضعفي وأنتم لن تخبروه.. فأنتم لا تملكون إلا القراءة بصمت، وأنا لا أملك إلا الكلام بصمت.. والتحدث لمن لا يملك التغيير كفضفضة للنفس لا طائل منها إلا عيش الألم لمرات عدة..

أريد الموت، وأريده أن يموت معي.. لا أريد الشعور بشيء وحبسي بزاوية من زوايا عقله لا يفيد مازلت أشعر.. والشعور بأي شيء يزعجني، وكأنه حكة أنف لا تزال إلا بإزالتها..

قد تتساءلون من أنا؟ أليس كذلك؟

وددت لو أخبرتكم.. لكني منزعج ويحق لي إزعاجكم وإغراقكم بالتساؤل..

بابتسامة صفراء لا أعلم حتى كيف تبدو؟ فأنا لا أعرف شكلي.. فأنا أشبه الطفيليات إلى حد ما أقتحم العقول من منافذ متعددة، وأتخذ أشكالًا لا سبيل لحصرها.

"تظن أن خطاك سريعة وتتجاهل كونك بليد الحركة ككهل أوشكت عصاه على الاحتواد!"

أعلن هاتف «نيار» عن رسالة ففتحتها.. "أردت إخبارك أنك يجب عليك أن تذهبي به عدة مرات لقبر أمه على الأقل مرتين أو ثلاث قبل أن أذهب معكم.. افعلي أي شيء واصطحبيه.. أمر آخر لم تُعطيني إلا تسجيلًا واحدًا في شهر، أريد على الأقل تسجيلًا كل أسبوع.. استفزيه حتى يغضب ويتكلم ثم يلين حتى يهدأ وهكذا.. أعيدي الكرة كل يوم.. كل ساعة.. أريد همة عالية إذا سمحت»

ما هذا هل هي من ستفعل كلّ شيء؟ وما هي أهمية الطبيب إذا؟ ذهبت لشقيقته تطلب منها المساعدة.. بعد نصف ساعة.. دخلت «فرح» غرفة «ياسين».. لا تعلم كيف ستقنعه بزيارة قبر والدتهما؟.. فهي خطوة مهمة تبعًا لما قال الطبيب.. ليس أمامها سوى أن تلح وتصر عليه كي يرضخ ويذهب.. وجدته نائمًا على الفراش بالظلام.. اقتربت منه دون أن تشعل الأنوار.. وتمتمت بهمس:

- "ياسين"، هل لي بطلب؟

أجاب دون أن ينظر لها:

- ماذا؟

- أريدك أن تنظر لي "فرح" شقيقتك.. لست وجهًا لأمي تخاف منه.

شُلت حواسه كلها.. ضائع.. مازال متأثرًا بما حدث اليوم، وعقله لا يتوقف عن إرسال الصور له.

- لا.

- ولمَ؟ أهو صعب؟

- جدًا.

- أريدك أن تذهب لقبر أمي، وتتحدث معها ربما حينها ستستطيع النظر لي.

- مستحيل!

- ولمَ؟ أنت تذهب لقبر أبي.

ثم استطردت..

- أخبرتك منذ مدة أني سامحتك.. هل تعرف كم كان هذا الأمر مستحيلًا عليّ؟ ومع هذا فعلت ليس لأجلك، بل لأجل نفسي.

- أنا لا أستحق.

- ولمَ؟

كانت «نيار» تقف عند باب الغرفة تستمع لحديثهما، وعندما طال صمته تدخلت.

- لم لا ترد على هذا السؤال البسيط؟

أدار وجهه ل»نيار" بنظرات تبعث لها شرارات الغضب.. بادلته النظر بجمود.. بينما داخلها يتملكه الخوف للمرة الأولى ترى هذه النظرات بعينيه لها.. هي تعلم أنه يعلم أنها من تقوم بهذه الأشياء، وتضغط عليه دون أن تعطيه فرصة للتنفس حتى.. هل يراها الآن من أعدائه؟! تُرى ماذا يُخبره عقله عنها؟

هبّ "ياسين" واقفًا يغادر الغرفة، وأمسكها يجرها خلفه.. تنفست "نيار" بتعب واضطراب وهي لا تقدر حتى على التكلم فأطبقت شفتيها تمنع اعتراضها.. أدخلها غرفة أخرى، وأغلق الباب.. رماها على الفراش، وبدأ يهزها بعنف وبقوة أوجعتها.. صرخ:

- أنتِ أخبرتيها أن تطلب مني هذا الطلب! أنت السبب! ألم أخبرك أني لا أقدر؟ لما لا تفهمين ما أخبرك به؟ هل أفتح رأسك وأقحم الكلام به؟.

أفتلها، فانشقت ثيابها بين يديه.. بمجرد تحررها منه، همست:

- أنت تؤلمني!

التفت لها وعيناه كقطعة حمراء:

- هذا جيد.. أخبرتك أني أتعذب بما تفعلينه وتطلبينه.

أشارت لملابسها، واتجهت للخزانه تخرج ما ترتديه، ثم صرخت:

- أنا من ستعيش معك لنهاية العمر يا أحمق.. ما ذنبي كي أتحمل العيش مع مرضك؟ أين كلامك لي؟ انظر لما تفعله بي، ماذا يحمل قلبي لك كي أتحمل جنونك؟!

هل استشعرت ألمًا بعينيه! لكنها لم تتوقف، ولم تستطع منع نفسها من القول:

- هل تعلم يجدر بك حمد الله أن أمك توفت، ولم ترَ أي جنون أصبحت به الآن.

تطلع لها بعين تنوح بالألم والخطر على حد سواء.. أمسكها بعنف وشدة، وصاح بها.. لكنها فقدت القدرة على سماع ما يهدر به من كلام.. وأمسكت يده التي تشد ملابسها من عنقها بقوة.. وهمست بصعوبة:

- أنت تخنقني.

لكنه أصبح كمن لا يرى.. ولم تعد "نيار" تقدر على التنفس.. فقالت تستجديه:

- أرجوك.

وحينما تأكدت أنه لن يتراجع .. همست ودمعاتها تتسابق للنزول:

- أنا حامل.

قالتها لتبعده عنها، ولكن ما لم تتوقعه.. شده الذي تزايد وهتافه باسمها ازداد سوادًا ووحشية.. تعثرت الكلمات على لسانه.. وتسارعت أنفاسه بقوة مُخيفة:

- حامل! ستنجبين من تحبيه وتتركيني.

لم تعد تتحمل وثقل جسدها على ساقيها يتزايد، فنزلت بجسدها على الأرض حتى انشق قميصها من الأمام، وتزحزحت للخلف تلهث بشدة.

نظر "ياسين" لقطعة القماش بيده، وقبض عليها بغضب.. وكلما تحرك خُطوة لها كلما ابتعدت للخلف حتى اصطدمت بالخزانة خلفها.. أراد فقط تهدئتها.. جرت لدورة الحمام، وحاولت غلق الباب عليها.. لكنه كان أسرع ومنعها.. وقف عند الباب لا يريد إخافتها أكثر.. عينه على عينيها بالمرآة

وهـي تغسـل وجههـا.. تمتـم بأسـف وغـادر.

جففـت "نيـار" بتعـب وجههـا، وغـيرت ملابسـها للمـرة الثالثـة، ونزلـت للأسـفل تحتـسي شـيئًا بـاردًا.. دخلـت عليهـا شـقيقته المطبـخ، وقالـت:

- لقد خرج.. هل آذاكِ؟

شردت عيناهـا بلـون العصـير.. آذاهـا، إنها بخير جسـديا فقط.. لكن لم تشـعر بهـذا الوهـن يهدهـا، أسـندت رأسـها عـلى الطاولـة.. تصم أذنهـا عن الوجـع الذي انتـشر بعظامهـا.. وبغمـرة إحساسـها بالإنهـاك.. تذكـرت.. تريـد الصعـود لغرفتها لترتـاح.. لكنهـا الآن بحاجـة لعصـا تتـوكأ عليها.. علها تسـند ارتجـاف قلبها.

ابن! أب!

ابن! أب!

ابن! أب!

أيـن موقعـه بينهـما؟ أهـو الأول وسـيكون الثـاني.. أم أن حـاضره ماضيـه ومسـتقبله حـاضره؟.. أهـذا يعنـي أن مسـتقبله ماضيـه أم أنهـا مجـرد مرادفـات شـكلت أكـبر مـن حيزهـا بحياتـه؟.. لا.. هـو المخطـئ هـو مـن تلحـف بهـا؟ مـا ضـير اتهـام الآخريـن بذنوبنـا إلا تفحلهـا وانغـماس النفـس باللـوم.. ليـس لـوم الآخريـن فقـط أو حتـى اشـتراكا مـع الزمـن.. بـل لـوم كل شيء يحيطنـا.. فثمـة مـن يلـوم صلعتـه لـدوام فشـله أو حظـه الـسيء.. ومـن يلـوم هـو؟ هـو لا يلـوم غـيره.. هـل مـن الممكـن أن يتحـول لأب صالـح كوالـده ويكـون ابنـه هـو الطالح المـؤذي.. أم أنـه سـيبقى عـلى حالـه ويعيـد القصـة بطريقـة مختلفة؟.. أسـيؤذي ابنـه غـيرة منـه كـما يشـعر تجاهـه؟.. يـا إلهـي سـتحبه "نيـار"، وسـتتعلق بـه وسـتهتم بـه أكـثر مـن أي شيء آخـر.. ألم تكـن والدتـه تهتـم بـه، وتعطيـه كامـل وقتهـا أم أنـه هـو مـن يتعلـق بطـرف ثيابهـا؟!

ما هذا؟ ما الذي تغير بالهواء؟ ما هذه الرائحة؟

يا إلهي! إنه يشم رائحة دم!

انتبـه للتـو لـكأس الخمر الذي تهشـم بيـده.. وللعجـب لم يصب كفه بـأذى..

فمن أين تأتي رائحة الدم؟.. ولمذاقها الردئ بفمه بالرغم من نوعها الفاخر! إنه لا يعي كم من الوقت مر عليه وهو يحتسي الشراب!.. ولمكان جلوسه وللأجواء الصاخبة حوله.. نظر حوله بحيرة.. ألم يأتِ برفقة "أسعد"؟ أين هو إذًا؟ التفافةٌ منه جهة حلقة الرقص.. لمحه يرقص برفقة امرأة.. لا إنها ليست أي امرأة.. إنها المرأة التي تعمل لصالحهم بالبنك.. ما كان اسمها؟ إنه حقًا لا يتذكر.. وهل يهم؟ المهم حقًا أن رفيقه الأحمق مازال ملتصقًا بها..

يا إلهي!

ما هذا الهراء الذي يشغل تفكيره؟ سيكون أب لديه ابن.. كيف ستحل معادلة كهذه دون خسائر؟ بل كيف ستكتب؟ وكيف سيتفاعل معها؟ وما شكل إحداثياتها؟ وما هو طرفها الموجب؟ يخيل إليه أنها ستكون سلبية الأطراف.. بدأ يشرب من الزجاجة.. بلا مبالاة لما يسكب فوق قميصه.. منذ علم أمس أنها حامل وهو هائم على وجهه بالشوارع بلا هدف.. هذه المرة الأولى التي يخرج بها للطرقات دون الاهتمام بالبحث عن الأطفال.. كان يخاف من النظر لهم.. خيل له رؤية ملامح ابنه بوجوههم! يا إلهي! أسيكون مصير ابنه الشارع مثله؟ أيمكن أن يعيد الزمن قصته مع ابنه ويخسر "نيار"؟! يا إلهي! أي مصيبة تلك؟! إنه يكرهه.. لا يريد أي أبناء.. لا يريد أي نوع آخر من العلاقات.. علاقته بزوجته أكثر من كافيه.. هي أم، أب، رفيقة، حبيبة، زوجة، شقيقة، ابنة، هي كل مسمى، هي هي، هي جوهر ولب حياته، هي منها المصير وإليها المنتهى!

يا إلهي! لا يتذكر ماذا فعل بالأمس لها؟ أيكون آذاها حقًا أم أنها مجرد خيالات تريد اللهو بعقله.. ياإلهي! أيكون؟!

بئس! بئسًا له! أتكون تركته وغادرت لبيت أمها؟ أتكون فعلتها؟ لقد فعلتها قبلًا؟

بأصابع مرتعشة استل هاتفة.. اكتشف نفاذ بطاريته فزفر بحنق.. وحاول النهوض.. وجد نفسه يترنح بخطواته.. فازداد تجهمًا وكرها لنفسه.. لقد مر زمن لم يشرب به بهذا الإسراف.. إنه حتى لا يتذكر متى آخر مرة شرب بها لهذه الدرجة المقيتة؟!

دخل "ياسين" المنزل ليلًا مترنحًا.. بالكاد وصل لغرفته.. وجد «نيار» نائمة جاورها بالفراش، وهمس:

- لم أتصور بحياتي أن أكون أب! أب! ألم يكفِ ما سببته لعائلتي من عذاب.. ذنبك.. ذنبك أني أحببتك!

بصعوبة قاومت "نيار" قزازة رائحته.. ظلت ساكنة حتى شعرت بانتظام أنفاسه.. غفا.. فتحت عينيها.. يبدو عليه السكر.. أبعدت الغطاء من حوله وجرته جرًا وهو كالجثة الهامدة.. الغضب يتصاعد بداخلها أكثر، ألقته بحوض الاستحمام.. أحضرت اثنان من أوشحة شعرها من خفيف القماش كي لا ينفك بسهولة، وعقدت به ساعديه معًا، وثبتتهما بمشد بالجدار خلفه.. أحضرت مكعبات الثلج من البراد، وألقتهم عليه وفتحت صنبور الماء.. جلست مبتعدة عنه تعد.. واحد، اثنان، ثلاثة.. ثم رأته يرمش بعينيه.. انتفض يصرخ كالملسوع.. أخرج ساقيه من الحوض، ولم يستطع إخراج باقي جسده ولا حتى تحريك يده للأمام فهي معلقة خلف رأسه.. نظرت له بلامبالاة، دون حتى أن يرمش لها جفن.. وهويصرخ باسمها طلبًا للنجدة:

- أغلقي هذا الشيء.. ما هذا الجنون الذي تتصرفين به؟!

هزت كتفيها ببساطة، وقالت بسخرية:

- لا أرى مجنون هنا غيرك.

أخذ يتلوى فبدأت حبات الماء المتناثرة تطولها، وعندما يأس من الصياح.. سكن وهمس بخوف "أرجوكِ".. عيناه تذرفان الدموع.. لن تستجيب له، ولن تتحرك مهما فعل.. بعد نصف ساعة.. اتجهت له، أغلقت الصنبور، فكت يده.. قام بهدوء دون أن ينبث بحرف، واتجه للخزانة يُخرج ما يرتديه، واتجه للفراش.. تبعته بحيرة.. غريب كانت تظن أنه سيصب عليها غضبًا لا تتحمله.. وقفت جوار الفراش، وقالت:

- هل ستنام؟ قم وصلِ بالطبع لم تصلِ بالمكان القذر الذي كنت فيه!

- ما تريدين الآن؟ ألم تنفذي ما تريدين وكأني طفل لا عقل له لتعامليني بهذا الشكل؟! لمَ تفعلين هذا بي؟ تقبليني دون محاولة لتغييري؛ لأني لا أستطيع.. لا أستطيع.. أنا أخاف على نفسي من نفسي أخاف من هذا الطفل الذي

بداخلك.. أنت حامل! أخاف عليك أكثر شيء.

منعت لسانها من القول «وأنت حقًا بلا عقل".. بل قالت بهدوء:

- لو كنت أعلم مرضك من أول يوم كنت ناظرتك بشفقة وربما أدعو لك.. لذا أجدني أفكر لولا ستر الله -وهذا مصطلح جميل لكذبك- لما أحببتك، ووافقت على هذا الزواج الغير معلوم الملامح!

أمسك يدها يقبل باطن كفها، وقال:

- لا أستطيع إيذاءك صدقيني أنا لا أقدر حتى!

أبعدت يدها عنه، وقالت:

- ربما يجب أن تصدق نفسك أولًا!

ثم أردفت:

- ستفعل ما يمليه عليك الطبيب.

لم يرد، فبدأ الغضب يتشكل على صفحة وجهها.. فقال بيأس:

- أنت تعلمين أنه لا أمل فلما أكون فأر تجارب لهذا وذاك.

اعْوجت شفتيها بابتسامة حزينة، واستجابت ليده.

- هل كانت فترة علاجك مُوجعة؟

موجعة! لقد كانت كالجحيم بالنسبة له.. لمَ يتجاهل حاجتها لسماع أي شيء منه حتى لو كان بسيطًا.. إنه يكذب على نفسه.. بحاجة للبوح، ولكنه يُكابر ولا يعلم السبب.. يهوي تعذيب نفسه ببطء مقيت.. يخنق أنفاسه.

ملت "نيار" من انتظار إجابته.. والتي كالعادة لا تخرج منه.. فقالت بنفاذ صبر لم تستطع مقاومته:

- سنذهب غدًا لقبر والدتك.

أومأ برأسه دون كلام، فقالت مشددة:

- ستفعل ما يمليه عليك الطبيب.

مرة ثانية أومأ برأسه فقالت تخرجه من الفراش:

- قم وصلِ.

للغرابة ابتسم، وقد أوشكت أن تنسى ابتسامته في هذه الأجواء الجافة، وتفاجأت أكثر حين نكش غرتها، وقال:

- أي أوامر أخرى.

راقبته وهي تفكر ستذهب لشيخ لتتكلم معه كي يُخبرها كيف تتعامل معه بموضوع والدته؟ وربما تحضره هنا كي يسمع هو شخصيًا قد يرتاح حينها ويذهب شعوره بالذنب المقيت هذا.. فهو متأصل به، ويحتاج لتنظيف عميق من الجذور حتى لا يعاود الظهور.. سمعته يتمتم جوارها:

- لم دائمًا يحدث معي ما لا أريد؟!

- ربما لأن ماتريده يؤذيك!

لم يرد فتحسسته.. يبدو نام من التعب النفسي قبل الجسدي.. مُعذب هو وارتبطت هي الأخرى بعذابه.

❁❁❁❁❁❁

في السيارة.. هي و"ياسين".. ذهنها شارد بعتاب والدتها لها؛ لأنها لم تُخبرها فور علمها بالأمر.. وحتى «عمار» أخذها جنبًا وأنبها لحملها كأنها تحمل وباءً يخشاه.. موقن تمام اليقين أن حياتها مع «ياسين» لا مستقبل لها.. يراها لا تستطيع وطئ عالمه دون أن تتأذى! أخبرها أن تُجهضه! وسيساعدها دون علم أحد.. وحتى عندما سمعه «ياسين» وهو يقذفها بهذا الطلب لم يفعل شيئًا.. فقط نظر لها وعيناه تخبرها أنه محق فهو لا يقدر على تربية أحد! حتى "فرح" باركتها بغير روح ولم تنسَ نظرة الإشفاق في عينيها تقول "ألا يكفي ماتتحمله لتزيديه عليك"، لم يجبر خاطرها غير «سچور» وهي تبارك لها ببشاشة غير معقولة، وكأنها هي من ستنجب.. حتى أنها بدأت تفكر في أسماء معها.

لم تشعر إلا بتوقف السيارة، فوجهت نظراتها نحو «ياسين» جوارها.. رأت حبات العرق تتفصد على جبينه.. هل ستشفق عليه الآن؟.. لن تفعل وستجبر نفسها ولو كان يموت ألمًا أمامها.. لكن الفضول يتآكلها، أزيارة قبر أمه صعبة لهذه الدرجة؟. عقله عالم متشابك من الحيوات لا سبيل لفهمه أبدًا.. رأته يخرج؛ فلحقته تساعده لكنه أبعد يدها وبدلًا من أن يبعدها احتفظ بها داخل كفه.. يمسك يدها بشيء من القسوة أو ربما يستمد

منها بعض القوة بالضغط عليها.. لكن في هذه اللحظة لا تعلم إن كانت قوية كفاية لكليهما! وقفا أمام القبر.. رأته يغمض عينيه بقوة كأنه يتألم، فأحاطت بيدها الأخرى كفه الممسكة بكفها.

- ماذا هناك؟

لم يرد.. أحست بارتخاء يده حول كفها، فأعادت النظر له.. فتح عينيه، وخرج همسًا خافتًا من شفتيه:

- أرى أمي!

اختفى من أمامها.. لم تستطع اللحاق به.. عادت للمنزل.. انتظرت لساعات على أمل عودة «ياسين» لكن النعاس غلبها.. ولم تستيقظ إلا صباحًا، ووجدته نائمًا جوارها.. لقد كان أمس فاشلًا بكل المقاييس لكنها ستعمل على إنجاحه اليوم .. لذا عزمت على الخروج، ولكن قبل مغادرتها وضعت ورقة على الكومود كي يراها فور استيقاظه.. ستذهب لشيخ أولًا، ثم ستفعل ما مكتوب بالورقة.

استيقظ "ياسين" بعد مغادرتها بساعتين، ولم يجدها بالغرفة ولم يرَ الورقة.. فنزل للأسفل يفتش عليها.. لم يجدها.. اتصل بها فردت سريعًا:

- هل ذهبت؟ هل أنت هناك الآن؟

أجاب بحيرة:

- أين؟

- ألم تقرأ الورقة؟ هناك ورقة على الكومود اقرأها.

وأغلقت الخط، فصعد سريعًا.. تناول الورقة يقرأها «سأذهب لقبر والدتك.. ولن أرجع حتى تأتي ولو اضطررت أن أقضي النهار والليل كله» شتم.. واتصل ثانية، وصاح:

- أيتها الحمقاء ماذا تفعلين؟! أنا لن آتي.

ردت عليه بثقة أنه سيفعل.. فشعر بالضيق من هذه الثقة..

- لن آتي مهما حدث.. ولوقضيت بقية عمرك كله هناك!

أغلقت الهاتف.. أعاد الاتصال بلا فائدة.. خرج مسرعًا.. وفي منتصف الطريق بدأ يصرخ .. لن أذهب.. لن أذهب، وضرب رأسه بمقود السيارة

حتى جرح جبهته، وعاد للبيت!

نظرت "نيار" للهاتف بيدها بشرود، والشيخ يحدثها:

- ما تقوليه صعب يا ابنتي.. هذه اعتقادات أطالت المكوث، واستوطنت عقله كمن نشأ على شيء في صغره لا نستطيع تغيره بين ليلة وضحاها.. سأحتاج وقتًا.. عدة أشهر وربما سنوات وقد لا أنجح.. آسف يا ابنتي لكن هذا كل ما سيخبرك به الجميع.. هذا هو الواقع.

هذا وقت كثير، ولن يتجاوب معها قد تجبره مرة.. مرتين.. وهذا صعب جدًا لكن أن يأخذ كل هذا الوقت لا تظنه سيقبل.. مستحيل.. هذه أول خطوة أمرها الطبيب بها.. ولا تقدر على فعلها وحدها لهذا طلبت منه المساعدة.. وها هي تفشل.. قالت بعد صمتها:

- حسنًا ولو طلبت منك المجيء ولو لمرة واحدة.. من يعلم قد تأثر عليه قليلًا.

أجاب طلبها، فشكرته وخرجت من المسجد.. تتمشى وغشاشة من الدموع تملأ مقلتيها.. كلما حاولت اللجوء لأي مساعدة ينقلب عليها الحال.. كل شيء يعتمد عليها هي، هل تملك قوي خارقة لا تعلمها؟.. ماذا يرون بها كي ينطقوا «هذا الأمر يعتمد عليك أكثر" هل هي إسفنجية تستطيع امتصاص ما به، ثم تُخرجه وترجع كما كانت.. إنها تتأثر كل يوم أضعاف اليوم الفائت.. تتساءل أين اختفت أحلامها بشفائه! أهي السبب بتسلل شعور الهزيمة بها؟! أم أنّ الأحلام لم تعد تراها أرضًا خصبة لتنبت فيها؟! وصلت أخيرًا للقبر.. كأن همومها تنزلق من عقلها لقلبها حتى تصل لقدميها.. فلم تعد تقدر على حملها، فجلست على طرف الطريق شاخصة في اللاشيء تنتظره.

في غرفته يقف "ياسين" أمام المرآة ينظف الجرح.. دخلت عليه شقيقته وأنبته:

- ألا زلت هنا ألا تعلم أنها تنتظرك منذ الصباح وقد مرت ساعات؟!

وتوقفت ينظر له بتمعن:

- هل جرحت نفسك؟

- إنها لا شيء، لا تقلقي.

- ومن أخبرك أني قلقة.. لقد تعودت عليك.. الآن أخبرني لماذا لم تذهب وراءها؟

- ستمل الانتظار وترجع.

- لقد تحولت لكائن تشمئز منه الحيوانات.. أخبرني ماذا قدمت لها كي تجاورك؟! غير أنك تذيقها من الألم أنواع.. وماذا عن الجنين الذي تحمله هل ستتركها تنجبه؟ أزيلوه قبل فوات الأوان.. أي حظ بائس له كي تكون والده! كفاك واذهب.

بخنوع قال:

- سأذهب.

- ماذا تنتظر إذًا؟ هل تنتظر تصفيقا من نوع خاص؟! لا أظن فأنت لا تصنع عظيمًا!

"د.. مِ

ينظر "عـمار" ل-"سـچور" وهـي تتلاعـب بالطعـام، وتُخـرج التنهيـدات الواحـدة تلـو الأخـرى.. سـألها بقلـق:

- ما سر هذه التنهيدات ؟هل هناك شيء؟

نظـرت «سـچور» للوجـوه التـي دلفت للتـو.. المطعـم في الهواء الطلـق.. ومع هـذا أنفاسـها تختنـق بداخلهـا.. حالهـا مرهـق ويزهـق أنفاسـها.. كأنهـا بعنـق سـاعة رمليـة، والرمـال تكتـم أنفاسـها وحركتها..

- "عمار".. أنت شخص محظوظ جدًا!

اعتلى شفتيه ابتسامة حلوة، وهمس:

- هذا لأني سأتزوجك قريباً.

- أنا أتكلم بجدية.. أنت محظوظ بوالدتك!

انقلب وجهه تسعين درجة، وقاطعها:

- هل قالت ما يزعجك ثانية؟

بـل قالـت مـا أذهلهـا؟ حـين سـمعت «نيـار" ووالدتـه يتكلـمان عنهـا.. لقـد كان البـاب مفتـوح، وسـمعته مصادفـة.. لا تسـتطيع أن تتحمـل عقـاب ابنهـا بسـببها هـي، فحـين زواجهـما سيشـاركها الإثـم، إنه لأمـر مضحك أن يخـاف الغير عـلى مـن لا يخافـون عـلى أنفسـهم.. حـين سـمعت كلامهـا هـذا لم تُبـالي لـه.. لكـن منـذ ذهبـت للمعهـد.. والكلـمات لا تتوقف عـن الضجيج بأذنهـا.. خرجت الكلمـة مـن بـين شـفتيها بغتـة دون أن تدركهـا:

- سأتحجب.

نظر لها بغرابة، وقال باستفهام:

- والسبب أنت كنتِ ترفضين هذا الأمر؟

لم تجب على سؤاله بل قالت ما يجول بتفكيرها كأنها تحدث نفسها:

- سـأرتديه عندمـا أنتقـل لبيتـك.. أنـت لديـك أم رائعـة وأخـت أروع.. أنـا لم أحـظَ بعائلـة كعائلتـك ربمـا لهـذا اختلفـت التربيـة أو انعدمـت.. فتقريبًـا ربيت نفـسي بنفـسي.. لم يعلمنـي أحـد مـا الصـواب؟ ومـا الخطـأ؟.. هـل تعلـم لقـد

احترمتك وكبرت في نظري أكثر عندما لم تتدخل بمضايقة والدتك لي؛ لأنها أمك ويجب برها.. أتذكر سؤالك لي في بداية تعارفنا «إن كنت أصلي؟» تضايقك بشدة يومها ولا أعلم من أين أتتك الجرأة كي تسألني سؤالًا كهذا.. ومع شعوري هذا أجبتك «بنعم».. حينها تساءلت أنت بسخرية "كيف تصلين وتخرجين بهذا المنظروالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر؟!" لم أجب وقتها ولكني سأجيب الآن.. صلاتي لا تتعدى دقيقة! نعم لم أقطعها قط، ولكن هذا ليس مرادفه أني أصلي حقًا.. اقرأ كلمات لا أعرف معناها.. جسد بلا روح.. ولكن أخبرني لم أرَ أي منكم بالتدريب يذهب لمسجد، حتى أنكم لا تصلون جماعة.. كل شخص يصلي بركن ما مثلنا نحن الإناث.. لا أقصد شيئًا بل أُعيب نفسي قبلكم، ولكن يبدو أنه أمر منتشر بكثرة في مجتمعنا.. هل فكرت قبلًا أن تنشأ على شيء طوال عمرك؟ ثم تجد من يختلفون عنك هم الصائبون وأنت المخطئ. «نيار» اصطحبتني معها المعهد لحلقات التفسير.. لم أركز بشيء مما قالته المفسرة سوى آية أرعبتني.. وجل ما شعرته وقتها هو الضآلة وقلة الحجم والغرابة، بينما أوزع نظري على من يحضرنّ.. كأن تزرع حبة بطاطس في حقل قمح! كأني أشاهد زمنًا مختلفًا.. وطنًا لا يشملني.. أنا مشوشة التفكير لا أعي عقلي تائه مني لا أجده.. قلبي هو من يدفعني هذه الفترة.. لست بخير، أحاول جاهدة لأكون لكني أفشل، لا أجد إلا الفقاعات؛ لتحميني! ولحظة وتنفجر بي، ولا شيء يبقى! أتنقل من فقاعة لأخرى.. خائفة.

اختلط عليه الشعور بالسعادة والحزن عليها.. شعورها بالتيه والخوف ربما هو بداية الإصلاح. لم يكن ينوي قط أن يجبرها على شيء.. إنه فخور بها.. راقبها بعيون تلمع، وفتح فمه ليتحدث.. لكنها قاطعته:

- أنا متعبة، ولست بوقت يسمح لي بسماع شيء هلا أوصلتني للمنزل.

وصل «ياسين» وتطلع إلى «نيار» من نافذة سيارته؛ تجلس منكسة الرأس تفترش الأرض.. حقيبتها ملقاة جوارها بإهمال كصاحبتها.. بقي يتطلع لها

لثوان دون أن ينزل من السيارة.. حتى رفعت نظرها له بلامبالاة أزعجته حقًا، ثم أعادت رأسها تنظر للأرض.. نزل وذهب جوارها.. وقف ينظر لها من علو، فهمست «نيار» بسخرية:

- ألهذه الدرجة! وكأني أطلب مستحيلًا! هل كنت ستؤذي نفسك كي لا تأتي؟

أشارت بيدها لجبهته.. لم يفعل سوى أنه التقط يدها يرفعها؛ لتقف بشيء من العنف:

- لم تجلسين بهذا الشكل المخزي كأنك شيء بلا قيمة، ألقاه أحد المارة بالطريق.

- معك حق هذا ما أنا عليه شيء بلا قيمة لك! أنت من ألقى بي هنا منذ ساعات بانتظارك بلا مبالاة.. فلا تتذمر الآن.

- أنا السبب؟!

- نعم.. أنت السبب.. ثم هل جئت هنا لنتشاجر أم سندخل؟

نظر لها لثوان معدودة بتردد، ثم ما لبث أن قال حين تهاتفت أمامه كلمات شقيقته:

- سندخل.. سندخل.

اتجها للداخل، وقفت قبيل القبر تدعو لها، تنظر له بطرف عينيها، وهو ينأ بنفسه على مسافة:

- هل ستقف عندك كثيراً؟ افعل شيئًا، ترحم عليها على الأقل.. هل تسمعني من الأساس؟ أم أنك تطوف بعقلك؟

زاغت عيناه، نظر لها بتشوش وتحرك للخلف يستند على الجدار.. اقتربت منه، وأمسكت كفه بين راحتها، وبدأت بتدليكها برفق.. قالت تستجديه أن يتكلم:

- أنت ترتجف! هل تشعر بالبرد؟.. ملابسك خفيفة لماذا لم ترتدَ شيئًا ثقيلًا؟ ألن ترد علي؟! ألهذه الدرجة أنت غاضب مني؟! لا تبدو بخير أبدًا هل تريد الجلوس؟ يمكنك الجلوس على الأرض.. إنها مليئة بالأتربة ولكن لا بأس.

ما هذا العته الذي تتفوه به؟! إنها أرض فماذا ستكون غير هذا؟! لم يبدِ أي رد فعل، حاولت أن تثني ساقيه ليجلس.. تترجاه ليرخي قدميه قليلًا.. حتى تستطيع أنْ تُجلسه.. نزل بثقله مرة واحدة على الأرض، فأسرعت بوضع يديها حول رأسه كي لا يصطدم بالجدار، ويؤذي نفسه، جلست جواره، خلعت شالها، لفته حوله بإحكام ليخفف من ارتجافه ولكنه بلا فائدة.. وضعت يدها مكان الجرح تتحسسه برفق، وبدأت توزع قبلاتها مكان الحرج برقة، وهمست علّه يُجيب:

- هل تؤلمك؟ هل أنت من فعل هذا بنفسك؟ أنا آسفة حقًا لأنك آذيت نفسك بسببي.. لا أحب إرغامك على شيء لكن أنت لا تترك لي خيارًا آخر!

لكنه ساكن الحركة.. تنهدت بخفوت تحاوط كتفه بذراعيها، وتذكرت أن تضع هاتفها على التسجيل.. صمتت عن الكلام، وقد تعبت من الثرثرة، وتتأفأف بسرها في صمت عليه وعلى الطبيب وعلى ما يفعلاه.. مر بعض الوقت حتى شعرت به يُزيح نفسه تجاهها، ويتقوقع بحجرها ويديه تحاوط خصرها، ويدفن وجهه بين ثناياها.. فتشجعت للحديث مرة أخرى، ونادته «ياسين».. لم يرد، فسكتت تُعطيه الوقت الذي يحتاجه علّه يفصح عما داخله.. بدأت تمسد ظهره صعودًا ونزولًا بحنو، وظلت تردد "لا بأس.. أنت بخير» حتى سمعته يهمس بتحشرج بصمت لا يُسمع، لكنها تنبهت له :

- أنا أفتقدها.

من يفتقد؟! بالطبع أمه يا غبية من ستكون، كانت ستتحدث، ولكنها صمتت حين أكمل بارتجاف.. يُكررها ثانية بصوت مرتفع هذه المرة:

- أنا أفتقدها! أحتاجها بحياتي يا وهج النار.. إنها أمي؛ من كانت تعرف ما بي من نظرة واحدة وتراضيني من نظرة واحدة تبعث بداخلي السعادة من نظرة واحدة.. كل هذا بنظرة واحدة فقط فكيف إن تكلمت إنها أمي يا"نيار"، ذنبي كبير جدًا جدًا لا حدود له هل تعين هذه الكلمة؟! ما فعلته لا يُغتفر إنها فاجعة.. أنا أحبها بطريقة لا توصف، ولم أحب بحياتي

شخص بمثل قدرها غيرك أنت يا وهج النار.. لا تتركيني أرجوك.

همست بسرها «أعي حقًا بالله أعي ..فقط هون عليك» وهو يُشّددُ من احتضانها بقوة حتى لم تعد قادرة على التحرك.. همست ببحة والدموع تملأ مقلتيها:

- أمك تحبك.. وأنا أقسم برب الخلق أحبك.. حبك لم يُبعث بداخل قلبي صغير وكبر مع الوقت.. حبك خُلق كبيرا من بدايته.

ابتسم بألم وتمتم بسخرية:

- لينفجر مع الوقت، ولا يبقى منه شيء.

تُحاول رفع رأسه ليراها وهي تتحدث، ولكنه لا يساعدها، فتمتمت بتأكيد:

- حبك خلق كبيرًا من بدايته كي يبقى كبيرًا مهما فعلت.. هل فهمت؟ «ياسين» انظر لي.. أرجوك.

هذه المرة مال برأسه قليلًا لأعلى ليراها، ثم رجع يدفن رأسه بحضنها، ولا يتوقف عن الترديد "لا تتركيني".. فهمست:

- قسمًا برب الكعبة لن أفعل.

- خائف أن أتسبب بفقدانك كما فعلت مع أمي.

- أنا أثق بك.

- أمي أيضًا كانت تفعل.

- سأسامحك كما فعلت.

- أنتِ واثقة أنها فعلت؟.

- إنْ كنت تحبها بهذا القدر، فحب الأم أكبر وأقوى؛ لذا بدون ذرة شك هي سامحتك.. بل متأكدة أنها لم تحزن من الأساس لتسامحك.

سكت.. فسكتت، تيبست قدماها من ثقله عليها، وشعرت بالإرهاق، ولكنها لا تبالي.. هو الأهم فتمتمت وهي ترجو أن يتجاوب معها كما فعل منذ دقائق:

- لقد أخبرتني أنك ترى والدتك هنا.. أين تراها بالضبط؟ «ياسين» لا تصمت أرجوك.

- آسف لأني تركتك تنتظرين من الصباح، وتأخرت عليك.. هل تشعرين بالجوع؟

يتهرب من الحديث، ولكن لا بأس ستجاريه لتعلم إلى أين سيصل؟

- جدًا، أنا وابنك لم نأكل من الصباح.

تعصب عقله.. فأطاش كل صواب فيه.. عبست ملامحه.. ابنه! ابنها هي! هو لا يحبه.

- ستحبينه أكثر مني كما فعلت أمي لقد كان أبي يغار مني.. لا أريده.

- ستظل أنت في المقدمة وهو في الدرجة الثانية.. وما أدراك قد تكون فتاة، وتحبها أكثر مني.. يقولون دائمًا الأباء يحبون الإناث أكثر.

أمسك يدها يُحركها، يُربت بها على ذراعيه ورأسه.. كأنه يُطيب جراح نفسه.. جرحه عميق ينزف بداخله.. يتساءل فقط هل مازال لديه دم لم يُصفى؟! هو يتألم.. يقينا هو يفعل، هو لا يكذب على نفسه. وأبدًا.. أبدًا هو لن يُحب هذا الجنين.. مُجرد التفكير أنه سيأخذها منه.. يوقعه بأرض قاسية تهري قلبه.. يُسقيه علقم يجعل أنفاسه مرة الدخول والخروج.. ارتجفت شفتاه، وقال:

- لكني لن أفعل.

- أعلم.

قام من حجرها، فأمسكت يده تمنعه.. قال:

- لقد جعلتك تشعرين بالجوع.. لقد أحضرت شطائر لك معي أنا من صنعتها.

نظرت له بشك، لكنها لم تمنعه.. لم تمر دقيقتان حتى عاد يحمل كيسًا بلاستيكيًا، وأخرج منه شطيرة ناولها لها.. رجع لتقوقعه.. يناظرها وهي تقضم الشطيرة:

- هل زال غضبك مني لأني تركتك طويلاً؟

- لم أغضب من الأساس.. ألن تأكل معي؟

- إنها لكِ كلها.

للمرة الثانية عادت كلمات شقيقته لرأسه، فوجد نفسه يهمس لها

بغضب:

- هل تقرفين مني؟

قطبت حاجبيها بتوجس، وملأها الخوف ليس من غرابة سؤاله بل من نبرة صوته.. توقفت عن المضغ.. وتساءلت عن السبب.. فقال بحدة:

- تقرفين من تصرفاتي.. لأني أرفض أن أفعل ما تريدين مني.. كيف نظرت لي عندما علمت أني مدمن؟.. قتلتُ وسُجنتُ.. كيف كانت نظرتك عندما علمت أني قتلت والدتي.. هل تشمئز عيناك مني؟ جاوبيني.

هزت رأسها نفيًا، وتمتمت:

- أنا لا أشمئز منك.. قط لم أفعلها.

- لكن شقيقتي أخبرتني أنك ستفعلين ربما لا تنظرين إلي بقرف وأنا معك.. لكن ماذا عن وقت مغادرتي وتركك وحيدة، هل تفعلين؟.

قاطعته وهي تحاول إبعاد يده التي تمسكها بقسوة:

- أنا أغضب منك فقط أحيانًا ليس كثيرًا.. لكني لم أفكر حتى مجرد التفكير أن أنظر لك بقرف ولا في وجهك أو وراءك.. لا أستطيع أن أفعل.

- لمَ ترغميني على ما لا أريد إذًا؟

- أنا لا أريد أن أؤذيك! أريدك أن تشعر بالراحة.

رفس الأرض حتى انتشر الغبار حولهما، وصاح بأعلى صوت يملكه:

- أنا لست مجنون.. لما لا تصدقين؟ أنا لم أعد مريضًا.. لقد شفيتُ.

- تتوهم، أنت مريض «ياسين» هل تسمع. أنت مريض.. آه أرجوك أنت تؤلمني خفف من ذراعيك علي.

أبعد ذراعيه عنها، وسد بهما أذنه، وصرخ بها:

- توقفي.. لما لا تصدقين.. أنت لا تفهمين! لقد شفيت يوم قتلت من قتل أمي.

سكت.. وسكن الجو حولهما، وصدى الكلمات يملأ أذنيها.. بأبأ عينه يبدو وكأنه كبر للضعف يستشعر ردة فعلها.. فتوقف عقلها، يستوعب الكلام ببطء وتشتت.. هل حاول الانتحار وعقله أخبره أنه قتل من تسبب بقتل والدته.. إنها لا تفهم! هل كذب عليها؟!

تمتم وعيناه ما زالت معلقة بوجهها:

- لقد قضيت سنوات أبحث عن السارق الذي أخطأتُ قتله وقتلت أمي بدلاً عنه حتى وجدته منذ ثلاث سنوات وقتلته وهكذا شُفيت.

وصمت ينظر للصدمة والذعر اللذين يعتريان وجهها.. أما هي فهمست لنفسها لا تبدي أي ردة فعل وتتوسلها بالقول.. أخبرتك قبلًا أنّ أي ما تنطقه شفتاه لا تعيريه أي اهتمام وتجاهليه كأنه لاشيء.. لا تظهري المفاجأة على وجهك، وعامليه كأنه شيء عادي يحصل كل يوم لا تنظري له بذهول أرجوكِ لا تفعلي.. أُزفري ما يعتريك من دهشة.. أخرجيها أرجوك.. أسدلي أهدابك كي تُخفي معالم الصدمة.. وحدثت عينيها التي امتلأت بالدموع.. أرجوك لا تنزلي، أتوسل إليك.. عيناها تحرقانها وهي تكابر.. تحاول رسم اللامبالاة ولكنها تفشل.. قتل! جريمة قتل أخرى!.. سابقًا لم يكن له ذنب أما هذه.. خذلتها عيناها تذرف الدموع تباعًا الواحدة تلو الأخرى وعيناها معلقة بعينه..

ما إن رآها تبكي حتى صرخ بها:

- ماذا! هل تقرفين الآن؟ لا بد أنك تفعلين.

شهقت بعنف وبدأ بكاؤها يعلو وهو يهزها كالمجنون.. فاض بها الوجع:

- قتلته! بأي حق، أخبرني بأي حق؟!

- أوتسألين؟! بحق أنه سلب مني أمي.. أوليس هو السبب بقتل أمي وهو من كان عليه الموت أخبريني أنت بأي حق يعيش هو وقد دمر عائلة بأكملها.

- وماذا عن عائلته هو؟

- أبعث لعائلته مبلغًا من المال شهريًا.. لقد كان سيقتل أمي ماذا كنت تريدين أن أفعل؟.

حدثت نفسها هوني عليك يا «نيار» إنه مريض.. رددتها عدة مرات.. إنه مريض لا يعي ما يفعل أحيانًا.. لا تأخذي على تصرفاته اهدئي وحكمي عقلك وتصرفي بحكمة ما حدث.. حدث.. نحن هنا لنعالج الآتي كي لا يتكرر ما مضي.. إنه مريض تُرفع عنه الحجة.. مسحت وجنتيها وتمتمت لنفسها

قبله :

- لا بأس.. لا بأس.. ما حدث حدث.

نظر لها بتوجس، وهمس بتشتت من تصرفها المناقض لصراخها عليه:

- أنتِ لستِ غاضبة مني؟

ابتسمت بألم وهزت رأسها نفيًا، وهمست مغيرة الموضوع وهي تعلم أنه لن يُجيب:

- أخبرني أين ترى والدتك؟

ولكنها ذهلت عندما سمعته يهمس:

- هناك.

أشار بيده قُبيل مقبرتها.. أمسكت كفه، وذهبت للمكان الذي أشار إليه.. لكنه توقف قبله بخطوات قليلة، فتوقفت هي الأخرى.

- هل تراها كلما تأتي لهنا.. لهذا أنت ترفض الحضور؟

أومأ بخفوت.. فأردفت:

- هل تُخبرك أنها لا تُحب أن تأتي إلى هنا؟

هز رأسه نفيًا.. فتمتمت:

- وإن طلبت منك أن تغمض عينيك؟

أمه؛ دائمًا ما يراها وهو واعٍ.. لكن لمَ هي لا تأتي له وهو نائم! هل هي ترفضه ولم تعد تُحبه أم هو لا يحلم من الأساس؟! إنه حتى لا يعلم إنْ كان يفعل أم لا!.. لمَ دائمًا أفكاره صقيعية التأثير عليه! هل لأنه يُحب الهرب من الواقع.. أم لأنه لا يستطيع الهرب من الواقع طويلًا! تمتم:

- أراها أيضًا لا فارق بين غلق عيني أو فتحها.. ترتدي جلباب أخضر لا يُؤثر تراب الأرض والدماء حولها على نصاعة لونه!

ثم صمت لثوان وعينيه تحيد إنشات قليلة، وأردف:

- أقف جوارها ملابسي ملوثة بدمائها.. أمسك السكين الذي طعنتها به، والدماء تقطر من شفرته.. أمي تنظر لي مبتسمة لكنها لا تكلمني أبدًا.

- أنت تقف بجوارها هنا؟

وأشارت بيدها للمكان الذي ينظر إليه.. أمسك يدها يمنعها وعنفها:

- لا تمدي يدك، لا أريدها أن تلوث بالدماء!

مسحها بعنف في ملابسه حتى احمرت، فهمست تهدأه.. ترفع يدها الأخرى قباله:

- إنها نظيفة.. انظر لا فرق بينهما.. لا تخف.

ترك يدها، وارتخت كتفاه، وهمس بتحشرج:

- أنا متعب وأريد النوم لنرجع للبيت.

ابتسمت له بحب.. قادت هي السيارة والقلق يتآكلها.. هل ستخبر الطبيب أم لا؟! هل تقطع التسجيل؟! لا تعلم حقاً ماعليها فعله.. لكنها خائفة عليه من نفسه وعليها وعلى الجميع.. وصلا للبيت، وصعدا لغرفتهما وهي تسنده ويبدو أن النعاس غلبه وبالكاد يجاريها بخطواتها.. وضعته على الفراش، وأحضرت بوله ممتلئة بالماء وملابس نظيفه له، وبدلت ملابسه.. وبللت قماشة بالماء تمسح بها وجهه وكفيه وقدميه من الأتربة.. وبللت شعره قليلًا ليذهب عنه الغبر.. واغتسلت سريعًا واستلقت بجواره.

"ه.. دِ

تقف «سچور» حائرة لا تعلم إن كانت ستعزم أمرها وتدخل أم لا.. لمَ جاءت بهذا الوقت المبكر عن ميعادها بساعة ونصف.. في المرة الفائتة لم يعمل بها سِوى عينيها.. لقد وجدته حبل نجاة فهل ستكون غبية ولا تُدركه؟.. لقد أعطتها "نيار" دفعة وهي من يجب عليها الاستمرار.. لقد أخبرت والديها بنيتها بارتداء الحجاب وماذا حدث؟.. كأنها لم تقل شيء، لم يظهر عليهما أي رد فعل من الأساس.. لم يباركا لها، فقط قالا «لا زلْت صغيرة عليه»، وعندما ظهر الألم جليًا على وجهها.. قالا "هذه حياتك افعلي ما يحلو لك" ورجعا لحديثهما.. كأنهما بهذه الكلمات جبروا خاطرها! دخلت.. لفتَ انتباهها جلوس بعض الفتيات في حلقات ودوائر تحركت باتجاههنّ، ووقفت فأشارت إحداهنّ لها بالجلوس.. تطلعت حولها باضطراب قبل أن تجلس.. همست التي تجاورها جهة اليمين:

- اسمي "بتول".. وأنت؟

- "سچور".

- يبدو أنك تُشبهينا.

عقدت "سچور" حاجبيها باستغراب.. لا تعلم لمَ جاءت هنا من الأساس؟.. بررت «بتول»:

- أقصد أننا حديثا العهد بالإسلام.. لقد كُنت مسيحية.. وأنتِ؟

تيبس وجهها.. بالكاد أخبرتها أنها ولدت مسلمة.. فقالت الأخرى بحيرة:

- آسفة لكن مظهرك لا يدل.. ملابسك تختلف عمن هنا.. ترتدين الوشاح بعشوائية .. شعرك ظاهر بأكمله.. حذاؤك يصل لركبتيك.. لذا اختلط علي الأمر.

نظرت لها "سچور" بغيظ، تنشجت أعصابها، وقالت بجمود:

- لكنك مثلي.. لا أراك تختلفين عني كثيرًا!

تغضنت ملامح «بتول»، وتآكلها القهر من فكرة المقارنة، وتمتمت

بغضب:

- أنا لست مثلك أبدًا لقد أسلمت من أيام قليلة.. أما أنت فتحملين الخطأ منذ سنوات.. وأراك لازلتِ.. لست مثلك! إن علم والدي بإسلامي سيقتلني بلا ريب.

قاطعتها» سچور» فلا قدرة لها لتتحمل تأنيبًا من أحد.. يكفي تأنيب قلبها هذه الأيام:

- أنت خلقت على غير دين.. وأنا والداي لم يعلماني شيئًا عن ديني!

أخرجت "بتول" كبتها وحزنها، وقد أشعرتها هذه الفتاة بالانزعاج والضيق.. ألا يكفي ما تمتلكه من هم؟!

- لقد كبرت على كُره هذا الدين أما أنت كان بإمكانك تعلمه.. قطعًا لا أُشبهك! أنا مخطوبة لابن عمي منذ عام وهو معي بالجامعة.. غيرت ملابسي قليلًا.. إنه يشك بي من تغير معاملتي له، وإنْ رآني بالحجاب سيتأكد ويخبر أهلي، وحينها سأكون في عداد الموتى.. لا أملك ما أعيل به نفسي.. لذا أدعو الله أن يمر هذا العام بسلام، وأُنهي جامعتي وأهرب.. حياتي صعبة وستكون أصعب.. لست من هذه المدينة.. أموت فزعًا أثناء زيارتي لأهلي حين يأتي موعد الصلاة؛ أُغلق الباب على نفسي وأُسرع في أدائها كي لا يعرف أحد.. أحيانًا كنت أذهب لإحدى صديقاتي بحجة الدراسة، وأُصلي بأريحية.. هل تعلمين ما معنى أن تكوني مخطوبة لشخص لا تحلين له ومع هذا تتعاملين معه يوميًا خوفًا. أن تعيشي والخوف يفتك بك لأنك علي حق!. أنت كبيرة تفرقين بين الصواب والخطأ، وتمتلكين الحق بعصيانهما فيما لا يرضي الله، أوليس هذا ديننا؟! هل سيؤذيك أو يضربك والدك إن ارتديته؟!

صمتت «سچور»، لم تستطع حتى الرد بكلمة! هزت رأسها نفيًا.. أخفضته أرضًا.. هل عيناها مشوهة.. لهذا هي ترى الحياة مشوهة.. أم أنّ الحياة حقًا مشوهة؟! أم أنّ التشوهة نابع من داخلها هي؟! ازداد شحوب وجهها وكلمات «بتول» تُبعثر شتاتها، ولا قدرة لديها على لملمتها.. أجبرت نفسها على ارتداء قناع الاسترخاء، وهمست:

- أنت لا تعرفين عني شيئًا.. لمَ تعاملينني بهذا الشكل؟.. سأرتديه لقد حددت يومًا.

- حددت يومًا! أنت لا تمتلكين هذا الحق! وكأن الحياة تنتظر! ماذا سيحدث إن فارقت الحياة؟ ستُخبرين رب العباد أنك كنت قد حددت يومًا! هل تعلمين هذا الرفض نابع منك أنت؟.. ولهذا أنا لا أشبهك. ألا تعلمين أنّ الحج يسقط عمن لا يستطيع والزكاة كذلك والصوم أيضا مع البديل.. حتى الصلاة تُخفف لمن لا يقدر.. لا أستطيع ارتداءه هذه الفترة.. أما أنت..

وصمتت تنظر لوجهها المنكس، بدأ الجميع يُعنفها على كلامها القاسي للفتاة، فزفرت بضيق من نفسها ولسانها الذي انفلت، اعتذرت:

- أسفة، أنا أتحدث كأني أُوجه الكلام لنفسي، حقًا آسفة.. أشعر بالاختناق لدرجة لا تُحتمل لأني لا أستطيع أن أُؤدي فروضي على حق.. لا تشعري بالسوء.. فلست أفضل منك! أشعر بالزهو؛ لأني منكم.. فخورة لدرجة لا تُوصف.. لقد كنت عبارة عن شيء، وأصبحت إنسانة، وكأني فجأة أمتلك عقلًا وقلبًا بعد سنين من الفراغ.. ماذا كنت أفرق عمن يعبدون الأصنام؟! نعبد بشراً مثلنا، وله تماثيل بالكنيسة! إنه شيء مُخيف ما كنت فيه! آسفة أتحدث بلا توقف.. هذه أول مرة أراك وتحدثتُ معك بفظاظة!

جاهدت «سچور» لرسم ابتسامة على فمها.. لكنها خرجت باهتة كصاحبتها:

- لا عليك، فأنت لم تُخطئي بشيء، ولكن أخبريني كيف أصبحت هنا؟

تشكل على فم الأخرى ابتسامة مبهجة تنم عن الامتنان:

- صُدفة؛ إحدى صديقاتي المسلمات كانت تقضي وقت الفراغ هنا بالمعهد، فهو قريب من الجامعة، وهكذا قررت ذات مرة أن أُصاحبها ومن وقتها أتردد إلى هنا كثيراً.. وثلاث شهور وأسلمت.

ناظرتها بذهول.. عقلها يتمتم.. ثلاث شهور فقط!

أردفت «بتول» وهي تلمح نظرات الدهشة على وجه «سچور»:

- ولم الاستغراب بل إني أظنه وقت كبير! ربما لو لم أكن خائفة لكنت

أبكـرتُ.

تشـتت تفكـير «سـچور»، وهمسـت بسرهـا بسـخرية «يبـدو أنهـا تعلمـت بثـلاث شـهور أكـثر مـما تعلمـتُ بسـنوات عمـري" لكـنّ "بتـول" سـمعتها، فقالـت:

- مـا زال أمامـك الفرصـة، كلـما كان بـك نفـس يدخـل ويخـرج تعلمـي شـيئا يرفعك.

وقفت «سچور» لتغادر، وقبل أن تفعل همست:

- شكراً.. هل تسمحين لي بطلب؟

أشارت «بتول» بيدها لتتكلم.. فأردفت:

- هـلا دعـوتِ لي فأنـت تقريبًـا بـلا ذنـوب.. أنـت تعلمـين الإسـلام يجـب مـا قبله.

هي بلا ذنوب، حاشا والله أبدًا.. همست تمنحها دافعًا:

- والتائب عن الذنب كمن لا ذنب له.

لم تتحـرك «سـچور» خطـوة حتـى وجـدت «نيـار» أمامهـا.. ويبـدو أنهـا سـمعت الحـوار.. فقالـت وأنفاسـها تخـرج بمشـقة:

- ماذا أفعل؟

ابتسمت لها "نيار" بهدوء، وقالت:

- ذكرتنـي برجـل قصـد موعظـة.. فذهـب للإمـام «إبراهيـم ابن أدهـم» قال الرجـل "كلـما أردت أن أتـوب مـن ذنبـي عـدت لـه مـرة أخـرى".. فـرد عليـه الإمـام قائـلًا «عنـدي لـك خمسـة أمـور، إن نفـع الأول فبهـا ونعمـة وإن لم ينفـع لـك فالثـاني، الثالـث حتـى الخامـس، الأول إن أردت أن تعـصي اللـه فاعصيـه في ملـك غـير ملكـه، الثـاني إن أردت أن تعـصي اللـه فـلا تـأكل مـن رزق اللـه.. كيف تتجـرأ؟ أتـأكل مـن رزقـه ثـم تعصيـه؟ الثالـث، إن أردت أن تعـصي اللـه فاعصيـه في مـكانٍ لا يـراك اللـه فيـه، الرابـع، إن أردت أن تعـصي اللـه وجـاءك ملـك المـوت فقـل لـه «أخـرني حتـى أتـوب» الخامـس، إن أردت أن تعـصي اللـه، وحُـشرت بين يديـه يـوم القيامـة، وسـألك اللـه عـز وجـل» عبـدي لمَ عصيتنـي؟".. قـل «أنـا لم

أعصك يا رب».. فقال الرجل أخيراً «عجبًا أأكون كذابًا في الدنيا، وأكذب على الله في الأخرة! أُشهد الله أني قد تبت إليه توبة نصوحًا»

لم تتوقف "سچور" عن ترديد.. ماذا أفعل؟ ألم تسمع ما قالته «نيار»! وبماذا تريد منها أن تُجيب؟! فهي تعلم الحل.. فالأمر بيدها هي لا أحد آخر.. فنحن نخط حياتنا بقلم رصاص لا بقلم جاف حتى نستطيع تغيير خطايانا.. الحسنة تمحو السيئة.. التوبة النصوحة تحل محل الممحاة فتزيل خطايانا.. وصحيح هي تُمحى فلم يعد بالإمكان رؤيتها.. لكنها لا تُزال من الذاكرة حتى نستغفر لها من وقت لآخر.. تنهدت بقوة، وقالت مقترحة:

- صلي صلاة الضحى، وحافظي عليها.. هذه الصلاة للأوابين والأواب هو الذي كلما عصا الله رجع إليه وتاب.. صلي ليلًا، وادعي بكل سجدة لعلك تجدين راحتك.

قاطعتها:

- أنا لست ممن يُجيدون الصلاة يا «نيار» بالكاد أُصلي فروضي وصلاة الليل هذه ليست لأي شخص إنها لمن يستحقها إنها للخاشعة قلوبهم.

- كوني منهم إذًا.. صلي ركعتين، ركعتين حتى ترضين عن صلاتك، ولا تتوقفي حتى إن وصلت للركعة المئة حتى لو صليت الليل كله، وكرريها كل يوم حتى تَصلي للخشوع، ثم داومي ولو على ركعتين.. أعلم أنه صعب.. لكن أصدقي النية، وستأتي النتيجة.. ادعي لك ولغيرك.. ادعي لمن تقع عليهم عيناك بالشارع.. تصدقي أنت تعملين تصدقي بمالك لمن تعرفيه ولمن لا تعرفيه.

- لا أعرف ومن أعرفهم لا أظنهم بحاجة.

- وما أدراك أنهم ليسوا بحاجة.. ملابسهم لا تدل، منازلهم لا تدل، إنها فقط مظاهر كثيرون حولنا في أجمل مظهر وفي أمس الحاجة.

- حتى وإن كانوا بحاجة إنه شيء مخجل لي ولهم.

نظرت لها "نيار" بعبوس.. ما كل هذا العند؟! كلما قالت شيئًا تعاندها بآخر:

- مُخجل! حسنًا إذًا، اذهبي بزيارة لهم، وجهزي معك النقود، واتركيها ببيتهم بمكان يسهل رُؤيته.. وافعلي هذا أيضًا مع الفقراء.. لا تضعي له المال بيده أبدًا، اجعليه مستترًا ضعيه بظرف ما وضعي ورقة مع النقود، اطلبي منهم أن يدعو لك بأن تنالي رضا الله أو أي شيء تُريدين.. ابتسمي بوجوههم أشعريهم أنه حقهم.. اجعليه شيئًا بينك وبين الله.. لا تُخبري به أحد، ولا تُخبريني أنك فعلت ما طلبته منك، ولا تسأليني إن كنت أفعله أم لا.. وإن لم تستطيعي تصدقي بالذكر.. كدت أنسى مبارك لك.. لقد أخبرني أخي بقرارك.

كسا الحزن وجه «سچور» فجأة.. فقالت «نيار» بحيرة:

- ماذا حدث لهذه التعابير؟

لقد كانت "سچور" سترتديه لأجل «عمار».. لكن الآن تُريد ارتداءه لأجل نفسها.. لقد خُلق البشر مخيرين، وهي لا تُريد أن تُسيء الاختيار بعد اليوم.. تستحق بعد كل هذا التخبط والتيه أن تجد طريقها الخاص.

- يبدو أن الفتاة أثرت عليك بكلامها.

- لقد أوضحت لي بعض الأمور فقط.

- مثل ماذا؟

- مثل أني لا أستحق لقب مُسلمة!

ثم تركتْ «نيار»، وغادرت لدورة المياة.. تُحاول لملمة شعرها وإخفاءه تحت الوشاح.. غادرت دون أن تحضر الدرس.. تمشي على قدميها، تمسك بزمام الوشاح؛ خشية أن ينفك.. هي ترتديه الآن فلمَ لا تذهب لشراء ما يناسبه من ملابس؟.. غريب لقد كانت تملك الخيار، ولم تختر نجاتها!.. أي غباء استوطن عقلها؟! كيف تخسرُ ما هو باقٍ لأجل فُتاتٍ زائل؟.. دُنيا لن تتذكرها من الأساس بالآخرة.. سعيدة بل فخورة؛ لأنها تُطيع خالقها.. حياتُها كانت باهتة، ويبدو أنها الآن ستبدأ بالزهو.

”إ

عـادت «نيـار» للمنـزل وبصحبتهـا الشـيخ الذي اتفقـت معـه أن يتحدث مع «ياسـين» بشـأن والدتـه.. دخـل الشـيخ الردهـة، وصعـدت تنـادي «ياسـين».. قال حـين رآها:

- لقد تأخرتِ؟

-"ياسـين" هنـاك مسـجد قريب مـن هنا مـازال في مرحلـة البنـاء، ويحتاجون تبرعـات لـه، ولقـد وجدتهـا فرصة لنتصـدق لوالدتـك.. وأحضرت الشـيخ معي.

ناظرهـا "ياسـين" بهـدوء خـادع.. واحتـل صمـت غـير مريـح المـكان.. حتـى قطعه :

- انتظري هنا.. سأدخل له.

تبعتـه وراقبتـه بتوجـس وهـو يدخـل، ويُغلـق البـاب خلفـه.. وقفـت وراء البـاب علهـا تسـمع شـيئًا.. بالداخـل أخـرج "ياسـين" مبلغًـا مـن المـال، ووضعـه أمـام الشـيخ وهـمّ بالمغـادرة .. اسـتوقفه الشـيخ:

- ما اسم والدتك كي ندعو لها.

تمتم بسخرية:

- ألم تخبرك زوجتي؟

- ولمَ هذه النبرة؟ اجلس قليلًا يا بني.

أمسـك الشـيخ يـده بإحـكام يمنعـه المغـادرة.. حـاول «ياسـين» إفلاتُهـا عبثًـا، فبـدأت أعصابـه تنفلـت مـن عِقالهـا، فقـال بهيـاج:

- اترك يدي! ماذا أخبرتك زوجتي؟!

- هـدأ مـن روعـك بنـي، لم تُخـبرني إلا كل خـير.. لمـا لا تجلـس لنتكلـم قليـلًا، وأدعـو لوالدتـك، وتؤمـن ورائي.

بالخارج ترتجف "نيار" من صوته العالي.. دخلت لتهدئته..

- "ياسين" ما بك؟ إنه بمنزلنا.. لا تتواقح معه.

لكنهـا هـي الأخـرى لم تسـلم مـن صُراخـه.. تحـرك "ياسـين" يحاول إمسـاكها، لكـن الشـيخ منعـه بيـده الأخـرى، فـصرخ يتلـوى كالثـور الهائـج، ودفع بالشـيخ

أرضًا:

- أخبريني ماذا أخبرتيه.. انطقي.

ردت بجمود:

- كل شيء.

- كل شيء! كيف فعلتها؟! من سمح لك؟ دائما تُفتشين هنا وهناك، ماذا تريدين؟ طبيب وذهبت.. إجبار لكل ما أفعله بحياتي.. أفعل كل شيء كي لا تتركيني، وأنت ماذا تفعلين؟! أنت أنانية وسادية، تسعدين برؤيتي أُعاني!

كما يرى أنه يفعل ما يفعله لأجلها! فهي أيضًا تفعل ما تفعله من أجله هو لا غير.. تفعله كي لا تفقده شيئًا فشيئًا، وهو يجاورها!

- أنا سادية! وماذا عنك أنت ها؟ أخبرني كيف تنام بهناء منذ قتلت هذا الشخص؟!

ينام بهناء! ظل يردد هذه الكلمة آلاف المرات، ولم يتعرف عليها عقله.. لقد اختفت، بل يبدو أنه لم يلتقيها من الأساس.. لقد ولت أيام النوم بهناء.. هل يحمل بداخله شيطانًا؟ أم أن أصل الشيطان يمكن به؟ هل لهذا السبب كتب عليه الشقاء الأبدي؟ هل خطيئته لا تُغتفر كخطيئة إبليس؟ ألا سبيل للعفو عنه؟

- لكني، لا أنام منذ قتلت أمي»

سرت ببدن «نيار» قشعريرة هزتها بقوة، فأغمضت عينيها برهبة.. ضاق عقلها، ولا تعلم ماذا بإمكانها أن تفعل أكثر؟.

***

بعد أن غادر الشيخ.. أمسك «ياسين» ب-"نيار" يجرها للأعلى حتى وصل لغرفتهما، وصرخ بجنون:

- تأتين لي بشيخ، وكأن شيطانًا يتلبسني!

- مرضك يتربص بك إذًا لا فرق كثير بينهما!

راقبته "نيار" وهو يتحرك للباب.. سبقته.. وأغلقته بالمفتاح، ثم مررته من تحته، وهتفت:

- إلى أين؟ لن تتركني وتذهب ككل مرة!

أيـن ذهـب المفتـاح اللعـين؟.. لا يعلـم.. مـا يعلمـه أنـه غاضـب.. ويحـاول كـسر البـاب لكنـه لا يُكـسر، وهـي مازالـت تـصرخ بـه ألا يتركهـا فدفعهـا بعيـدًا عنـه، واتجـه للنافـذة يعـزم عـلى القفـز منهـا.. لكنـه توقـف وشـعور بالخـوف يتلبسـه عندمـا لم تعـترض طريقـه وصوتهـا توقـف.. وقـف جامـد يخـاف حتـى أن يُعيـد نظـره إليهـا.. بالـكاد أمـال رأسـه.. وجدهـا مُلقـاه عـلى الأرض وبُقعـة مـن الدمـاء تتسـع شـيئًا فشـيئًا تشـكلت عـلى حجابهـا.. صـوت مـن بعيـد يُناديـه كي يتحـرك لهـا، لكنـه جامـد، ولم يُخرجـه مـن سـكونه إلا رنـين هاتفهـا.. تحـرك بخُطـوات ثقيلـة، وجلـس جوارهـا، وبـدأ يُناديهـا وهـي لا تتحـرك.. أزال حجابهـا، أدخـل يـده بخصـلات شـعرها يبحـث عـن الجـرح، وبـدأ يضغـط عليه، ثـم حملهـا وهويـصرخ « لا.. لا" كـسر البـاب بسـاقه.. وضعهـا بحـذر بالسـيارة، وبأقـصي سرعـة كان قـد وصـل المشـفى، وحالـه يضـج بالأسـف.. البـرودة تحتلـه مـن فـرط الذعـر والذهـول المتنامـي مـن فقدانهـا!

تتجـه "سـجور" لتدريبهـا بحلتهـا الجديـدة، ملابسـها تبـدو غريبة عليهـا، ما زالـت ترتـدي بنطـالًا.. لكـن قميصهـا يُسـابق ركبتيهـا، واسـع بعـض الـشيء رُبمـا ليـس المطلـوب، ولكنـه يبقـى أسـاس يُبنـى عليـه.. سـعيدة بـأول مُقتنياتهـا.. لم يرهـا والديهـا، ولم تذهـب للبيـت بعـد ولا تهتـم لرأيهـما حتـى.. كأنهـا كانـت بركـة ضحلـة، ويـد القـدر كانت رحيمـة بهـا.. ودلتها على طريـق النقـاء.. دخلت بهدوء.

أول مـن رأتهـا «وجـد» أقـرب زميلـة لهـا هنـا.. نظـرت لهـا باسـتغراب، وهمسـت:

- لوهلة لم أعرفك!

أشـارت لبقيـة الفتيـات فجـئنّ جميعًا، وبـدأن يتهاتفـن عليها ليباركـن.. بينما نظـر الشـباب لهـذا التجمـع والأصـوات العاليـة باسـتغراب، فتحركـوا ناحيتهـنّ، ومـا إن اسـتوعب «عـمار» المنظـر حتـى أخـذ يدهـا يجرهـا بعيـدًا كي يسـتطيعا التحـدث.. وهمـس:

- منذ متى؟ لقد كنت معك البارحة..

قاطعته مازحة:

- هل كنت تريد الثواب لك وحدك؟! لقد حدث اليوم.. أدينُ به لنفسي.

ثم نظرت له، وهو يلتقط هاتفه.. هل ينوي التقاط صورة لها؟! فأردفت باستغراب..

- ماذا تفعل؟

- أطلب كعكًا للاحتفال.

لكنه توقف عندما وصلت له رسالة من «فرح».. "تعالى وخُذ شقيقتك إنها تحتاج عناية حتى تلد، ولا أظنها ستجدها هنا".

هل الخسارة بموت من نحب؟ أم أنها أن نذنب بحقهم فيفارقونا فراق الأموات وهم على قيد الحياة؟! أي خسارة أهون؟!

يسمع صوته يشمت، ويقول.. الخسارة ليست خسارة الفراق بل خسارة الذنب!

منذ عاد من المشفى وهو ساكن يناظرها نائمة بهدوء مريب، غريب.. أشبه بالخوف والكره للذات.. سكون يشبه سكون موت أمه، ولو أبكر بقدومه لكان خسرها حقًا بلا رجعة؟ ابتسامة بلهاء عبرت لشفتيه بلا خروج.. لو كان تأخر بقدومه كاليوم لكانت أمه حية ترزق.. كفه لا تتزحزح من فوق شفتيها، يتلمس أنفاسها بين أصابعه.. يطمئن ويطمئن روحه.. نظره معلق بحجم الشاش الذي يلف رأسها.. كبير هو! كذنوبه التي تتفاقم يومًا بعد يوم..

ألم يخبرها قبلًا أنه لن يؤذيها قط.. فكيف فعلها؟! ماذا سيخبرها عندما تفيق؟ آسف، هذه الكلمة بلا قيمة.. وماذا بعد الأسف؟! إنه صفر بلا رفيق.. ليت الأسف يجلب النسيان!

ترى كيف ستسامحه بل كيف سيسامح نفسه؟!

استيقظت "نيار" والرُؤية مشوشة أمامها تُحاول التحرك، ولكنها تجد صعوبة.. "ياسين" يحتضن رأسها بحنو، يتمتم بصوت مضطرب «أنت بخير! أنت بخير!" همست باسمه كي يبتعد عنها، ولكنه يبدو أنه لا يسمعها.. رفعت صوتها حتى أبعد نفسه عنها، وهمس:

- هل أنت بخير؟ أنا آسف.. أنت بخير أليس كذلك؟ هل تشعرين بتعب؟

رفعت كفها تمسح وجنته.. وهمست:

- إلى أين كنت ستذهب؟

- لا أعلم.. كنت غاضبًا.

تعلم "نيار" أنه يكذب.. ولن يُخبرها بشيء.. لكن لا ضرر من أن تسأل.. قالت:

- هل تؤذي نفسك؟

الصمت، الصمت.. هو الإجابة المستفزة التي تتلقاها منه.. يجعل غضبها يصل للذروة.. وإن كان غضبها يصل لذروته فكيف غضبه هو؟ بالتأكيد يتعدى الذروة بمراحل.. زفرت بحدة وتمتمت:

- اليوم موعد جلستك.. كم الساعة؟ هل تأخرنا؟

قبل أن يرد اقتحم «عمار» الغرفة.. ونظر بذهول للشاش الذي يربط رأس «نيار".. لم يتمالك نفسه، وانهال على «ياسين» بالضرب.. يُلقي عليه حفنة من الشتائم.. حتى شعر بشقيقته تُلقي بنفسها بينهما، وتتوسله:

- توقف يا "عمار" أرجوك.

- ستجمعين ثيابك، وتأتين معي حالًا بلا نقاش.

- اسمعني فقط.

- أسمع! وهل هناك وقت للسماع إن لم تأتِ بإرادتك ستأتين قسرًا.. لن تبقي يوم آخر مع هذا الشيء، مُستحيل.. لن أنتظر حتى يؤذيك أكثر!

- أنت قُلتها إنه شيء، عامله وكأنه بلا عقل.. لم يضربني ولن يفعل.. لقد كان حادثًا.. لقد استفززته وكان فقط يُحاول إبعادي عن طريقه، لم يكن بقصده.

- تثقين بهذا الشيء! وإن تكرر الأمر سيكون هذا ردك، وكلما تكرر الأمر سيكون بلا قصد!

- إنه زوجي لا تُهينه.. هل تظن أنه لا يقدر على رد ضربك له، إنه يستطيع وأكثر، ولكنه لا يفعل.. لأنك شقيقي ويعلم ما تعنيه لي، وإن فعل يعلم أني سأتركه بلا تردد.. إنه يُؤذي نفسه بنفسه، فليس هناك حاجة لتأتي أنت الآخر وتُكمل عليه.. أنا بخير لا تقلق.. اذهب لسيارتك وسآتي لك.

خرج بلا صوت بينما هي اتجهت للحمام تجلب قطنًا، وعادت تمسح وجهه برفق، حاولت أن تُنهضه لكنه احتضنها، وهمس برجاء:

- لا تذهبي .. لا تتركيني.

يجلس "عمار" بالسيارة يغلي ودماؤه فائرة بأوردته مما يحدث، وهي لا تُبالي بشيء غير زوجها المعتوه! وجدها تفتح الباب، وتجلس بهدوء تناوله عصيرًا ما.. قالت:

- اشربه إنه بارد، وسيُهدؤك.

- هل تمزحين معي الآن؟ أنا أبذل جهدًا لهذا النقاش.. كيف تعيشين تحت سقفٍ واحد مع هذا الشخص؟! زواجك به وقُلت أنها ربما اعتراها الفضول لتُجرب.. فترة وستمل.. حكمي عقلك قليلًا، وستجدين أنك تُهدرين وقتك وحياتك معه ولكن الآن أنت تحملين جنينًا ورأسك مصابة بسببه، وتقولين أنه بلا قصد بالله عليك إن مت على يده ستكون إجابتك بلا قصد.. متى ستُجهضين هذا الطفل الوقت يمر؟!

تركته "نيار" يُفرغ غضبه، ولم ترد.. ماذا سيفعل إن علم أنها تنوي إنجاب الطفل؟! تُهدر حياتها معه! لمَ؟ أوليس هناك أمل له تخاف منه؟! إنها ترتعب تموت جزعًا منه، تستفزه بالكلام بثبات ظاهري وهي ترتجف من الداخل.

الألم الذي مس ملامح شقيقته بضراوة.. هو ما أطفأ لهيب غضبه المستعر.. قال:

- أنت صامته.. عيناك تقول أنك باقية.. ألهذه الدرجة يا «نيار»!

استشعرت "نيار" الاستغراب بصوته ولمَ؟ إنه زوجها ألا يحق لها أن تحبه؟

- لم يكن علىك ضربه بشدة.. إنه من الأساس مُتمسك أنه شخص سيء!

تمتم "عمار" بسره بتكهم وعينيه يتملكها السخرية "حقًا جيد يعرف قدر نفسه".

رن هاتفه، فاستأذنت «نيار»، وغادرت.. وأجاب هو:

- مرحبًا «سچور».. لا شيء لقد كانت أختي متعبة وجئت لأطمئن.. لا إنها بخير لا تقلقي.. حسنًا، أنا قادم.

يرقد جسد «ياسين» جوار قبر والدته بلا حراك إثر المخدر الذي وضعته له «نيار» تبعًا لأوامر الطبيب قبل أن يأتي به إلى هنا.. حين استيقظ دبّ الفزع بقلبه.. كلما حاول التزحزح قليلًا بجسده بعيدًا.. يعيده الطبيب لمكانه.

بالنهاية قرر أن يواجه الأمر.. لكن ضجيج لا يُحتمل يصم أذنيه، ويملأ عقله.. ولا مخرج للنفاذ غير الصراخ.. مع أنه يرى والدته تقف ثابتة، دون تحرك.. يبتلعه الجزع إن فكر أنه ممكن أن يقترب منها، أن يلمسها دون قصد.. ومع أن والدته تبتسم.. لا يستطيع رؤيتها إلا ووجهها ملوث بالدماء.. رؤيتها تلتهم عتمة عينه، وتحولها لنور؛ فيغشاه العمى ويُحاوطه.. حتى صفعات «عمر» لا تقدر على إسكاته؛ فقرر تقييد يديه بقدميه، وتمتم:

- استرخي، وتوقف عن الصراخ كي لا تؤذي نفسك.

لكن «ياسين» يردد بلا توقف:

- أبعدني من هنا.

- هل ترى والدتك دائمًا على نفس الحالة ونفس المكان هنا لا تتحرك؟ إن لم ترد سألصقك بقبرها.. لا أمزح هيا أجب.

صرخ «ياسين»، وهو يبدو كالكتكوت المبلل:

- نعم هو نفس الشيء.. أرجوك لا أريد الاقتراب.

- وأنت أيضاً على نفس الحالة؟ بالمناسبة أين أنت الآن؟

الابتعاد عن هنا هو أقصى أمانيه الآن.. أغمض عينيه بأمل أحمق أن يمنع الرؤية عنه.. لكنه بلا فائدة.. فهو يرى.. أدار رأسه باتجاه آخر.. وجسده يختض بعنف.. وكف الطبيب تُحاول تثبيته بتشتت.. وكل ما استطاع صُنعه هو الصراخ بأقصى ما يمتلك من صوت:

- أرجوك لا أريد النظر.. أنا أخاف.

- تخاف امم.. هل حضرت جنازة والدتك؟

- لا.. أبعدني من هنا يا هذا.

- بالمناسبة أين زوجتك؟ إنها لا تُفوت الجلسات لأي سبب! لقد اتصلتُ بها، وأخبرتني أنك أوقعتها بالخطأ، أحقًا فعلت أم أنك أردت أذيتها؟! بالتأكيد حَزنت عليها لكن إلى متى بقي شعور الحزن؟.. بطريقة أخرى متى برز شعورك بالسعادة لإصابتها؟

ضعفت قدرته على الحركة، وثقل رأسه، لكنه يُقاوم ويهز رأسه بعنف رافضًا كلامه.

- لا تنكر سعادتك.. أنت تراها تستحق ما حدث لها.. ألا تأتيك أوقات تريد فيها أذيتها؟!

أيكون ولدًا شيطانًا؟ ولهذا تنفر منه روح أمه ولا تريده.. أم أن السبب بسيط وتنفر منه؛ لأنه المسؤول عن موتها؟ أتشم به رائحة دمها؟! ولهذا تظهر له كي تحتمي منه؟ هل تظن أنه يذهب ليؤذيها؟ وإن كانت ألم يكن من السهل عليها أن تحضر بمنامه وتخبره أو تقبض روحه أيهما أقرب؟ ترى ماذا يمكن أن يقول لها لو أتيحت له الفرصة ليتحدث معها؟.. أسيخبرها بأسفه أم ندمه.. أم رغبته بأن يفتح قبرها وأن يدخله حي ويغلقه عليه علّ ظلمته أن تريحه من عذابه؟!

منذ كان صغيراً وهو يحب الظلمة والوحدة.. ما باله يذعر كلما اقترب منهما الآن؟

أسيرتاح إن نام نومة لا قيام منها ويرتاح من تفكيره وعقله المتشعب أم أن مصيره جهنم!

يتساءل لمَ يكاد يفقد عقله من الخوف؟ وبرفقة "نيار" تنحى الخوف من أمه جانبًا بعد دقائق؟ أم أن خوفه على "نيار" كان أقوى؛ فتلاشى خوفه من أمه يومها.. هذا هو التفسير الوحيد.. لحظة ترجل من السيارة، ولمحها بهيئتها البائسة.. وقع قلبه تحت قدميه.. كانت تبدو كخرقة للمسح وسخة رماها صاحبها بعد أن اكتشف أنها غير صالحة للغسيل والاستعمال مرة أخرى، كانت شاحبة كالأموات.. وشقيقته الغبية وحديثها معه جعله يتفوه بشيء لم يكن من المفترض أن تعلم به مطلقًا.. أتكون أخبرت الطبيب ولهذا هو يعاقبه بهذه الطريقة الوحشية؟

بينه وبين الألم ثأر كبير وهو ضعيف لا يقدر على أخذ حقه منه.. وما يحدث مُغاير للعدل.. ويبدو أنّ للحياة ثأرًا أكبر قديم لا يعرفه.. وهي تسترجعه ببراعة منه.. بشتى أنواع العذاب.. ألا يكفي ما حدث له؟! يريد أن يمنع أذنه من السماع لكن يديه لا تُطاوعه.. فلا يجد غير الصراخ:

- أنا لا أريد سماعك.. توقف.. أنا أخاف عليها.

- أخبرني لماذا لم تذهب مع والدتك المشفي؟

***

أوشكت "نيار" على النوم حين رن هاتفها.. أخبرها الطبيب أن تنزل للأسفل.. فتحت الباب وجدته يستند على سيارته، اتجهت إليه مباشرة وبصرها موجه على "ياسين» بالسيارة كالمغشى عليه.. قال الطبيب قبل أن تسأل:

- لا تقلقي إنه بخير.. لقد أجهد نفسه، وتأثرت نفسيته، ولم يتوقف عن الصُراخ حتى جاء من يحرس القبور وطردنا.. إنه نائم الآن.. ساعديني لأدخله.

فتح باب السيارة، وأخرجه بحذر، وساعدته «نيار» حتى وضعه على كتفه، وألقاه على إحدى الأرائك بالردهة.. ووقف ينهت.. قالت «نيار»:

- إنه يئن هل يشعر بألم ما؟

- أخبرتك أنه بخير.. امسحي وجهه ويديه وساقيه ببعض الماء.. لا تتركيه نائمًا أجبريه على الحركة، ولا تدعيه يصمت تكلمي بأي شيء ويا حبذا لو

عـن والدته.

- ماذا فعلت بشأن التسجيلات التي أرسلتها لك؟

- قصـدك بشـأن الشـخص الـذي قتلـه.. اتـركي كل شيء لوقتـه، ولا تشـغلي بالـك.

وتركهـا وغـادر دون أن يُجيـب بوضـوح.. ذهبـت لتُحـضر المـاء، وتفعـل كـما طُلـب منهـا.. و«ياسـين» يُتمتـم بـكلام غـير مفهـوم إذ يبدو لهـا أنـه يربط نصف كلمـة، ويشـبكها بنصـف كلمـة أخرى.

اسـتيقظ «ياسـين»، وحـرك رأسـه يمينًـا ويسـارًا بصعوبـة يسـتوعب مكانـه.. وجـد «نيـار» نائمـة عـلى الأرض بشـكل مـزري.. ناداهـا بصـوت عـالٍ، وهو مـازال يشـعر بتعـب في جسـده.. انتفضـت عـلى صوتـه، ووقفـت تلتقـط أنفاسـها.. ثـم أبعـدت عنـه الغطـاء تُعـدل مـن وضعـه حتى يجلـس.. أمسـكت بيـده وضربتها بخفـة.. ثـم قالت:

- ألا تشعر بشيء؟

أجـاب بالنفـي.. فقطبـت جبينهـا بحـيرة.. لا بـد أنّ السـبب نفـسي كـما قـال «عمـر»، وضعـت نفسـها تحـت ذراعـه الأيسر تسـنده بيـد واليـد الأخـرى تُحاول تحريـك سـاقه مـع كل خطـوة.. حتـى وضعتـه بالفـراش، ووقفـت تلهـث مـن ثقلـه والمجهـود الـذي بذلتـه.

تشنج وجهه من الألم، واحتدت نبراته، وقال:

- لقد تعبت يا وردة! لقد تعبت.. أنا أكره الطبيب لم أعد أريد.

قالهـا، وانفجـر بالبـكاء.. تعلـم أنـه يعـاني كيـف لا وهـي تُعـاني معـه، ولم تلـقَ عـشر معاناتـه! حاولـت التخفيـف عنـه، تقـترب منه لكنـه أبعدها بجفـاء.. ونشـيجه يعلـو.. ويدمـر أعصابهـا.. جلسـت لا تعرف ما تفعـل، فقـررت أن تتركه وحـده، وتحركـت لتُغـادر لكنـه شـدها لحضنـه يعتصرهـا بذراعيه، يبـكي بحرقة، وغـزارة الدمـوع تبلـل أعـلى ملابسـها.. فهمسـت بكلـمات تهـدأ من روعـه لكنها بـلا فائـدة.. وعندمـا يئسـت مـن عـدم قدرتهـا عـلى إسـكاته، همسـت باسـمه لمـرات عـدة حتـى اسـتجاب لهـا.. فسـألته:

- ماذا تُمثل لك الحياة؟

علت علامات الاستغراب وجهه.. ولم يرد.. فأردفت:

- ولمَ هـذه الحـيرة؟! لسـنا بامتحـان فكل الإجابات صحيحـة وإن كانت تحمل الخطـأ.. ولكـن مـا أعرفـه أن لـكل إنسـان إجابة مختلفـة، وبالنسـبة لي أن أحياها بـإرادتي.. وبـم أنـك لم تـرد عليـه سأسـأل غـيره.. ما هو أهـم شيء يمتلكه الإنسـان؟

سـمعته يُتمتـم «القلب»، فكتمت ضحكها بكتفيـه، فلم يخـرج إلا اهتزازها، وهمست:

- أنا لا أسأل عن الأعضاء، أسأل عن شيء غير ملموس.

أشار بيديه بلا علم.. فأردفت:

- سـلوكه.. ببسـاطة إن كنـت تحمـل سـلوكيات جيـدة فأنـت تسـتحق لقب إنسـان، وإن كنـت تحمـل سـلوكيات سـيئة فأنـت فـارغ الـروح والحيـاة.. فـما الـذي يـبرر إنسـانيتك غيرالسـلوك؟! وبـم أنك لم تـرد للمـرة الثانية فسأسـأل غيره حتـى تُجيب.

قال بابتسامة خافتة..

- أنت تتعمدين هذا.

حاولت "نيار" الابتعاد عنه، لكنه لم يسمح لها بل زاد من احتضانها.

- ما هو أغلى ما بالحياة؟

- أنتِ.

- تكلم بجدية.. أنا لا أتكلم عن حياتك بل عن الحياة عمومًا.

ظهـرت تكشـيرة طفيفـة بحاجبيـه.. وهـز كتفيـه بـلا إجابـة، فتنهـدت بتوتر وقالـت مـا تريـد قولـه مـن البدايـة:

- إنـه حليـب الأم.. انظـر لعظمتـه هـل يُبقيـك شيء آخـر عـلى قيـد الحيـاة لعامـين غـيره؟! حتـى المـاء لا يفعـل وهـو الـذي خلـق منـه كل شيء حـي!

ضحك بمرح، وقال:

- مخطئة لقد اخترعوا بديلاً له هناك حليب صناعي.. هاتي غيره.

ضحـك! غريـب! كانـت تظنـه سـيتوتر حـين تكلمـت بسـيرة الأم، ابتسـمت حـين وجـدت إجابـة أخـرى سريعًـا:

- حسـنًا.. الإجابـة هـي الولـد البـار.. فالولـد البـار كدرجـات الرأفـة.. قـد

نرسب بامتحان ما، وننجح بدرجات الرأفة.. هكذا الولد البار يدعو ويستغفر ويتصدق لوالديه.. فالدعاء والاستغفار والصدقة يصلون؛ فيرفع والديه درجات.

أحست بتشنجه.. لا بد أنّ حديثها أزعجه.. ابتعد عنها ينوي المغادرة، لكنها أمسكت به تمنعه.. نظرت له، ووجدت عينيه تشع بذعر عميق.

بعد كل هذه السنوات أدرك "ياسين" أنه مادة سريعة العطب.. فريسة سهلة للألم.. يقع بفخ الكلمات.. عيناه تتجول بالفراغ السائد بعقله وذهنه.. صوت أنين أمه.. منادتها له.. يدوي صاخبًا بأذنه.. تلمست أصابع يده بتعثر طريقها لأذنيه.. تنشد منع الصوت من التجول بها.. هل مازالت أمه تئن؟! لا.. لا بد وأنها أخيراً وجدت خلاصها، والآن هو من يئن بضجيج من الداخل وبصمت من الخارج.. هو دائمًا الوجع يظهر ويختفي.. يبتعد ويقترب.. إما أن يذهب «ياسين» إليه ركضًا.. أو يأتيه الوجع هرولة.. لا فارق.. قدميه لا تعرف إلا طريق الحزن.. الألم احتله بتأنٍ وبطءٍ شديد حتى أجبر نبضات قلبه أنْ تموج بالحزن.. يجلس بصمت.. ينتظر أن يظهر أي لون بذهنه غير الأسود.. كي يذهب إليه سريعًا للاختباء.. بصيرته تلوح بالمجهول.. دائمًا بالمجهول.. يُحاول بضراوة أن يُلملم فوضى أفكاره، ويتجنب الحوار الباهت الذي يدور برأسه.. صوت من تُجاوره، وهي تُحاول هدهدته من شهقاته العميقة الصامته.. قلبه التوى إشفاقًا عليها.. لا يُريد أن يُخيب ظنها به.. كيف له أن يصمت؟! وهو يعلم أنّ روحها معلقة بكلمة منه.. قال بشفتين مرتعشتين كحاله:

- أنا لا أفعل ما قلته.. لست باراً بأمي!

وبوهن شديد فتح عينيه.. وحاول أن يستشف الكلمات من الأصوات التي يُخرجها فمها.

- ولمَ لا تكون؟! سأساعدك.. ما رأيك أن نخصص وقتًا كل يوم لندعو لها؟.

"ي"

تبحث "سجور» عن «بتول» منذ نصف ساعة بلا فائدة، ولا تعلم سببًا لبحثها عنها من الأساس.. ربما لأنها رأتها تُشبهها؛ تحتاج لمن يأخذ بيدها.. لقد أصبحت تأتي كل يوم.. هذا المكان أصبح ملاذًا لها.. وشردت تتذكر ذهابها لبيت «عمار»، وكيف عاملتها والدته، لقد جلست تدعو لها بالثبات، واحتضنتها باكية، أما هي فكانت تناظرها بغرابة من ردة فعلها لم تُشعرها أن ملابسها ما زالت غير مُرضية بل عاملتها بشيء من جمال الأمهات حين يخشين على أولادهنّ من هفوات السوء والغريب أنها تتصل بها كل يوم تُشجعها بالكلام وتطمئن عليها، لقد أشعرتها أنها ابنتها من صلبها هي!.. شعرت بيد تحط على كتفها، ووجدت «بتول» تقول:

- لقد علمت أنك تبحثين عني.. مبارك لك يا فتاة على التغيير! لقد دعوت لك ويبدو أنه استجاب.. لقد اشتقت لك.. هل تُصدقين لم أرك إلا مرة واحدة وكنا نتجادل بها!

صمتت قليلًا، ثم أردفت..

- هل تعلمين أنا أيضًا أستحق مباركة.. لقد خُطبت.

نظرت لها "سجور" ببلاهة، وقالت:

- أنا أيضًا اشتقت لك جدًا.. ولكن كيف أولست مخطوبة؟

- سأخبرك لي صديقة أخبرتني أن شقيقها يريد الزواج بي.. ولقد وافقتُ.

- وافقت! كيف؟! ولماذا لم تضعي احتمال أن تكون صديقتك أخبرته شفقة لظروفك؟

- لقد رآني قبلًا.. حتى أني رأيته مع شقيقته عدة مرات، وسألته هذا السؤال ونفاه، وحتى لوكان حقيقة لن أغير موافقتي! إنه حبل نجاة بالنسبة لي لا أستطيع التفريط به.. سنتزوج مباشرة بعد انتهائي من العام الدراسي، وسأسافر معه لمدينته، وعندها لن يستطيع أهلي فعل شيء.. سأكون في بيتي صالحة لديني أمارسه بسلام، فكيف لا أتشبث بفرصة كهذه؟ قد لا تتكرر طوال عمري وهكذا أو هكذا كنت سأهرب.. أهله فقط من خِفتُ منهم في

البداية لكنهم جاءوا لرؤيتي، ورحبوا بي أحرّ ترحاب.. أناس طيبون وشقيقته صديقتي وهو يحمل أخلاقها ماذا سأريد أكثر من هذا؟! يكفي أني سأمارس ديني بلا خوف من العيون.. هل تُصدقي كنت من أيام قليلة لا أعرف ماذا سيحل بي، وانظري ماذا حدث الآن لقد فتح الله لي بابًا لو ظللت أشكره طوال عمري لن أكفيه ذرة!

عانقتها «سچور» ببهجة حقيقية.. تُبارك لها.. فطفرت الدموع من عيني «بتول»، فمسحتها بإصبعها، وهمست:

- أنت أول من أخبرتها هل تصدقين؛!

تشكلت ابتسامة شاردة على فم «سچور» الجميع يتمنى أن يتحدث مع من لا يعرفه عما يكدر حياته، وهذا ما يحدث معهما مع اختلاف أنّ هذا ماحدث المرة الفائتة، أما الآن تتحدثان عما أسعدهما تتمنى المرة القادمة أن تكون أسعد.. ازدادت ابتسامتها.. ثم هناك اختلاف آخر»بتول» من تحكي باستفاضة، أما هي تذكرالعناوين.. ربما يأتي يوم وتتسلم هي ضفة الحديث.. انتبهت عندما ودعتها الأخرى كي لا تتأخر على محاضراتها.. وغادرت مهرولة.

إنها سعيدة لها أكثر من سعادتها لنفسها! غريب أن هناك من يدخلون القلب بين ليلة وضحاها، وهناك من نعاشرهم لسنوات، ولا يُفكرون حتى بطرق قلوبنا! أجفلت على صوت هاتفها. ابتسمت وهي ترى اسم والدة «عمار»، فتحت الخط ووجهها يشرق بسعادة.. همست:

- مرحباً أمي.

"نقطة حقيرة لا أهمية لها ببداية السطر"

"مني أفعال"

"وهم تشبث بكونه حقيقة"

نقطة حقيرة لا أهمية لها ببداية السطر.. لقد أجاد وصفي حقًا ذاك الأحمق عديم الجدوى الشبيه بالظلال المتقزمة..

لم أقتحم الصفحات إلا لأخبركم من أنا.. قد لا تصدقون نيتي وصراحة لا ألومكم.. وربما سأهذي بسخافات كاذبة لأثير سخطكم ليس إلا.. وربما أبحث عن منفذ لأتسرب منه إليكم.. وقد تسبوني لأن البعض يرى أني أحتل صفحات زائدة لا أهمية لها..

لقد فطرت لأزعزع النفوس..

صفير.. صفير.. صفير.. ليتكم تسمعوه.. بووووبيب! بووووبيب! بووووبيب!

سأغادر دون إعطائكم إجابة كاملة لكني أعطيتكم جوهري.. ولا ذنب لي إن لم تستطيعوا معرفتي.. ربما تحتاجون لفحص تركيزكم أو لعله خلل بالذكاء..

"النور ليس مضادًا للظلام بل غياب الأخلاق! غياب الضمير!"

يقف "ياسين" يستند على باب المكتب، مضرم الملامح، يناظر «أسعد» وهو يحاوط «شهيرة» بذراعيه، ويتبادلان اللمسات دون أدنى حرج.. يتجولان بين السيارات.. تختار واحدة كهدية لها.. هل امتد اليومان لأربعة أشهر.. متى ستنتهي هذه العلاقة المتهورة؟! منذ متى كان «أسعد» بهذا الغباء؛ لينساق وراء أي كانت؟!

اتسعت عيناه بصدمة؛ فقد دخلت «نيار» للتو المعرض.. أصابه الجمود لوهلة، وسرعان ما تحرك نحوها.. جرها خلفه بخطوات سريعة.. دخل مكتبه، أغلق الباب.. ثم تكلم بكل ما يمتلكه من هدوء:

- ما الذي تفعلينه هنا؟

أصاب «نيار» الاستغراب.. فلم تعرف ماذا تُجيب؟ ولحسن الحظ هذه أول مرة تتصل بالمعرض ويخبرونها أنه متواجد.. جلست على كرسي ما..

- لقد تأخرت على موعد الجلسة.. فاتصلتُ بالشركة وهنا.. وعلمت أنك هُنا، فجئتُ.

جلس "ياسين" قبالها، استرخت ملامحه قليلًا.. لقد أغلق هاتفه لكنه نسى أن يُخبر سكرتيره الغبى بألا يخبر أحد أنه هُنا.. يعلم جيدًا أنها لن تتركه حتى تصطحبه يدًا بيد للطبيب المتحاذق.. يا إلهي.. كم يكرهه، وكم يكره كل ما هو طبيب أيًا كان نوعه..

توتر جسده.. حين سمع صوت «أسعد» من الخارج يطلب الدخول.. قرر هو الخروج..

- ابقي هنا.. دقائق وسآتي.

- لقد تأخرنا بما فيه الكفاية.. متى سنذهب؟

ناظرها بصمت متجهم.. وتحرك دون أن يجيب.. فتح الباب.. وقبل أن يغلقه.. أدخلت «شهيرة» وجها ممتعضًا، وهمست بتشدق:

- هذه زوجتك؟

أبعدها "ياسين" بقسوة، أغلق الباب.. دون أن ينظر لزوجته التي تناظرهم بوجل.. نظر ل-"أسعد" بحدة، وقال بنبرة مهترئة:

- ماذا يا «أسعد»؟

- لقد احتارت بين ثلاثة ألوان، لذا قررت أن أعطيها الثلاثة.. إن كنت ستبقى أنهي أوراقهم.

هز «ياسين» رأسه بتأكيد ساخر.. احتارت بين ثلاثة ألوان.. فلتأخذ كل السيارات، لا يهم أبدًا.. المهم ألا ترى «نيار» هذه القذارة.. ابتسم بتهكم، والأخرى تناظره بتحدٍ؛ ترفع حاجبيها، وكأنها كانت تنتظر اعتراضه!

- وما سبب إعلامي.. إنه معرضك أيضًا.. يمك...

قاطعته«شهيرة»:

- لم أغلقت الباب؟ ألن تعرفنا بزوجتك؟

نظرة واحدة لعين «ياسين» كانت كفيلة.. بأن يسحبها "أسعد" ويغادر.

حاول "ياسين" التنفس لدقيقة بهدوء.. قبل أن يفتح الباب وبمجرد أن دخل همست..

- من هذه التي تود التعرف إلي؟

زفر بضيق:

- رفيقة «أسعد».

ثم أردف بتثاقل:

- هيا لنذهب.

طوال الطريق كان "ياسين" ينازع نفسه كي يرجع.. وكيف؟ وهذه الجلسات كسلسال من نار يحاوط عنقه.. يخنقه، فلا يعرف للتنفس مرادفًا.. يقسم أنه يطوق نفسه، ويمسك بزمام أمرها قسرًا.. كي لا تنفلت عقالها.. إما إرضاؤها وإما بعدها.. فأحالت عمره لليل بلا قمر.. هي أم حياة بلا بسمة.. هي أم غيمة القلب!

- "ياسين" هل تتذكر كيف كانت حياتك بعد وفاة والدتك؟ لقد عرفت

أنها كانت قاسية.. احكي لي عنها؟

- لم أفعل شيئًا.. لم أتحرك من مكاني بالمطبخ حتى جاءت الشرطة لاستجوابي، فأنا الوحيد الشاهد على الحادثة.. لم أستجب فأحضروا طبيبًا لي، ووصاهم بالانتظار، وأخبرهم أني مصاب بالصدمة لما حدث لأمي، وغادروا بلا شيء، وبقيت جالس بمكاني بالمطبخ، أرى الناس يدخلون ويخرجون الجميع يتهامس، البعض ينظر بشفقة.. أتذكر مجيء بعض النسوة حولي يندبنَ حظنا.. بعض الناس يُربتون على كتفي، وبعض العبارات تخرج من أفواههم "ياللمصيبة، انظري من صدمته لم يتكلم" والأخرى ترد "معه حق إنه لشيء مفجع ما حدث".. لكني لم أصدق شيئًا مما يحدث.. وبعد تنظيف المكان صعدت لغرفتي، وحبست نفسي لأشهر.. ولا أذكر أكانت طويلة أم قليلة.. كنت أسمع طرقًا كثيرًا على الباب، وأظنه لوالدي لكني لم أرد، فكان يمل ويذهب حتى كسر الباب ذات مرة، وأجبرني على الخروج.

- لمَ وصل تفكيرك أن تحبس نفسك بلا طعام، هل كنت تريد الموت؟

- بالبداية لم أصدق أني قتلت والدتي وأنها توفت حقًا.. حتى اصطحبني والدي لقبرها.

- وبعدما تأكدت، لمَ استمر حبسك لنفسك؟

انزلق الكلام من شفتي «ياسين» دون إرادة من شدة تأثره..

- كنت أفكر بالكيفية التي سأقتل بها اللص.

وضعت "نيار" يدها على فمها تمنع شهقتها، وأشار لها الطبيب بالصمت.. واستفسر منه:

- وبماذا توصلت لكيفية قتله؟

صمت، ولم يرد فأردف الطبيب:

- "ياسين" لم توقفت؟ هل تسمعني؟

- أنا لا أشعر بالراحة.. الجو حار!

وجّه الطبيب نظره للتكييف إنه على درجة حرارة معتدلة إننا بالشتاء! بينما تدخلت «نيار» وهي تستشعر القلق، وهمست:

- ماذا يحدث إنه يتصبب عرقًا؟

- إنه يُقاوم فقط.. لا تقلقي.

جلست نيار بجوار «ياسين» تحتضن وجهه بكفيّها، وهمست:

- "ياسين" هل أنت بخير؟

- لا أستطيع التركيز.. أريد تغيير ملابسي إنها مبتلة بالعرق.

بمجرد عودتهما للبيت.. اتجه للحمام مباشرة، صرخ من الداخل طالبًا ملابس نظيفة.. أدخلتها له سريعًا، فتناولها بحدة وصرخ بها كي تتركه وحده.. دقائق وخرج وجهه شديد الاحمرار.. اتجه للشرفة.. ألقت «نيار» نظرة للحمام وهو ممتلئ بالبخار.. فتحت رذاذ الماء؛ فتأوهت وأبعدت يدها سريعًا.. إنه ماء ساخن! اتجهت له مباشرة، ورفعت قميصة القطني من الخلف.. أبعد يدها، وصاح بها:

- ماذا تفعلين؟

لم تبالِ "نيار" بصراخه، وهتفت به:

- ماذا فعلت بنفسك؟ جلدك سيحترق إن لم تضع شيئًا، تعال لأدهنه لك.. بالله عليك كيف استطعت تحمل هذه السخونة؟

- لا تبالِ للأمر.. لم يصل لدرجة الاحتراق.. كنت أشعر بالحر والماء الساخن ينفع.

نظرت له ببلاهة لا تبالي! كيف ووجهه قد يتهيج؟ وسيمرض إن وقف كثيرًا بالشرفة.. لكن المهم الآن أن تقنعه بوضع مرهم ما، فذهبت للغرفة، وعادت بيدها مرطبًا، فقال:

- ألم أخبرك أن تتركيني لحالي ألا تتعبين؟

شاركته جموده.. ولم تتزحزح قيد أنمله.. فتركها "ياسين" تضعه على وجهه، وتدلكه بخفوت حتى انتهت فأمسك يدها، وأخرجها من الغرفة، وأغلق الباب وجلس يستند عليه يسمع صوتها لا يتوقف عن مناداته وتوسله:

- "ياسين" رد علي.. أريد فقط أن أعلم أنك بخير.. هل أكلم حائطًا! ماذا حدث لكل هذا؟ أعدك سأذهب، ولن أزعجك ولكن أخبرني أنك بخير.. أرجوك أرحني بالله عليك.

بعد وقت رد بخفوت:

- أنا بخير.

فتحت فمها لتتحدث، ولكنها شعرت بالإحباط.. تركت لساقيها العنان للنزول للأسفل فحديثها بلا فائدة!

وراء الباب.. ذكريات قديمة أحدثت فوضى بألمه..عقله عالق بمساحة لا تخضع لحساب، ولا زمان، ولا مكان.. لا يراها ولا يشعر بها أحد إلا من قاسى ما قاساه..عقله الآن يمتلأ بصور ضربه هو ورفاقه في الشارع، ولا سبيل لمحو هذه الصور إلا رؤيتهم وهم يضحكون.. جسده يضج بالحرارة وعينيه لا يكاد يرى بهما من تداخل الصور المؤلمة بعقله كأنها تعاوده بنفس التأثير.. أصوات لا حصر لها لا يفهم ماذا تريد منه؟.. طرقات متداخلة.. ضربات تحط على وجهه وجسده دون معرفة أيدي صاحبها.. عيون تتربص به.. شفرة تختم على وجهه بجرح أو أكثر..

كلها آثار أزالت سطحيتها التنقل بين العيادات.. وأثرها الغائر يعوي بين جنبيه بلا رحمة.. ألا تقتل الحيوانات رحمة.. لماذا لم يحل والده دمه؟ ولماذا احتفظ به بعد ما كان؟ ألا يعد قتله لوالدته مبررًا كافيًا لطلب القتل الرحيم؟ ترى إن رفع قضية أيربحها؟

يتذكر ملوحة دموعه تمر مرور المغضوب عليهم بخديه لا مرور الكرام.. من أين سيأتي الكرام ويده الطالحة ملوثة بدم الصالحة..

ملوحة دموعة مع ضجيج الشارع، وجري بعض الأطفال لا للعب بل لتحصيل قوت يوم، ودمعة صراخ لجوع أحدهم، وصمت قاهر لاستيلاء قوي على حصيلة شقاء ضعيف، فيضطر أن يقضي يوم آخر دون إيجاد ما يسد رمق بطنه.. وربما يتذكر بكاء أب اضطرته الحياة أن يستوطن الشارع؛ فيهون سماع بكاء أطفاله جوعًا عن سماع أسنانهم وأجسادهم تصطك وترتعش بردًا.. وربما يتذكر مسن أو مسنة تنبش سلة قمامة لأجل كسرة خبز متعفنة.. ولعله يتذكر بائعة مناديل متسخة الملابس والأطراف والوجه فلا تكاد تميز أطرافها من الوسخ العالق الملتصق بجلدها، وكأنه جلد ثانٍ، فلا يكاد يطيقها مار، وتتقاذفها يد من هنا ويد من هناك فتقع وتكسر ولا

تجد من يرمم كسر قلبها..

إنه يشعر بطعم الملوحة الآن!

يكره بكاءه، ويكره حتى مجرد تذكره..

لا يبكي بصوت.. دائمًا ما كانت تخبره أمه أن بكاءه رقيق كالإناث.. وأنه شخص حساس.. لم تخبره أن الحساسية المفرطة إما فتنة وإما بلاء، وكلاهما بحاجة للصبر، ولم يكن الصبر قط من صفاته.. إنها هلاك لا رجوع منه!

كم هو بحاجة لرؤيتهم يضحكون ويلعبون الآن.. إنهم الحسنة الوحيدة التي قام بها.. إنهم مصدر شفائه..

حرك قدميه ناحية الشرفة، وصل للسارية أمامها، احتضنها حتى وصل للأرض ومنها للبوابة الخارجية وأخيرا الشارع.. ذهب مسرعًا يستقل سيارة أجرة يتجه للمكان الذي يحتاجه وبشدة...

بينما «نيار» بالأسفل تجلس منذ نصف ساعة بلا هدف.. يعتريها الأسف لعدم قدرتها على فعل شيء.. ثم قررت العودة لعله يستجيب هذه المرة.. وقفت أمام الباب لتفتحه، ثم توقفت تناديه أولًا:

- "ياسين".. "ياسين".

لم يرد ففتحت الباب، ولم تجده.. اتجهت للحمام، وبحثت عنه.. الغرفة فارغة.. ربما نزل ولم تلحظه... مستحيل، كانت ستراه.. لا بد أنه غادر عن طريق الشرفة.. هل تُفتش الغرفة! لكن ما الفائدة إنها غرفتها، وتعرف كل ما بها، لكن لا ضرر من المحاولة.. ربما هناك ما يدل على مكان خروجه هل ينام بالشارع مثلًا! ولم لا؟ أحيانًا يأتي بملابس قذرة تنم على النوم بالشارع حين يغيب، وأحيانا يأتي مرتبًا وبملابس جديدة نظيفة! زفرت بيأس، وبدأت بالبحث تحت الفراش بين الأغطية تنثر محتويات الأدراج وأرفف خزانة الملابس.. أحضرت كرسيًا، ووقفت عليه لترى ما يعلوها ولصدمتها وجدت مسدسًا لا تعلم إن كان صغير الحجم أم لا، فهي لم ترَ شيئًا كهذا من قبل! كانت ستقع لولا أن تمسكت بحافة الخزانة من الأعلى.. نزلت تحضر وشاحًا تمسكه به.. أمسكته بحذر ورهبة ليس من حملها لهذا الشيء بل من السبب الذي يجعله يقتني شيئًا كهذا.. ارتجفت تهمس لنفسها..

أهـو السـلاح الـذي قتـل بـه اللـص؟! لكنـه لم يُخبرهـا كيفيـة القتـل.. هـل تفتـح خزنتـه لتعلـم إن كان فارغًـا أم محشـوًّا! لكنهـا لم تسـتطع فتحه، فأعادتـه لمكانه، وجلسـت لعـدة دقائـق تسـترد هـدوء أنفاسـها، هـل يُعقـل أنـه يقتـل أنـاس آخريـن؟! وربمـا هنـاك غـيره وهـي لا تعلـم.. مـا الهـدف مـن وجـود شيء كهـذا إن لم يكـن للقتـل؟!

غـادرت عـلى الفـور.. وصلـت لمنزلهـا.. وجـدت أمهـا و"عـمار" وخطيبتـه يتناولـون الطعـام.. جلسـت تـأكل معهـم.. بعـد وقـت.. أصرت «نيـار» عـلى «سـچور» أن تبقـى معهـا، فهـي سـتنام هنـا اليـوم.. اسـتجابت الأخـرى لهـا.. صعـدوا ثلاثتهـم للسـطح يلعبـون بالكـرة.. صـوت مرحهـم يعلـو شـيئًا فشـيئًا حتـى اصطدمـت الكـرة بـرأس «نيـار» بالخطأ، فأمسـكت رأسـها.. فذهبـت إليها «سـچور» بسرعـة تعتـذر.. سـاعدها «عـمار» لتجلـس.. وقـال مخاطبًـا «سـچور»:

- اذهبي واحضري بعض الثلج بسرعة.

ثم قال «لنيار»:

- هل أحضر طبيبًا لقد أُصبت برأسك من قبل؟

- لا، أنا بخير أشعر بدوار بسيط فقط لا تقلق.

- أيـن زوجـك الأبلـه! أهـو بالعمـل حـقًا أم تـركك وذهـب؟.. تـركك.. هـذه النظـرة كفيلة..

جاء صوت «سچور» من الخلف:

- ها هو الثلج.

تناوله "عمار" منها، ودلك مكان الاصطدام برأسها.. حتى همست «نيار»:

- اذهبا وأكملا اللعب، أنا بخير يا أخي.. لا تقلق.

تبـادل النظـر معهـا بصمـت.. نظرتـه هـذه دائمًـا مـا تُشـعرها بالذنـب، فأشـاحت بوجهها بعيـدًا عنـه.. لقـد جـاءت هنـا في محاولـة لاسـتعادة المـرح لحياتهـا.. حياتهـا أصبحـت عبـارة عـن فيلـم رُعـب لا تـكاد تتنفـس براحـة حتى يـأتي مشـهد آخـر، ويقطـع أنفاسـها.. لقـد رمـت نفسـها بنـار تُشـبه بخصائصهـا نـار سـيدنا «إبراهيـم» عليـه السـلام. «عـمار» يراهـا أنهـا تؤذيهـا، وهي لا تشـعر بهـا! حتـى وإن كان مجـرم فهـي متقبلـة الأمر.. لقـد كان مسدسًـا حقيقيًا لا لعبة

يُمزح بها.. وهو سبق وقتل.. وأخبرها أنه يكره طفلها فهل يقتله إن جاء للحياة؟! ربما كان «عمار» محقًا لم يكن يجدر بها جلب حياة لا ذنب لها لتعيش هذه المأساة.. تخللت شعرها بأصابعها كي تنتعش قليلًا، ثم أخيرًا تركتهما، ونزلت لغرفتها.. دقائق مرت، ووجدت «سچور» تدخل تسألها.. إن كانت بخير.. فتمتمت:

- أنا بخير.. أشعر بالنعاس من هذا المجهود.. من فاز؟

- شقيقك بالطبع.

- خسارة.. سأعلمك المرة القادمة أن تغلبيه.

ناولت «نيار» «سچور» ملابس للنوم، فذهبت الأخرى لارتدائها بالحمام، ثم انضمت لها بالفراش، فقالت «نيار»:

- هل وجدت فستانك؟ آسفة لأني لم أستطع مرافقتك.

تتأسف لعدم مرافقتها! فحتى والدتها لم تفعل.. "حنان" فقط من رافقتها باختياره ويا للعجب! تجولت معها عدة أيام دون تذمر أو ملل، ولديها ذات ذوقها بفساتين الأعراس! لقد اختارت ثوبين.. فستان منفوش يتهفهف حولها تتناثر عليه الفراشات وفستان قصير ترتديه ل-"عمار".. همست:

- لا عليك، والدتكِ لم تُقصر.

قالت «نيار" وهي تُمعن النظر بشرود وجهها:

- "سجور» هل تُعانين مشكلة مع والديك؟

امتقع وجه «سچور»، ولكنها حقًا تحتاج للكلام، فأغمضت عينيها، وقالت:

- أنا لا أشك بحبهما لي، لكن المشكلة هو انعدام اهتمامهما بي.. إنهما يعيشان لنفسهما فقط.. كنت أملك جميع قرارات حياتي، لم يُعلماني أن هناك ما يُسمى خطأ بالحياة أما أنتِ..

قاطعتها "نيار" بنزق، هل ستُقارن نفسها بها هي.... وهي لا تعرف عنها شيئًا؟!

- لكنك لم تكوني طفلة طوال حياتك.. هل تظنين أن ما أنا عليه من تأثير أمي؟! أنت مُخطئة لقد علمتني الحياة.. لم تُعلمني أمي ما هو الصواب

والخطأ؟.. لا أذكر حتى أنها علمتني كيف أصلي ولا بأي عام أرتدي الحجاب هذا كله تعلمته من اتجاهاتي في الحياة.. كما أني لست بهذه المكانة التي ترينني بها.. أنا أقف بالمنتصف لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

- على الأقل أنت بالمنتصف.. ليس هؤلاء الذين يقفون باليسار.. ربما لم تؤثر بك والدتك بهذا الطريق لكن على الأقل لم تؤثر بك وتدفعك للعكس! أما أنا لم أكن أعرف ما معنى دين إلا عند الكبر.. هل تعلمين ما معنى أن تَصلي للجامعة ولا تعلمي شيئًا عن نبيك! لا تعلمي شيئًا عن أركان الإسلام حتى!. لا أريد أن أتعبك بكلامي.. تصبحين على خير.

والتفتت للجانب الآخر، والتفتت «نيار» هي الأخرى تفكر أنها معها حق؛ الأهل دائمًا ما يُخطئون والأبناء هم من يدفعون ثمن خطأ التربية! فها هي «سچور» تعرضت لسوء تربية.. و«ياسين»! ألم يتعرض لإهمال من والده وتركه بلا رقيب! ربما لو لم يُهمله لما كان الآن ما هو عليه.. ولكنها لا تملك الحق بالاعتراض على والده، ففقد الحبيب ليس سهلًا.. الطرفان مَظلومان وظالمان فأي منهما يُعاتب على ما لم يكن بيده! جل مشاكلنا تنحدر تحت مُسمى الماضي.. حادث أليم حدث.. مصيبة وقعنا بها.. خطأ اقترفناه فغرقنا بنتائجه..

رجع "ياسين" للبيت الساعة الرابعة فجرًا، لقد بقي يشارك الأطفال لعبهم.. حتى عند حلول موعد النوم لم يتركهم بل راقبهم وهم نائمون بهناء صغار وكبار. الصغار ينسون ما عانوه من شقاء بسهولة، أما المراهقون مسؤوليتهم أصعب بمراحل فهم يُنتشلون من الدمار، ومن الصعب جدًا عودتهم إلى ما كانوا عليه قبل ما آلوا إليه من ضياع.. الشيء الجيد أنهم هم من يُريدون التغيير؛ لذا فهم يستجيبون جيدًا وبعضهم سريعًا مع التعليم وبرامج التأهيل وهذا يُشعره ببهجة.. ومع أنها تُشكل حيزًا صغيرًا بقلبه لا يدوم ولكنها تُطمئنه.. اتجه لغرفته وجدها فارغة من «نيار» ومبعثرة بعض الشيء.. صرخ بأعلى صوته وهو يُفتش عنها هنا وهناك.. نزل

درجات السلم سريعًا، وما زال يصرخ باسمها ولا مُجيب..

خرجت «فرح» من غرفتها بملل.. وتمتمت بحدة:

- توقف عن الصراخ.. لقد ذهبت لأهلها.

وظلت تردد أنها بخير حتى يستوعبها عقله، ويتوقف عن الصراخ..

تناول «ياسين» الهاتف ينوي الاتصال بها.. لكنه سمع رنين هاتفها بالقرب منه..

حدقتاه امتلأت بالفراغ.. ثقل صدره.. بدا وكأنه فقد عقله.. تركته! تركته! الكلمة تقضمه بشراهة جشعة.. ردد بتشتت:

- هاتفها هنا.. لم ذهبت لأهلها! هل تركتني؟!

همست "فرح" بلين:

- توقف عما تفعله، واهدأ ستُقلق الناس بلا داعٍ.. وتوقف عن أفكارك هذه لم تتركك.. أشياؤها كلها هنا.

- سأذهب إليها.

- إياك أن تفعلها ماذا سيقول أهلها الآن؟! انتظر.. لم يبقَ على الصباح إلا ساعات و... "ياسين»!

لم يُبالِ "ياسين" لكلامها، وتركها، وغادر، فعادت لغرفتها تضرب كفًا بكف!

قاد "ياسين" بتهور حتى وصل لبيتها، وقف تحت غرفتها، وتسلق على الشجرة المجاورة لغرفتها حتى وصل لشرفتها، وفتحها بسهولة.. وجدها نائمة تُجاورها فتاة ما، لم يُبالِ بها، وجلس على الأرض ناحية «نيار»، وأمسك إحدى كفيها يضمه له بيد، والأخرى تداعب شعرها.

❁❁❁❁❁❁

شَعرت "نيار" بعدم راحة بنومها، رمشت بعينيها عندما لم تستطع تحريك يدها.. شقهت بخوف عندما وجدت «ياسين» يُناظرها بالظلام، التفتت ل-"سچور»، وجدتها نائمة.. التقطت عدة أنفاس تُهدئ من روعها.. لقد دبّ الرعب بعقلها وجسدها عندما رأته.. همست بتلعثم « كيف؟ كيف؟" وعقلها يُخبرها بسخرية.. وهل هذا وقت الكيف؟! أزاحت الغطاء

مـن عليهـا بهـدوء، وجرتـه خلفهـا للخـارج، ومـا إن أغلقـت البـاب حتـى سـألها "ياسـين" بخشـونة:

- لمَ غادرتي؟

نظـرت لـه «نيـار» بصدمـة لا تعـرف مـاذا تفعـل؟ وكيـف تتـصرف بهـذا الوقـت؟، ظلـت تـردد «يـارب صـبرني عليـه.. ألهمنـي الصـبر يـارب" جرتـه معهـا للطابـق السـفلي، ودخلـت المطبـخ فتحـت رذاذ المـاء، وألقـت بوجههـا تحتـه تغسـله بعنـف.. وصرخـت بـه:

- مـا الـذي جـاء بـك؟ ألم تسـتطع الانتظـار للصبـاح؟ ثـم كيـف دخلـت غرفتـي؟ اجلـس هنـا ولا تتحـرك.

- لقد خفت عندما عدت ولم أجدك.. خفت أن تتركيني!

- وما الذي فعلته كي تظن أني تركتك؟

- لم أفعل شيء.. لم أفعل شيء.. لا أحب أن تغادري دون إعلامي.. أن تتركيني.

- أنـا لسـت المُلامـة هنـا.. أنـت مـن تركنـي، وذهـب ولا علـم لي بمكانـك.. أيـن كنـت؟

- أين كنت؟! كنت.. أنا جائع يا وردة.

تـدلى فكهـا للأسـفل ببلاهـة، لقد تصاعـد بداخلهـا الأمل، وظنت أنه سـيتكلم لا أن..! حتـى أنهـا كانـت ستسـأله عـن المسـدس الـذي وجدتـه! لكنهـا صمتـت فـما الفائـدة إن كان لـن يـرد؟! سـتكتفي بإخبـار "عمـر"، وربمـا يجد هـو طريقة ليعـرف بها غـير السـؤال..

حتـى مـع شـعورها بالغضـب والضيـق منه قلبهـا يعـذره، وعقلهـا لا ينصرها عليـه مهـما قاومـت.. فابتسـمت بـألم، وذهبت للثلاجـة تُخرج ثـلاث حبات بيض تقليهـم.. قطعـت حبتي طماطـم، ووضعتهـم أمامه..

ضربت جبينها ببؤس منه حين قال:

- لـمَ أنت بعيدة عني هكذا؟

زفـرت بضيـق، واتجهـت للكـرسي المجـاور لـه.. أحسـت بيـده عـلى خصرهـا يُجلسـها عـلى سـاقيه ويضـع لقمـة أمـام فمهـا، فاسـتجابت لـه.. عندمـا انتهيـا حاولـت التحـرك، ولم تسـتطع.. تريـد أن تضـع الصحـون بالحوض، لكنه لا يسـمح

لهـا فأزاحتهـم جانبًـا، وحاولـت زحزحـة يـده عنها بـلا فائـدة، فأخبرته بخيبـة أن يُخفـف ضغـط يـده.. اسـتجاب لهـا سريعًـا، وقـال:

- ألن نذهب لمنزلنا؟

- سـأنتظر اسـتيقاظهم لا أريد إقلاقهم..هل تريد النوم؟ هل كنت مسـتيقظًا طـوال الليل؟

- لا تتركيني.. تريدين مني أن أنام كي تتركيني.. أنا لا أصدقك!

زفرت بيأس، وقالت بلا مبالاة:

- كما تشاء! أنت حر ولكني أريد إكمال نومي.

أفلـت إحـدى يديـه مـن خصرهـا، ووضعهـا عـلى الطاولـة والأخـرى تمسـك بهـا بإحـكام:

- نامي.

نظـرت بضيـق ليـده.. ترفـع إحـدى حاجبيهـا بتعجـب.. ولكنها اسـتجابت له ونامت.

❁❁❁❁❁❁

وصـلا لمنزلهـما، وهـو يتشـبث بذراعهـا كالطفـل لا يُريـد إفلاتها.. رمى نفسـه عـلي الفـراش، فوقعـت هـي الأخـرى، وقالـت بتذمر تُحـاول سـحب يدها:

- اتركنـي بـم أنـك سـتنام أفلـت يـدي.. لـن أتـركك للمـرة الكـم؟ لا أعـرف، لـن أتـركك.

لكنه عنيد، ويشدها تجاهه أكثر فمدت يدها الأخرى، وقالت:

- خذها.. امسكها كما تريد لعلك ترتاح.

- عندمـا سـأنام سـترتخي يـدي، وحينهـا يمكنك الإفلات وسـتتركيني.. سـأنتظر حتـى تنامي.

نظرت له ببلاهة.. ما ينقصها أن يقول تنفسي ولا تتنفسي.. تمتمت:

- لن أستطيع النوم أكثر.. هل أربط يدي بيدك لترتاح؟

- نفس المشكلة ستحلين الربطة عند نومي!

- يـا صـبر أيـوب! قسـمًا لـن أفعـل.. حتـى إن فعلـت أنـت نومـك خفيـف،

وستشعر.

فكت وشاحها من رأسها، وربطت يدها بيده وهو يشد يدها ناحيته أكثر فأكثر مما اضطرها للتزحزح تجاهه.. رأته يبتسم، فانتقلت العدوى لها، وقالت:

- أنت تتعمد هذا!

"قِ"

إنـه أول يـوم بشـهرها الخامـس لقـد أصبحـت بطنهـا بـارزة بعـض الـشيء.. الأشـهر الماضيـة كانـت مرهقـة بدرجـة لا توصـف إذ أنّ جلسـات «ياسـين» وردات فعلـه المتفاوتـة شيء لا يُطـاق.. لقـد كان يخدعهـا، ولم يكـن يبتلـع دواءه.. اكتشـفت صدفـة حـين رأتـه وهـو يبصقـه مـع أنهـا كانـت تراقبـه بشـدة.. تفتح فمـه، وتنظـر لـه بتمعـن.. لم تكـن تـرى شـيئًا فأيـن كان يُخفيهـا؟ كان يجـب أن تشـك؛ لأنـه كان يأخـذه دون أن يُعـارض ولـو حتـى بكلمـة.. فأصبحـت تضعـه لـه بالعصائـر.. إلى حـد مـا أصلحـوا شُـعوره تجـاه نفسـه لوالدتـه.. لقد خصصت لـه وقتًـا قبـل النـوم كل ليلـة للدعـاء لوالدتـه، بدايـة لم يتجـاوب معها لكنـه كان يجلـس يسـمعها.. وشـيئًا فشـيئًا نطـق لسـانه بالدعـاء صحيـح يتلعثـم، ولكنهـا نتيجـة.. إنهـا تتصـل بالشـيخ يوميًـا يخبرهـا مـا تقـول ويسـاعدها بسـرد قصـص مشـابهة لقصـة «ياسـين»، فليـس هـو الوحيـد الـذي قتـل والدته بل هنـاك حتى مـن تعمـد فعلهـا، وهـي تُفكـر جديًـا بالذهـاب لهـذا الـذي قتـل والدتـه عمـدًا، ثـم تـاب سـتأخذ عنوانـه.. ربمـا إن رآه «ياسـين» يُواسـيه.. لقـد أصبـح يـزور قـبر والدتـه أسـبوعيًا بـلا عوائـق، وهـذا الفضـل يعـود للطبيـب؛ لقـد تعـب معـه يكفـي الـضرب الـذي تلقـاه... لكـن مـازال يفلـت منهـا، ويهـرب كثيـراً مـن بعض الجلسـات.. وأصبـح يُغـادر ليـلًا أثنـاء نومهـا كي لا تـراه ولا تشـعر بـه، كـما اليـوم اسـتيقظت ولم تجـده.. لـوت شـفتيها عندمـا وصلـت لهـذه النقطة مـن التفكير.. أجفلـت وهـي تشـعر باهتـزاز الهاتـف إنـه الطبيـب تُـرى مـاذا هنـاك؟ رفعـت الهاتـف لأذنهـا بقلـق.. قـال قبـل أن تـرد:

- لن يأتي اليوم أيضاً؟

- لا أعرف مكانه.

- مـا أطلبـه منـك الآن ألا تمنعيـه فلـم يعـد هنـاك حاجـة.. يجـب أن نعـرف إلى أيـن يذهـب؟ ولهـذا سـتراقبيه.. نحـن لا نضمـن شـخصًا آخـر فقـد يُكشـف أمـره، ويتـأذى منـه.. أمـا أنـت فلـن يؤذيـك لا تقلقـي.. أنـت تقولـين أنـه يخـرج ليـلًا، ولهـذا يجـب عليـك أن توهميـه أنـك منشـغلة عنه بالنهـار بـأي شيء حتى

تسنح له الفرصة بالمُغادرة سأكرر أنت توهميه فقط لكن عيناك عليه.. أريدك أن تشتتي عقله حتى يخضع لنا، وإن حدث واكتشف مراقبتك له أخبريه أنه هو من طلب منك أن تراقبيه.

ظلت صامتة تستمع فقط لم تُقاطعه.. ومع كل كلمة منه يُحملها همًا يَقسم ظهرها، لقد مرت أشهر، وعاشت تعبًا لا يوازي بل يزيد تعب سنين عمرها وهذا كله ولم يبدأوا بالعلاج!

منذ أيام و»نيار» لا تستفز "ياسين" مطلقًا تعامله بهدوء تام يُثير الريبة على عكس حياتهما معًا.. ولم تعد تسأله إلى أين يذهب؟ حتى أنه أصبح يُناظرها بغرابة من وقت لآخر.. لقد صنعت جهدًا حتى وافق «عمار» على مراقبة المنزل طوال اليوم حين يكون «ياسين» متواجدًا.. وتحملت كلامه المُجحف لها.. وقد خرج "ياسين" منذ ساعة، ولحقه "عمار" جلست تدعو ألا يراه.. بعد ما يزيد عن الساعة وجدت «عمار» يدخل البيت، اتجهت إليه واللهفة والحيرة تتسابقان بسؤاله ولكنه قال بنزق قبل أن تنطق:

- زوجك يقوم بعمل مريب! لقد دخل لأزقة لا يدخلها إلا المجرمون والمشردون واللصوص.. هذه الأماكن خطيرة لا يسلكها إلا خطير!

هل ستستغرب ما يقوله شقيقها إنه أمر عادي لعقلها.. لقد أعدت نفسها كما يجب لشيء كهذا.. لكنها لا تريد أن تعلم إلى أين يذهب فقط؟.. بل تريد أن تعلم ماذا يفعل؟.

- هلا اصطحبتني للمكان..

اتسعت عينا «عمار» بصدمة لطلبها.. ستتسبب بموته ناقص عمر.. دمدم بها :

- إياك أن تسول لك نفسك باللحاق به.. أحذرك.. هذه أماكن إن دخلها الرجال لا يخرجوا منها كما دخلوا... فما بالك بأنثى وبوضعك هذا لن تعودين وإن عدت سيكون طبعًا بعد أشواط من العذاب القذر!

ناظرته "نيار" بريبةٍ وَجِلةٍ، وشعرت بتوجس من كلامه.. كلامه يشحنها

بمخاوف عدة.. هل يُعقل أنه يقتل أناس آخرين هناك لهذا يعود؟! كما يقول.. لكن، لا مستحيل...

- وكيف عرفت أنت؟ بل وكيف عدت؟

- هذه أماكن تُعَّرف نفسها بنفسها.. وأنا لم أخرج من سيارتي من الأساس.. فقط رأيته ينزل من سيارته، ويتوغل بالشارع.. ليس أمامك سوى أن تأجري من يلحق به.. هذا هو الحل الأنسب.

لم ترد.. وبماذا سترد؟.. كيف ستعرض حياة شخص بريء للخطر إن لم يفعلها «عمار» فهي من ستفعل! لمَ أخبرته من الأساس؟ لقد خافت.. ذعر مقيت يهوى التهام جسدها.. لم يظهر على وجهها أي ملمح يدل على ما يدور بخلدها ويخنق صدرها.. لقد أصبحت تُجيد فن الكبت بحرفية.

- حُجزت بالمشفى لعدة أيام حتى عادت عافيتي تدريجياً بقيت لأسابيع أعيش على المحاليل.. وكان أبي يُجبرني على شرب الماء.. حين خرجت، قضيت الأيام بين المنزل والأطباء والشارع.. تعلمت لغة الإشارة حتى أتواصل مع الناس، كان أبي يُحضر متخصصًا بالبيت وبالطبع أجلت الثانوية.. كنت كل ليلة عندما أتأكد من نوم أبي أتسلل للخارج حتى لا يراني.. كنت أمشي بلا تعب طوال الليل أجوب المدينة بأكملها، وأرجع للبيت قبل الفجر.. كان أبي يتعب معنا طوال اليوم، لقد أخذ حينها راحة من العمل ووكّل إدارة الشركة لغيره.. كان يطبخ ويغسل.. ورفض أن تهتم مربية بشقيقتي، وكان يُتعب نفسه بالذهاب من طبيب لمؤهل؛ ليساعدني، فكان ينام من الإرهاق.. لذا لم يلاحظ خروجي ليلًا.

- ولمَ كُنتَ تجوب المدينة؟

- كي احفظها شبراً شبراً.. و حفظتها إذ كنت أُركز على الشوارع المهمة.. ولو صادفت شارع لا يهمني لم أكن أبالي به إلا أنّ كثرة التجول جعلتني أحفظه أيضًا.

- وما هي هذه الشوارع المهمة؟

- الشوارع القذرة.. والشوارع التي يتجمع بها المشردون وأطفال الشوارع واللصوص والأسواق.. في أول شهر لم يكتشف أبي خروجي، ولم أكن دخلت هذه الشوارع بعد.. كنت فقط أدرس الطرق التي تؤدي لها، وأحفظ أماكنها.. بعدما بدأت دخولها.. ضُربت ضربًا مبرحًا ممن هم أصغر مني وأكبر.. ملامحي شوهت! ومع هذا لم يكتشف أبي خروجي.. كان يظن أني من أضرب نفسي، فأجبرني على النوم معه بغرفته حتى أكون تحت عينيه حتى اكتشف الأمر، فكان يُغلق الباب بالمفتاح كي يمنعني، ولم يكرره كثيراً بأمر من الطبيب كي لا تسوء حالتي أكثر إن منعني الخروج، ولكني حينها كنت قد قللت خروجي ليلًا، فقد كنت حفظت جميع الطرق التي أريدها، وحفظت أشكال من يقطنون بها.. كنت كالآلة المبرمجة على شيء واحد فقط، كان عقلي مبرمج عل حفظ الشوارع والتدقيق في وجوه من يقيمون في هذه المناطق.. ولهذا لم أكن أستجب لضربهم لي كنت أتركهم يضربوني حتى يملوا.. وعندما ازداد الأمر أسعفني عقلي على أن أمزق إحدى أقمصتي وسروال لي، ألقيت عليهما زيت طعام حتى يتشرباه، مرغتهما بالتراب كي أرتديهما عند خروجي.. كنت أترك ملابس نظيفة لي بشرفة غرفتي حتى أرتديه قبل دخولي المنزل.. تأقلمت معهم سريعًا حتى ظنوا أني وافد جديد مثلهم فأرشدوني لكبيرهم.

عند وصولهما للبيت كان "ياسين" بمزاج رائق.. دخل للمطبخ، وخرج حاملًا صينية بها مجموعة من أكواب الماء.. و«نيار» تتبعه بعينيها.. أمسك يدها، أجلسها على الأرض.. همس:

- تعالي لنلعب ونمرح قليلاً.

نظرت له "نيار" باستفسار.. فأردف يشرح:

- سأسأل سؤال إن لم تجيبي سأسكب كوبًا عليك، وإن أجبت إجابة صحيحة لن أفعل.. ولك بالمثل.. هيا أنت أولًا.

لم تكن "نيار" لتفعل شيئًا كهذا.. لكن نظرة السعادة ببعينيه شجعتها،

فلـمَ لا تقتنـص جـزءًا بسـيطًا مـن اللهـو بـم أنـه شيء نـادر الحـدوث؟.. لكـن أي نـوع مـن الأسـئلة ستسـأل! إنـه مثقـف وسـيهزمها بـلا جهـد وهي من سـتتلقي كل أكـواب المـاء! ستسـأل في الديـن فلـن يعـرف، ولكنهـا هـي الأخـرى ليسـت ضليعـة بـه.. قالـت مـا خطـر ببالها:

- من هو الصحابي الذي تزوج ابنة سيد الخلق وابنة ابنته؟

- سـيدنا «عـلي» كـرم اللـه وجهـه.. تـزوج «فاطمـة الزهـراء» وبعـد وفاتهـا تـزوج «أمامـة» ابنـة السـيدة «زينـب» ابنـة رسـول اللـه.

غبيـة ألم تجـد غـير هـذا السـؤال! إنـه سـهل وطفـل صغـير سـيجيب.. قالـت بعـد صمتها:

- هل تحفظ شيئًا من القرآن؟

أومأ "ياسين" برأسه دون كلام.. فنظرت له بتفكير.. ثم قالت:

- لم تُخبرني قبلاً أنك تحفظ منه شيئًا! هلا قرأت لي قليلًا.

- أنت تُلهيني كي لا أفكر بسؤال لك.. أليس كذلك؟

ابتسمت "نيار" بخبث.. ومع هذا هزت رأسها نفيًا.. فأردف:

- سؤالي هو كم عدد الأتراك الذين حكموا مصر؟

تغضـن جبـين «نيـار».. لقـد ولـت سـنوات الإعداديـة.. كيـف سـتتذكر؟ ثـم أغمضـت عينيهـا لتتلقـى المـاء ولم يحـدث شيء، ففتحتهـما بحـيرة.. فتمتـم:

- سأنتظر حتى النهاية.

بعـد انتهـاء اللعـب نظـرت "نيـار" لـ-"ياسـين" بغيـظ وهـو يبادلها الابتسـام بغـرور.. ثـم نظـرت للأكـواب بحـسرة.. لم تُلـقِ عليـه إلا كوبًـا واحـدًا فقـط ولكنه عـلى الأقـل أرضى كبريـاءهـا ولـو قليـلًا.. أعـادت النظـر لـه مبتسـمة بخبـث.. سـتجري.. أوشـكت عـلى التحـرك، ولكنـه منعهـا:

- إياك أن تُفكري بالجري!

- اتركني.. لن أفعل لكن.. اتركني.

أغمضت عينيها ثانيةً، ورددت:

- هيا افعلها.. لمَ تنتظر!

ثـم فتحـت عينيهـا بتذمـر.. وحينهـا تلقـت الكـوب الأول.. شـهقت والمـاء

يلسع بشرتها كوبًا تلو الآخر.. وتسمع قهقهته المرتفعة.. مسحت وجهها بكفيها، وتذمرت قائلة:

- هل ارتحت أنا مُغطاة بالماء؟!

رد بتقطع من بين ضحكه:

- لقد أغرقت نفسي أكثر منك، فلا تتذمري.

لحظات حتى شاركته الضحك بجنون على منظرهما البائس.. لكن «ياسين» تحدث فجأة:

- المرة القادمة حين تجدين شيئاً يخصني.. لا تعبثي به..

علم أنها رأت المسدس.. وانتظر كثيراً أن تسأله عنه لكنها لم تفعل.. ويظن أنها ارتعبت ولذا غادرت لأهلها.. لا يريدها أن تخاف منه.. مجرد التفكير أنها أصبحت تهابه يرعبه.. لم نعد نستغرب موت شخص وهو حي يرزق.. وهي تقوم بالمعادلة الصعبة إنها تحييه بعد موته.. لا ضير من التحدث معها وبلا أن يثير ريبتها أكثر قرر فتح الموضوع وهم يلعبون.. وإن سألت ما حاجته يكتفي برد مبهم.. هو نفسه لا يعلم ما حاجته إليه.. لا يتذكر أنه أحضره حفاظًا على حياته بل أحضره خوفًا على حياة شقيقته خوفًا من أن يغدر به شريك، وإن كان صديقه "أسعد" إنه لا يثق بأحد ولا حتى نفسه.. وربما أحضره كي إذا تكرر تكررت الأحداث لا يقوم بحركة مأساوية كما حدث مع والدته.. وربما أحضره للاشيء كما سيخبرها وحري به أن يصدق ما ينوي التفوه به..

توقف نبض «نيار» وكأنها تلقت صفعة على حين غرة.. وعقلها يردد «ماذا حدث؟» لقد كان «عمر» محقًا حين طلب منها مراقبته.. استنجدت بعقلها.. لعله يجد إجابة.. وعوضاً عن إجابة انفلت فمها بسؤال..

- وماذا تفعل به؟

حرك كتفيه ببساطة..

- للحماية.

- هل تؤذي أحد؟

- ماذا تظنين؟

ثم أردف..

- على العموم..

قاطعته بإصرار:

- هل تؤذي أحد؟

- أولست رجل أعمال يحتاج للحماية؟

- أي نوع من الحماية؟

- ألا أحتاج؟

زفرت "نيار" بيأس من هذا الحوار غير معلوم الملامح.. سيصاب عقلها بالشلل جراء التحدث معه.

- مرخص؟

- بالطبع.

أخرجت "نيار" زفيراً مرتاحًا على الأقل الآن.. حاولت الابتسام.. لكن الابتسامة لا تُزيل ملامح الحزن مهما كانت من القلب!

❁❁❁❁❁❁

دخلت "سچور" المعهد كالعادة عيناها تبحث عن «بتول» لكنها لم تجدها.. سألت من كانت تُجالسهن، فقالت إحداهنّ:

- ألم تعلمي ما حدث لها؟

انقبض قلبها فجأة، وقالت بحذر:

- ماذا حدث؟ فأنا لم آتِ منذ أسبوع لقد كنت مشغولة.

- لقد علم ابن عمها أمر إسلامها.. ويُقال أنه ذهب إليها بالجامعة، وتسبب لها بفضيحة وضربها، وكان سيأخذها عنوة.. لكن تَدخل الفتيات منعه عنها.. اصطحبتها إحدى الفتيات لمنزلها حتى حضر خطيبها، وسافرت معه وتزوجا تقريبًا بمدينته هناك بنفس اليوم.. وبالطبع سافر ابن عمها لإحضار عائلتها لكنه كان قد فات الأوان.. إنهم يبحثون عنها الآن وسيجدونها بالتأكيد.. لكن لن يستطيعوا فعل شيء.. فهي تزوجت ولم تعد تخصهم بشيء.

غـادرت «سـچور» وشـعور بالتناقـض يملأهـا.. أتشـعر بالسـعادة لأجلهـا.. أم تحـزن لأنهـا تزوجـت بطريقـة كهـذه؟! لكـم كانـت تـود رؤيتهـا.. لقـد أحبتهـا بدرجـة لا تُوصـف.. مـلأت بهـا شـيئًا كان سـابقًا يتصـف بالنقـص والفـراغ ولا يجلـب لهـا إلا مـا هـو كئيـب.. لا تملـك إلا أن تدعـو لهـا بالتوفيـق والسـعادة.. فـلا بـد وأنّ شـعور الغربـة يلزمهـا فهـي وحدهـا بـلا أهـل.. ألهـذه الدرجـة يهـون عليهـم قتلهـا؟! أيـن قلـب الأم؟! عـلى هـذا فـإن والديهـا نعمـة وهـي من كانـت توشـك عـلى كُرههـم.. فهـل تربـط الحبـل مـن اتجـاه وتقطـع مـن اتجـاهٍ آخر؟.."سُـچور".. هـذا واللـه لـن يحـدث أبـدًا.. ربما يُخطـئ الأباء لكنهـم بالنهاية والديهـا لا يملـكان غيرهـا ولا هـي تملـك غيرهـما!

"نقطة حقيرة لا أهمية لها ببداية السطر!"

"مني أفعال إلي أقوال"

أتعلم أنا وأنت نشبه ذاك الفيلم حيث اخترع أحد العلماء آلة نقل من شقين؟ وحين أراد تجربتها على نفسه.. أدخل نفسه بالشق الأول ودون علم منه، علقت معه ذبابة.. فاندمجا معًا، وخرجا من الشق الآخر كائن له هيئة إنسان وبقوة مستبعدة عنه! ففرح بها.. كما فعلت أنت ألم تفرح بتواجدي معك سابقًا ولمدة كبيرة من الزمن؟ ألست أنا من مددتك بالقوة والثبات الانفعالي؟ ألست؟

وماذا بعد؟ ما هذا السجن الذي حكمت به علي؟ أختنق هنا واختناقي لن يأتي إلا بهلاكك..

ومع مرور الوقت تلاشت هيئته الإنسانية.. أتذكر ماذا قال حين أراد إقحام حبيبته والاندماج معًا.. لا بد أنك تفعل لقد شاهدناه سويًا أكثر من مرة، وكل مرة تتساءل بتقزز عن مدى غرابة الفيلم.. لا بأس سأذكرك أنا.. لقد قال..

- أنا ذبابة أرادت أن تكون إنسان!

تذكر كيف تخلت حبيبته عنه وعن طفله؟ فأي كائن ستنجبه! كائن يمتلك صفاتك الغوغائية.. أم كائن يقتلها كما فعلت مع أمي؟!

وتذكر أنك أنت من أقحمتها في شؤونك.. لست أنا من فعل! بل كنت دائمًا أريد الابتعاد عن كل شيء..

حرى بك أن توقن أني هالك وأنك هالك!

إن كنت تظن أنك تستطيع نسياني فإنك ستمحي جزءً كبيرًا منك وستفقد نفسك.. ولن تجد من يعرفك إن لم تعرف أنت نفسك.. فإن لم يكن هذا الهلاك فما هو!

في الخاتمة أبشرك بموتنا معًا!

هذه مني أفعال إلي أفعال!

"الحب أحيانًا أخرى ضيق تنفس!»

بمنتصف الليل شعرت "نيار" بتسلل "ياسين» من جوارها.. ماذا تفعل الآن؟ كيف ستلحق به؟ قبل أن يَفتح الباب ليخرج.. تأوهت بصوت عالٍ.. فانتفض، وعاد للفراش يُناظرها بقلق.. وهي تتأوه تارة وتردد اسمه تارة.. يظنها بكابوس مُزعج حتى فتحت عينيها، ورسمت ملامح الألم بوجهها وجعدت جبهتها..

قال "ياسين" بقلق يتلمسها بخوف:

- ماذا حدث لقد كنت بخير من دقيقة؟ ماذا يُؤلمك؟

أمسكت يده، ووضعتها على بطنها، وقالت بألم مصطنع:

- لا أعلم.. لقد زادت حركة الجنين.

أفلت "ياسين" يدها.. وناظر بطنها بقتامة.. كأنه ينظر لعدوه اللدود.. وقال بنبرة أرجفت بدنها:

- ابنك يؤلمك.. فلم لا نتخلص منه؟

توقف نبضها، وانكمشت على نفسها بخوف غريزي.. عقلها يردد.. ماذا حدث؟ ماذا حدث؟ شعرت بالذعر.. لا قُدرة لها اليوم على تحمل مزاج آخر ينبعث منه.. ما زالت تُحاول التأقلم على تقلباته.. تمتمت باستهجان وذهول:

- ماذا؟!

ببساطة قال:

- لا أحب أن يؤذيك شيء.

منعت لسانها من التفوه.. «ألا تفعل أنتَ؟" لقد أصبحت تتوق للراحة.. بل تتلهف لها.. شعور أصبح بعيد المنال:

- هو لا يؤذيني.. على العكس أنا سعيدة بحركته.. وكلي شوق لمجيئه.

ناظرها "ياسين" بصمت متجهم لدقائق.. ثم عاد لمجاورتها.. فزفرت "نيار" تستجدي الراحة لم تعد تعرف أي يوم يُوصف بالعصيب من كثرتهم

وتشابه الأيام وكأنها تقع من أعلى جبل، وينتظرها نار بالأسفل فلا تعرف أيهما سيميتها أولًا.. رهبة السقوط.. أم الوقوع بالنار فنتيجتهم واحدة؛ لذا وجب عليها ألا تنغمس بالشعور أو لا تشعر من الأساس.

***

استيقظت "نيار" صباحاً.. وجدت والدتها وشقيقها بالغرفة.. نظرت ل-"ياسين» بتساؤل.. فهز كتفيه بلا شيء.. احتضنتها والدتها تقول:

- هل تشعرين بتحسن الآن؟ جعله الله حملًا يسيراً عليك حبيبتي.

- لا تقلقي يا أمي أنا بخير.

بخارج الغرفة.. تقف «فرح» منكسة رأسها بتخاذل.. هي من أخبرت «عمار» بالأمس؛ كانت لاتزال مستيقظة حين سمعت صراخ «نيار»، خرجت من غرفتها سريعًا.. لكنها لم تدخل وسمعت حوارهما.. يا إلهي! إنها تخاف عليها كلما مر يوم أضعاف مضاعفة من اليوم السابق.. هي فعلت كما طلب منها «عمار»؛ إن إصاب شقيقته مكروه تخبره..

نزلت «حنان» للأسفل تصنع لها ما تأكله، وأخذت «ياسين» معها ليُرشدها.. فقال «عمار» مباشرة:

- أحقاً هذا ما حدث أم أنه هو السبب ولا تكذبي؟

أمسكت "نيار" هاتفها، وكتبت عليه ما حصل تحديدًا، وناولته له.. قرأ ما كُتب، وهمس باستغراب:

- ولمَ لا تتحدثين؟

- كي لا يسمعني.. فربما يأتي بأي لحظة.

بعد أن تناولت «نيار» الطعام.. نظرت ل-"عمار» تحثه على قول ما أخبرته.. فقال:

- "ياسين" لم لا تذهب لعم‌لك، وسأبقى أنا وأمي نعتني بها.

فقالت «حنان «هي الأخرى:

- صحيح بني لا تُعطل نفسك.. نحن هنا.

- لكني.. أنا.. لا.

أمسكه «عمار» من مرفقه، ودفعه برفق لخارج الغرفة:

- لمَ هذا التردد؟.. اذهب لعملك ولا تقلق.

نظر له "ياسين" بضيق لا يريد تركها، ولكنه -نهايةً- انصاع له.

لحقه "عمار" مسرعًا، أوقف سيارة أجرة كي لا يلاحظه.. حتى توقف بالطريق الصحراوي بين الإسكندرية والقاهرة، ودخل مؤسسة للمشردين وأطفال الشوارع لإعادة تأهيلهم.

حين عاد.. وبخته أمه لتركهما.. لكنه لم يبالِ، وطلب منها أن تصنع شيئًا ليشربه، فنزلت، وجلس هو.. وقالت «نيار» من فورها:

- ماذا وجدت؟

- زوجك بدار لإعادة تأهيل أطفال الشوارع!

التفكير بأنه يتلقى علاج هناك مستحيل! والتفكير أنه هو من يُساعد مستحيل! فقالت:

- وما تفسيره؟

هز "عمار" كتفيه بلا مبالاة.. ما خطر بباله.. أنه ربما يرى شخص يعرفه هناك.. لكن حقًا الأمر محير.

تنتظر «نيار» «عمر» بمقهى عام.. رأته يتحرك نحوها، ثم جلس قبالها يطلب فنجانين من القهوة.. لم تنبث بحرف، وتركت المجال له ليتحدث.. فقال:

- لقد أرسلت صديقاً لي يعمل بالإعلام -وهذه حُجة جيدة- فطلب أن يُجري بعض الحوارات مع الأطفال عن كيف كانوا؟ وكيف أصبحوا؟ والتقط بعض الصور لهم وطبعًا مع الأطباء والعمال و القائمين على المكان فلم يكن أي منهم.. وهنا المفاجأة عندما طلب رؤية المالك كي يُجري معه مقابلة.. لم يكن متواجداً وأخبروه أنه يرفض بشدة هذه الأمور.. لكنه أصر فأخذ رقم هاتفه واسمه وكان زوجك!

ناولها الورقة.. مكتوبًا بها اسمه ورقم هاتفه، فهمست بذهول:

- زوجي أنا! كيف؟

- أيًا كان هدفه فهو عمل عظيم.. وبالطبع لا أنا ولا أنت ولاحتى شقيقك سيذهب لهذا المكان.. أريده أن يأخذك بإرادته الحرة وسيفعل.

إن كان زوجها يملك ما يتحدث عنه.. فلمَ يرفض مساعدة نفسه؟!

أردف:

- منذ الغد، ستكون الجلسات بمنزلكم حتى لا يستطيع الهرب.. ولكي نضعه تحت الأمر الواقع.

❁❁❁❁❁❁

- عندما ذهبت لكبيرهم؛ أمرني بتبديل ملابسي وحلق شعري.. دائمًا ما كنت أتركه دون قص.. أعاد ترتيب هيئتي، وأرشدني لأبيع بالطرقات.. لم يُحدد لي مكانًا بذاته لأقف فيه.. لذا لم أجد صعوبة بالذهاب لمنزلي، وآخر اليوم أُعطيه نقود من المنزل، ولا أنسى أن أفكها من متجر بقالة.. كنت أحيانًا أبيت بالشارع.. لقد قضيت ما يُقارب السنة على هذا الوضع. كنت أرفض الدراسة لذا لم يجد أبي حلًا غير الانصياع لما أريد، وبالطبع أُجلت لأعوام كثيرة.. بعد هذه السنة رآني أبي بالطريق أرافق مجموعة من الحثالة.. نشحذ ونطرق على السيارات.. لم أنسَ ملامح الصدمة التى علت وجهه وهو يرى ابنه.. لقد ضربني ضربًا في الشارع، لم أظن أنه كان باستطاعته فعل ما فعل بي يومها.. أكمل ضربي بالمنزل، وحبسني بغرفتي ثلاثة عشر يومًا وساعتين وسلسل النوافذ.. كانت من أسوأ فترات حياتي.. لم أتوقف عن الصراخ لا ليلًا ولا نهارًا.. قضيت معظم الأيام بلا نوم، كلما جاء أبي بطعام لي، كنت أسكبه عليه مما اضطره لتقييد يدي وقدمي بالسرير.. كان يُطعمني جبرًا لكني أيضًا كنت ألقيه من فمي وأبصقه عليه.. حتى أمره الطبيب الأحمق بتركي يومها، لم يجد حلًا إلا أن يفك قيدي ودموعه تنزل تملأ خديه لكني لم أفعل شيئًا غير أني ناظرته بصمت، وتركته، وغادرت.

- هل تكره والدك؟

- أكره والدي! مستحيل، أنا أحبه وأُشفق عليه مهما فعل بي؛ فهو يملك الحق بل كنت أتمنى أن يقتلني يومًا ما كي ارتاح وأريحه.. بعدها لم أرجع للبيت لشهور طويلة، كنت أنام بالشارع، ظللت بالملابس التي خرجت بها ما يزيد عن أربعة أشهر، كان لا فرق بيني وبين القاذورات.. تعلمت السرقة.. تعلمت كل شيء يمكنك تخيله.. كنت أعمل لنفسي لا لشخص آخر.. كنت أتعارك مع من يُضايقني أو يُضيق علي أمر الشحاذة.. تنقلت من مدينة لأخرى، وذات يوم أمسكت بي الشرطة إثر شجار.. لقد قتلت شخصًا تطاول عليّ، ورفض أن يعطيني حقي.. لم أكن أظن أن أبي ما زال يبحث عني إذ كنت أظن أنه أيقن أني ربما مت.. لكنه كان يجوب المستشفيات ومراكز الشرطة ويترك صورًا لي.. تعرفت علي الشرطة ولا أعرف كيف؟! فلم أكن أشبه الذي بالصور! وجاء أبي، وأحضر أوراق مرضي.. وحلت المسألة وديًا مع أهل الشاب.. وخرجت.. اصطحبني ولم أكن لأذهب معه قط.. لكن رؤيته مقعد لا يستطيع التحرك أحدث بي خللًا ما.. لقد كان أبي كومة من اللحم المجعد بلا حياة تُزهر.. كائن أنهكه الذبول وكنت موقنًا أني السبب لذا ذهبت معه مع أني لم أكن توصلت لهدفي بعد.

- وما هو هدفك من كل هذا؟

صمت "ياسين" لثوان قليلة، يفكر بضيق؛ هل يتحدث أم يصمت؟ ويكفي هذا القدر.. سرعان ما ابتسم بسخرية.. وما فائدة عدم التحدث؟ ما فائدة الإنكار؟ "عمر" يعرف أنه قام بقتل اللص.. فلم السؤال؟ وإن لم يتكلم سيثير غضب "نيار".. زفر باستجهان، وبالنهاية تكلم.

- كل ما فعلته هو فعلته لأجد السارق الذي جعلني أقتل أمي.

- لقد قلت أنك حفظت جميع الشوارع.. أمع هذه السنين لم تستطع إيجاده؟

- لا، لم أستطع إيجاده لذا ظننت أنه ربما من مدينة أخري لذا كنت أتنقل من مدينة لأخرى.. ولم أجده إلا منذ ثلاث سنوات بمدينتنا هذه..

صدفة في أحد البارات يُحاول سرقة شخص أصابه السكر.. لقد كنت أحفظ ملامحه أكثر من نفسي.

- وماذا فعلت حين رأيته؟

كل جلسة يسأل نفسه لم يتكلم والكلام وجعه كالضمور.. كسقطة لا تقتل لكنها تشل كامل الجسد عدا العقل تنبأ بالذل والهوان.. لأجلها هي ولأجلها هي يخرج منه الكلام دون قيد.. على علم مسبق أنها تخبر الطبيب كل ما تعرفه.. فلمَ لا يتكلم إن كان أثر الإيذاء لا يرى لغيره على أمل.. ومع أن الأمل كلمة لا تقترن باسمه فإنه يأمل أن يظهر الألم جليًا وبشكل جسيم على نفسه وجسده وفكره وأفعاله وأقواله.. ليس حبًا بالعذاب، ولكن سعيًا للخلاص.. فترفض هي الإكمال لما تراه من معاناة به..

- وقفت بجواره، وأخبرته أن طريقة سرقته هذه مكشوفة، سيشعر بها المسروق ومن حوله.. وعلمته حينها السرقة ببراعة، وأصبحنا أصدقاء وتقابلنا كثيرًا، وكنت أضع له هروين في شرابه ومع الوقت أدمنها حتى مات بجرعة زائدة.

- وماذا شعرت وأنت المسؤول عن قتله؟

- الراحة والسكينة هما ما شعرت بهما، وكأني أتممت ما خُلقت لأجله.. لقد استحق ما حدث له، لقد دمر حياتي وحياة أبي وحرم شقيقتاي من والدتهما.. كنت رحيمًا به، ولم أعذبه.

- وماذا عن حياته هو وعائلته؟

- لديه أم وزوجة وطفل.. لقد تعرفت عليهم.. أذهب لهم كل شهر أسلمهم ما يحتاجونه من مال وأكثر.. لقد كان موته أكثر فائدة لهم!

- وما ذنب الأم، الطفل وأمه أن تحرمهم من ابن وأب وزوج.. ألم تُفكر بهم؟

- أفكر بهم! وهل فكر هو عندما اقتحم منزلنا ؟ لقد قتل أمي؟

- أنتم أناس أغنياء ربما فكر أنه إن أخذ شيئًا لن يؤثر بكم.. ثانيًا ألم تُفكر أنه كان يُخيف والدتك لا أكثر حين اكتشفت وجوده.. لا يهم الآن..

أخبرني الطفل يُشبه من؟

- لم أنظر له.

صمت "ياسين" لدقيقة، ثم أردف بكل صدق:

- ربما لو فعلت لما قتلت والده!

- أخبرني عنوانهم؟

أعطاه "ياسين" العنوان بطواعية..

على باب المنزل همست «نيار»:

- هل ستذهب لهم؟

- بداية لم أكن أظن أنه سيعطيني العنوان.. وربما هو يكذب.. لذا سأذهب لأتأكد.

وغادر بينما «نيار» صعدت لغرفتها كي تغتسل، وتُعيد نشاطها.. و«ياسين» غفا بالأسفل وهي كانت تظن أنه يُمثل.. لقد أصبحت وسواسة يصيبها الريب في أي شيء يدور حوله.. اتجهت للخزانة تُخرج ملابس لها، فلفت انتباهها صندوق الصور.. فكرت بإخراجه وصنع صورة كبيرة تشملهم جميعًا كالتي بغرفتها.. لفت انتباهها صندوق آخر فأخرجته أيضًا، وحاولت فتحه.. لكن لم تستطع.. قطبت حاجبيها بتعجب، وأحضرت مبرد أظافرها، ودارت حوله من الجوانب حتى تستطيع فتحه.. فوقع من يدها، ووقعت منه كمية من الصور.. تحركت سريعًا تجاه الباب تُغلقه بالمفتاح، وعادت للصور تلتقطها واحدة واحدة.. صور معظمها لشباب وعدد قليل من الإناث، جميع الصور أسفلها اسم صاحبها يبدون بعمر المراهقة وأكثرهم صغار السن.. أحضرت هاتفها تبحث عن أسمائهم.. جلست ما يُقارب الساعة تبحث، ولم تجد شيئًا مشتركًا غير أن بعضهم يشترك بنفس المدرسة.. زفرت بحيرة، ثم أعادت الصور للصندوق، أغلقته بإحكام وأعادته مكانه.. وتركت الآخر على أمل أن تبدأ به.. أعادت فتح الباب، ونزلت للأسفل؛ فوجدته مازال نائمًا على حاله.

"نقطة حقيرة لا أهمية لها ببداية السطر"

"مني أفعال"

"وهم تشبث بكونه حقيقة"

سأخبركم بما لا يمكنني إخباره إياه.. هو يخاف مني؛ لأنه موقن أني شخص يحاول السيطرة على جسده وعقله.. هو لا يعي أني مجرد فكر.. ولن أنكر أني لم أدخر جهدًا لجعله يصدق أني شخص آخر يحاول السيطرة عليه.. لا تلوموني.. أنا لم أدخل عقله قسرًا.. بل هو من تمناني لحظة اخترق السكين جسد أمه.. تمنى أن يكون ميتًا، ولا يعيش لحظة كهذه.. ربما استغللت ضعفه، وتشعبت به..

منذ فشلي بمسعاي إليه عدة مرات.. كنت أغادر حقًا كنت.. لكنه هو.. هو الذي مازال يتمناي.. ولو دفن هذه الأمنية بأعماق قلبه إلا أنها مازالت موجوده.. أنا فقط أنبشها؛ لأنني مللت الانتظار..

باختصار أنا لازلت داخله لأنه هو الذي يريدني، ولو كان ينفي هذا الأمر كذبًا.. وإن عرفتم من أنا حتمًا ستصدقون براءتي..

هو الضحية ومن ظلمها..

هو كَذَرَّة غير مستقرة.. بروتوناتها ليست سلبية الشحنة فقط بل المجني عليها.. وإلكتروناتها ليست إيجابية الشحنة فقط بل المجني عليها.. وكلاهما في صراع مستقر لا يهدأ كي ترجح كفته فوق الآخر..

أما أنا فنيترون متعادل لا تأثير له، وإن ملت للبروتين!

كلمة قبل مغادرتي.. إن استطاع أحدكم إعلامه بمدى انزعاجي بتجاهله لصوتي، فليفعل..

بضحكة خبيثة.. تجاهله لي الآن أصبح ينبعث بشكل سيء على تصرفاته.. وربما بالنهاية يقوم بما سعيت له!

قبل ذهابي.. هل أخبرتكم أني أحب اسم «جساس»؟.. بالنسبة لي هو

ليس اسم من أسماء الأسد.. بل لي يعني جس النبض.. كم أحب سبر الأغوار.. ولمس القلب لأتعرفه!

"الحب أحيانًا أخرى نفاذ صبر»

هـذه المـرة "نيـار" مـن تلحـق "ياسـين» بسـيارة أجـرة.. و"فـرح" ترافقهـا.. هتـف سـائقها بنـزق:

- يـا مـدام نحـن خرجـنا مـن الإسـكندرية منـذ سـاعة.. وأنـت لا تعرفـين إلى أيـن سـنذهب بالضبـط؟ .. سـأعود.. وأنـتِ اسـتقلي سـيارة أخـرى.

قالت "نيار" تستجديه:

- سأعطيك أكثر مما تريد لكن لا تتوقف، وسر خلفه إذا سمحت.

توقفـت السـيارتان أمـام احـدى الإشـارات.. ولسـوء حظهـا كانـت السـيارتان متوازيتـين.. رأت «نيـار» «ياسـين» يديـر وجهـه جانبًـا، فأشـاحت بوجههـا سريعًـا للجانـب الآخـر، تغـيرت الإشـارة فتحركـت سـيارة الأجـرة وسـيارة «ياسـين» توقفـت، فنظـرت للـوراء.. أنفاسـها بـدأت تهـرب منهـا.. لا بـد أنـه لمحهـا..

بعـد دقائـق أمـرت "فـرح" السـائق أن يتوقـف أمـام أقـرب مشـفى، فتنفس «نيـار» بـدأ يتباطـؤ، ويبـدو أنهـا سـتفقد وعيهـا.. بعد سـاعة كانت "فـرح" تقف أمـام غرفـة بالمشـفى، تـدور حـول نفسـها بقلـق.. خشـية أن يحـدث ل-"نيـار" شيء..مـا هـذه المصيبـة؟ ألم يكـن مـن الأفضـل أن تُخبرهـا بمـا تعرفـه؟ عوضًـا عـما يفعلانـه.. اتصلـت عـلى «عـمار» لا تعـرف كيـف تنقـل لـه الخبر؟ همسـت بتوتر..

- "عـمار" شـقيقتك متعبـة بالمشـفى، ولا أعـرف مـاذا أفعـل؟.. لقد رآنـا، لابد أنـه فعـل.. أنـا خائفـة.. أريـد العـودة للمنـزل أخـشى أن يرجـع ولا يجدنـا.. لقـد توقفت سـيارته!

- اهدئي.. لا أفهم شيئًا، أين أنت؟ وماذا حدث لها؟

- أنا بأحدى شوارع القاهرة.. لقد خرجنا وراءه..

قاطعها بعنف قائلًا:

- ماذا! ألم أخبرها ألا تفعل!

لكن «فرح» صرخت من فرط التوتر:

- لا تصرخ.. ليس وقته أدركني، أنا خائفة.

أسند "عمار" شقيقته وهو يتنفس بحنق.. ساعدها حتى اضطجعت على الفراش، دثرها جيدًا.. غفت سريعًا من التعب، فأغلق النور، ونزل للأسفل يزفر ضيقًا.. يُوبخ نفسه؛ لأنه لم يعد بها للبيت، وأحضرها إلى هنا! لكن هل عساها ترضى وتُطاوعه؟.. كلما قال لها شيئًا فعلت آخر.. وجه أنظاره الحانقة على "فرح"، وهدر:

- كيف لم تمنعيها؟ كيف سمحتِ لها بالخروج وراءه؟

قالت "فرح" بتعب وجسدها مازال يختض من فرط التأثر:

- أرجوك، لا طاقة لي للكلام.. ماذا سيكون كلامك غير الصراخ والمعاتبة!

زفر «عمار» بضيق.. أمسك هاتف «نيار»، وفتحه ينوي الاتصال بزوجها، ويُخرج غضبه عليه.. اهتز الهاتف بيده فوقع منه.. مما جعله يشتم صاحب الرقم.. تناوله من الأرض، وما إن فتحه حتى وجد صراخًا من الطرف الأخر:

- "نيار" لما لا تردين؟ هل كنت أنت الت....؟

قاطعه بحدة:

- «عمار» معك.. أين أنت؟ لقد كانت زوجتك والتي هي أختي متعبة.. وحُجزت طوال اليوم بالمشفى.. لذا أنا من يحق له الصراخ.. كيف تتركها وحدها كل هذه المدة؟!

خرجت أنفاس «ياسين» بثقل تُعاني مثله، وقال بصوت مصدوم:

- مريضة! ماذا بها؟

- أوتسأل! أبعد أن تتركها تسأل! يا لوقاحتك!

وأغلق الخط.. ثم ارتمى على الأريكة يُغمض عينيه بإرهاق، والهاتف لا يتوقف عن الرن، ففتحه بضيق.. وقال «ياسين» سريعًا:

- أريد التكلم معها.

ثم أردف:

- من يعتني بها؟ هل «حنان» تفعل؟

- إنها نائمة و"حنان" لا تعرف وإياك، إياك أن تُخبرها، أنا أحذرك.

- اعتنِ بها سأحاول أن آتي غدًا.

- ستحاول! يا له من إنجاز تُؤجر عليه.. أبعد ما أخبرتك به تأتي غدًا،

وليس يقينًا أيضًا! ماذا تفعل؟ ولا تقل أنك تعمل، فماذا سيعمل شخص مثلك فاقد للاتزان؟!

- أنت شقيقها.. إذا هي في أيدٍ أمينة.. اتصل بي حين تفيق.. لا، انتظر هلا صورتها لي.. أرجوك.. أنا أتوسل إليك.

أخبره "عمار" أنها بخير.. وأغلق الهاتف كي لا يسمع رجاءً آخر، وعاد لغرفته، وجلس جوارها، ولملم شعرها، ثم أخرج هاتفه، والتقط لها فيديو صغيرًا، وأرسله له.

على الجانب الآخر نظر "ياسين" للفيديو المُرسل له.. نائمة.. التعب يبدو جليًا عليها.. تلمست أصابعه شاشة الهاتف تستجدي الشعور بملمس بشرتها.. أخرجه من إحساسه بالخدر "أسعد"، وهو يقول:

- أخشى أن تكون هربت بالأموال خارج مصر.

طحن "ياسين" أسنانه من فرط الغضب.. وعنفه:

- أليست هذه هي الحثالة التي حذرتك منها؟ أين ذهب تبجحك بأنك ستستمتع بها يومين ثم ترميها؟! انظر لما ورطتنا به.. لازلت لا أصدق أني حين وصلت وجدك مخدر كالميت لا تعي شيء وكل الأموال مفقودة!

بقي «أسعد» صامتًا بذل.. وهو الذي كان ينوي اتخاذها زوجة.. لقد خدعته، وكأنه غرٌ لا يفقه شيئًا.. تمتم أخيرًا بفتور:

- سأعطيك نصيبك من أموالي.

أصدر «ياسين» صوتًا ساخرًا، ثم قال:

- إن لم نجدها، ستفعل بالطبع.

يريد "ياسين" العودة لكنه لا يستطيع حتى يجد «شهيرة»، أو يصل لأي طرف يوصله إليها.. لكن قلبه يُوخزه.. إنْ لم يترك كل شيء، ويذهب لزوجته.. لقد تعبت مرتين بأسبوع واحد! لقد كان محقًا عندما لم يُحب هذا الطفل.. فقبل أن يأتي لا يجلب إلا المرض.. وحين يأتي ستأتي أيام السهر والاهتمام به وسيكرهه أكثر.. لقد كان على يقين أنها هي من رآها تلحق به، وكيف لا والفتاة التي رآها كانت طبق الأصل منها؟.. نفس كل شيء حتى ملابسها.. لم يرَ غير جانب وجهها، ولكنه يكفي ليتعرف عليها.. وكان يجاورها فتاة أخرى،

وهيأ له أنها «فرح» حتى وإن لم يرَ وجهها.. وما أثار الشك بداخله أكثر أنها لم تُجب على الهاتف وشقيقته أيضًا كان هاتفها مغلقًا.. يا إلهي! متعبة ولا يُجاورها!

اسيقظ «عمار» على صوت رنين الهاتف وهو علي يقين أنه من «ياسين».. قام من الكرسي الذي غفا عليه، وخرج من الغرفة كي لا يُزعج نوم شقيقته، وفتح الخط ووبخه قائلًا:

- ألم أخبرك أنها نائمة؟.. عندما تستيقظ سأتصل بك.

أغلق دون سماع رده.. ثم اتصل ب-"سچور» وقال بود:

- كيف حالك؟ أردت أن أخبرك أنني لن أذهب للتمرين اليوم.

- بخير.. لكني أيضًا لن أذهب.. أنا برفقة أمي وأبي بالملاهي.. لم نذهب منذ زمن.. وفكرت أن نمضي اليوم معًا نمرح.. آسفة لم أسأل ماذا حدث لعدم ذهابك؟

- "نيار" مريضة وزو..

وتوقفت الحروف بحلقه زوجها! كم أصبح يكره هذه الكلمة! فصحح:

- و»ياسين» ليس هنا وأنا أعتني بها.

لفت انتباه «سچور» صوت صريخ والدتها.. ووالدها لا يكف عن الضحك.. فارتسمت بسمة على شفتيها، وعلقت لوقت.. لا تعلم لمَ كانت تتضايق من اهتمامهم ببعضهم البعض بهذه الدرجة المفرطة أو ربما هي من كانت تراها بهذا الشكل؟.. مع أنها تتمنى أن يكون الحال بينها و»عمار» بهذا الشكل عندما يصلا لهذا العمر. مازالت تتذكر عندما أخبرها والدها أنهما لم يكونا يُخططان للإنجاب فقد تعب والدها حتى يتزوج أمها، لقد انتظر حتى قارب للأربعين عامًا حتى رضخ والدي و والدتها أن يُزوجوه إياها.. فهل ستأتي هي وتحسدهما على هذه السنين القصيرة؟! أهملوها نعم.. لكنها ليست الوحيدة التي تُعاني من الإهمال.. إنها مشكلة الجيل بأكمله.. وهي وسعت هذا الشعور بداخلها عندما أهملت دينها.. فوصل

بهـا الأمـر لإهـمال نفسـها هـي! النظافـة ليسـت بملابس نظيفـة ورائحـة جميلة ومظهـر جميـل .. بـل تنبـع مـن الداخل وهـي أهملـت نظافة قلبهـا! اصطدمت بطفـل مـا، فتذكـرت أنهـا مازالـت تُكلـم «عـمار»، فهمسـت:

- ألا زلت معي.. آسفة الضوضاء هنا كثيرة ومرتفعة.. ماذا كنت تقول؟

- كنت أتساءل عن المكان الذي حجزنا به للعرس فلم يكن يُعجبك.

- لقـد أخبرتـك لسـت مرتاحـة لهـذا الجـو الصاخـب.. أريـد شـيئًا بسـيطًا.. ثـم لقـد أخـذت جـواز سـفري ولم تُخـبرني لـلآن أيـن سنسـافر؟

سمع صوت «نيار» تُناديه، فقال مغلقًا الخط:

- مفاجأة! سأغلق الآن.. استمتعوا بوقتكم.

وجدها تمسك رأسها، وتهمس بصوت خفيض:

- أنا لست على ما يرام.. رأسي يؤلمني.. أشعر بجسدي مخدر.

تحسس "عمار" جبهتها بيده، فلم يشعر بحرارة.. وقال:

- سـأحضر طبيبًـا ليفحصـك.. لا تتحـركي مـن مكانـك سـأحضر مـا تأكليـه.. واتصـلي ب-"ياسـين" لقـد صرع رأسي.

فتحـت "نيـار" هاتفهـا، واعتدلـت بالفـراش لتجلـس، ولم تكتمل الرنـة الأولى، وفُتـح الخط:

- أخبرني "عمار" هل استيقظت؟

قالـت «نيـار» بهمـس مُجهـد «ياسـين».. فـرد بعنف وعينيـه تمتـلأ بالدموع.. وصوته تشـبع بـالألم:

- "نيـار"! أنـا آسـف يـا وردة؛ لأني تركتـك.. آسـف لأني لم أرجـع حـين عرفـت.. آسـف لأني لسـت جـوارك! أنـا بالطريـق الآن.

لا تملـك "نيـار" القـدرة عـلى الـرد وصوتهـا مكتـوم لا يخـرج مـن حلقهـا.. دخـل «عـمار»، ووضـع الصينيـة عـلي الفـراش جوارهـا.. أعطتـه الهاتـف؛ فأجاب عـلى مضـض:

- إنها متعبة وسيأتي طبيب كي يفحصها.

- أريد التحدث إليها.. ألم تقل أنها أصبحت بخير؟ هل كنت تكذب؟!

- ألا تفهم إنها متعبة؟ صوتها لا يخرج من الأساس.

- لا يهم يكفي أن أسمع أنفاسها.. أرجوك أعطها الهاتف.

- سترهقها بحديثك.. اتركها لتأكل.

- لن أتفوه بحرف.. أرجوك.

- سترهق يدها من حمل الهاتف لأذنها.

- ألبسها سماعات الهاتف.. أنا أتوسل إليك.

زفر "عمار" بضيق من إصراره، وفعل كما طلب.. وبدأ بإطعامها.. ويمسح بين الحين والآخر عبراتها المتساقطة.. فتأفأف بصوت مرتفع .. حتى ألقى السماعات من أذنها وحدثه:

- ألم أخبرك ألا تزعجها بالكلام.

- لم أفعل شيئًا!

- لكنها لا تتوقف عن البكاء.. لحظة هل تبكي؟! وتقول لم تفعل شيئًا! يكفي بكاؤك لتبكي يا أحمق!

ألقى "عمار" الهاتف من يده، ونظر لها وهي ساكنة لا تتحرك.. وخرج من الغرفة وهو على وشك الاختناق، والضيق يُصاحبه بلا مخرج.. ولم يرجع إلا عندما حضر الطبيب.. سبقه بالدخول، يُلبسها حجابها كيفما اتفق.. أعطاها الطبيب إبرة، واستسلمت للنوم ثانية.

"منـي أقـوال إلـي أفعـال"

هششششش.. اصمـت عليـك اللعنـة.. خربـت حيـاتي.. كل شيء يتهـاوى مـن حـولي.. أتعلـم لم أعـد أتمنـى المـوت إلا لأسـتريح منـك.. عليـك وعـلي اللعنـة!

"أتعلمـون مـا هـو أسـوأ مـن الوقـوع بالحـب هـو أن تختـار الوقـوع بـه"

يقـف "ياسـين" عـلى بـاب غرفتـه ينظـر ل-"نيـار» وهـي نائمـة.. و»عـمار» هـو الآخـر عـلى الأرض يسـتند عـلى الفـراش.. رأسـه يتـدلى عـلى ركبتيـه.. ظـل يراقبهـا لدقائـق حتـى قادتـه قدمـاه لهـا.. أبعـد الغطـاء عـن وجههـا بشـوق أصابعـه تتلمـس ملامحهـا برفـق خشـية إزعـاج نومهـا.. وعندما رمشـت بعينيها توقفـت أصابعـه عـلى وجنتهـا اليـسرى.. أصـدرت تأوهًـا وهـي تسـتند بيدهـا المعلقـة بهـا إبـرة المحلـول.. فانتفـض النائـم أرضًـا، وهمـس:

- ماذا حدث؟

رد «ياسين» عوضًا عنها وعيناه على كفها حيث تقبع إبرة المحلول:

- شكراً لاعتنائك بها، لقد جئت يُمكنك الذهاب.

تشبعت ملامح «عمار» بالسخرية، وقال:

- هل هذا شكر أم طرد! ولعلمك سأبقى معها اليوم.

- حسنًا هلا تركتني معها قليلًا.

نظـر لـه "عـمار" بريبـة، ثـم أزاح نظـره لأختـه فرمشـت لـه بعينيهـا كي يتركهـما.. تحـرك يقـف أمـام البـاب جانبًـا تحسـبًا لأي شيء.. مسـتغربًا أبعـد هذا الكـم الهائـل مـن الخـوف وترجيهـا ألا يتركهـا.. تـرضي أن تكـون معـه وحدهما؟!

بالداخـل أعـاد «ياسـين» بـصره إليهـا بعـد أن راقب خـروج «عـمار».. وتلقاها بـين ذراعيـه يشـدها لصـدره بقـوة لا تخلـو مـن الحنـو، وأطلـق العنـان لعبراتـه حتـى ارتفعـت شـهقاته، وقـال بتقطع:

- أنا آسف جدًا لن أتركك مطلقًا بعد الآن.

رفعت "نيار" يدها قليلًا تمسد ظهره بخفوت.. والواقف على الباب يصله صوت بكائه، ولم يدخل كي لا يرى ما لا يرضيه، وأجبر ساقيه على التحرك للأسفل.

قالت «نيار» بشق الأنفس:

- أين كنت؟ لن أتنازل عن الإجابة!

ببساطة أجاب «ياسين»:

- كنت بالمعرض بفرع القاهرة.. إنه عمل.

- وما طبيعة العمل؟

ببساطة أشد من سابقتها، قال:

- سأخبرك، لن أكذب عليك.. لقد سُرقت أمس بمبلغ هائل.. ولهذا تأخرت عليكِ.. هذا المعرض ما هو إلا واجهة لغسيل الأموال.. نحن نعقد صفقات مزيفة.

لم تصدم "نيار" من رده.. مع أنه كان يجب أن يُشل تفكيرها من هول ما تسمعه، ولكنها لم تبالِ.. الغبي! يُلقي بنفسه بالنار! ويجر نفسه بالمصائب.. صمتت وابتسمت! وقد وجدت سببًا لتشعر بالمفاجأة.. غريبٌ إنه يُجيب ببساطة! مع أنها كانت تنزع منه الكلمات نزعًا أما الآن تعبر بسهولة.. أبعدت رأسها قليلًا تنظر له.. لم يهمها كيف ومنذ متى؟ بل قالت:

- هل مُسكت قبلًا؟

- لا.

إجابته لم تبعث الأمان لقلبها.. ولكنها سألت عن شيء آخر:

- هل تُدخل هذه الأموال للبيت هنا؟

- لا.

لا بد أن هذه الأموال يخصها لدار الرعاية إذًا.. بمَ أنه يتكلم لتستغل الفرصة إذًا، وتسأل عن أشياء أخرى.. لكن طرقًا على الباب منعها.. فقال «ياسين»:

- من؟

- «عمار».

دخل ودخلت خلفه «فرح"، فهمست «نيار» تُناغشه بالقول:

- غريب "عمار" يطرق!

لم يُبادلها المزاح:

- أنت متزوجة الآن وربما أرى ما لا يصح رؤيته!

نظرت «نيار» ل-"فرح" التي بالكاد تمنع ضحكها، و«ياسين» الذي ناظره بجمود.. هي فقط من تستشعر ضيقه وقلة حيلته، والوضع لا يُعجبه مثقال ذرة.. يُجبر نفسه قسرًا فقط لأنها هي من تريد.. بالنسبة لشخص مثله يفقد أعصابه.. ما يفعله الآن فوق تحمله.. لذا لم تُبالِ؛ لتنعته بالرد.. عندما طال الصمت قالت «فرح":

- حمدًا لله على سلامتك.

ثم خرجت بعدها.. في حين فتح «عمار» الدرج جوارها.. و«ياسين» يسأله عما يفعله.. فأجاب وتنفسه يزداد حدة:

- أخرج المحلول الآخر فهذا موعده.

أشارت «نيار» ل-"ياسين» ليسكت فزم شفتيه تعبيرًا عن عدم الرضا.. و«عمار» يوصل المحلول، ويتحكم بسرعته.. ويُعاود الجلوس على الكرسي.. فتزحزحت جهة «ياسين» قليلًا، وطلبت من «عمار» أن يجلس جوارها، وأمسك كفه بيدها الفارغة:

- أنا آسفة.

- على ماذا تحديدًا.. وضحي فلقد كثرت أخطائك!

- آسفة على كل ما فعلت، وأشعرك بالغضب.

قبلت خده، وقالت بابتسامة:

- هل رضيت أم أقبل الآخر؟

تحرك حينها «ياسين» ليغادر.. فأمسكت "نيار" يده تمنعه وتُعيده لمكانه.. ثم أعادت يدها ل-"عمار» ثانية، تقول بصوت لا يسمعه إلا هو:

- انظر للجانب المشرق لقد أصبحت ممن يملكون أنفسهم عند الغضب.. أضف هذا لقائمة إنجازاتي.

دست وجهها بكتفه تخفي ضحكها.. فابتسم «عمار» قائلًا:

- انظري لزوجك يأكل نفسه ويوشك على قتلنا!

نظرت له.. وجدته يتشاغل بالتلاعب بطرف الغطاء، وقالت:

- أنت لا تختلف عنه!

أردف "عمار" هذه المرة بجدية:

- بالله عليكِ اهتمي بنفسك.

- أعدك سأفعل لا تقلق.

"نقطة حقيرة لا أهمية لها ببداية السطر"

"مني أفعال إلي أقوال"

ألا لعنة الله على الظالمين!

هششش! أتهش ذبابة يا أحمق! يا عقل الدود، إن سألت البؤس عنك فإنه يتنحى جانبًا خشية لقياك!

كاذب.. وما الكذب إلا دوائر متشابكة من يدخلها يصيبه وهم الحقيقة..

أتكذب الكذبة وتصدقها؟!

ذات يوم لن تميز الحقيقة من الوهم حينها سألقاك!

"الحب أحيانًا فرص تضيع»

- "عمار" لمَ نحضر التمرين؟ ونحن لن نشارك في المسرحية القادمة؟

أوشك على الرد حين رن هاتفه، فأشار لها بالانتظارعندما وجد اسم شقيقته.. أجاب بقلق:

- أصبحت أخاف عندما أتلقى اتصالاً منك...

- "عمار" أنا بشارع (.....) أمام ملهى (.....) سأدخل.. اتبعني بسرعة.

لم تُعطه فرصة للرد، وأغلقت الهاتف.. فاعتذر وغادر سريعًا وهو يشتم.. غبية.. حمقاء.. لا تتوقف عن التصرف بتهور.. أصابعه تُحاول الاتصال عبثًا فقد أغلقته.

بينما «نيار» دست الهاتف بحقيبتها.. تراقب «ياسين» منذ الصباح، ورأته يدخل المعرض، مكث به ما يزيد عن الساعتين، وخافت أن تدخل خلفه.. لذا انتظرته حتى خرج، ثم لحقته لهنا.. بحيرة من أمرها أتدخل وتواجهه.. أم تكتفي بمعرفة مكانه؟! حثت نفسها على الدخول.. لكن أيستطيع الدخول من هو في مظهرها هذا؟! فلا يدخل من جنسها إلا من هن شبه عاريات ليس حتى من ملابسهن.. لكن أخلاقهن أيضًا وكل ما ينم عن كونهن أناسي أساسًا.. لكنها دخلت لا تعرف كيف؟! المهم أنها دخلت.. المكان صاخب ومكتظ.. عيناها تبحث عنه فقط لا تشغل بالها بشيء آخر.. رأته يجلس على إحدى الطاولات يُقابله شخص ما.. أجبرت نفسها على التحرك نحوه، لكنها توقفت مكانها حين رفع رأسه، ونظر لها بحدة وعينيه تتملكها القسوة.. تنفست بهدوء تستجدي بعض القوة تُحدث عقلها على الثبات «لا تراجع.. هيا تقدمي لمَ الخوف الآن؟ دائمًا ماكنت شجاعة بالمواقف الصعبة ماذا حدث؟! أم أنها شجاعة تظهر بالبداية فقط.. كالقشور الصلبة وعند تقشيرها تجدين كائنًا هلاميًا.. لا وقت لهذه الأفكار السيئة.. لا وقت!» هزت رأسها تلقي بأفكارها بعيدًا، وتقدمت كأنها تجر قدميها جرًا.. في حين غادر الشخص الذي يُقابله.. يبدو أن «ياسين» من أمره بالمغادرة.. وصلت له، ووقفت مقابله له وهو على ذات النظرة حتى أنه لا يرمش.. وقلبها ينتفض..

ومر وقت لا تعلم إن كان طويل أو قصير أو حتى لحظات.. حتى شعرت بيده تمسكها بحزم يجرها خلفه للخارج تحاول تسريع خطواتها كي لا تنكب على وجهها.. حتى خرجا، وأدخلها السيارة، ثم قال بصراخ حامئ..

- كيف سمحت لك نفسك أن تدخلي مكانًا كهذا؟!

انتفضت والسيارة تشاركها شعورها بالانتفاض كنوع من المواساة.. لكنها قالت بثبات لا يعكس ما بداخلها:

- كما سمحت لك نفسك بالدخول!

- وهل تُقارنين نفسك بي؟! بمن هو مثلي... أنا م..

قاطعته بسخرية مريرة فاض بها الكيل، فتشربتها ملامحها قبل صوتها بحد فاق الارتواء:

- دعك من هذه الاسطوانة الفارغة.. أنا شخص سيء.. لا أستحق... وأخبرني ما أدراك أني لا أملك بعقلي سلوكًا منحرفًا! جميعنا نملك.. لكن الفرق أنّ هناك أناس يستطيعون تطويع هذه السلوكيات كي تكون تحت السيطرة ولا تخرج للنور.. هذا هو الفرق الوحيد الذي أراه.

ثم أردفت:

- ماذا كنت تفعل بالداخل؟ ومن كان معك؟

- شريكي.. لقد أخبرتك أنني سُرقت وقد وجدنا السارق، وكنا نحتفل.. ثم، أنت من تصرخين مع أنه أنا من يتوجب عليه الصراخ.. لمَ تلحقين بي؟

ردت بهدوء تُداري توترها:

- أنا لا ألحق بك! أنت من طلب مني أن أخرج وراءك.

ضحك بصوت عالٍ:

- هل تصدقين نفسك؟! مستحيل أن أتفوه بأمر كهذا!

اجعليه يصدقك.. استخدمي كل ما تعرفين من حيل ليفعل لابد أن يُصدق! أدخليه في دائرة الشك.. قالت:

- هل نسيت أنك أخبرتني عن غسيل الأموال.. وأنك أيضًا أخبرتني أنّ أموالها خصصت لدار رعاية المشردين.

نظر لها بصدمة والأحرف تخرج من فيه تماثله صدمة وأكثر:

- مطلقاً لم أفعل!

تصنعت الدهشة.. ثم قالت بخيبة أمل، أجادت رسمها على قسمات وجهها والحروف تخرج مشبعة بالألم، وحاولت إخراج ولو دمعة من عينها لكنها فشلت فنكست رأسها، ومررت أصابعها على أطراف عينها كأنها تمسح عبراتها حقًا:

- هل حقًا نسيت أم تتصنع النسيان؟ لقد أريتني صندوق الصور الذي بالخزانة.. فمن سيفعل غيرك؟!

تمتم بذهول:

- أنا أريتك صور الأطفال بالدار!

همست بهدوء تؤكد:

- نعم.

كانت تنفس باضطراب مع كل كلمة، ثم انتفضت جزعًا عندما فُتح الباب جوارها و«عمار» يصرخ بها:

- كيف سولت لك نفسك أن تدخلي مكانًا مشبوهًا كهذا؟.. أنا أوافقك على كل ما تفعليه ولكنك بهذا الشكل تجرين نفسك للنار مع هذا البائس!

ثار «ياسين» به:

- إياك أن تصرخ بها بهذا الشكل كنت معها.

بسخرية منقطعة النظير قال «عمار»:

- كنت معها! حقًا أرحت قلبي! وهل أنت شخص يُعتمد عليه؟! هذه الحماية أنت من تحتاجها لقد استهلكت أختي ما يكفي من حياتها معك.. بقاؤها معك لا يجلب إلا المصائب.. لذا أتركها ما ذنبها أن تعيش مع شخص مثلك!

لم يفعل "ياسين" شيئًا وأشاح بوجهه.. حتى كف «نيار» التي كان ممسكًا بها تركها.. وعيناه تزوغان منه.. وأبعد بصيرة ذهنه عن حديثهما.. بدأ جسده يرتج بضعف.. يشعر بنقص كبير.. يُشوه حياته.. وهل له حياة من الأساس؟! روح منبوذه تشعر بالذنب للروح التي تُجاورها.. منذ سنوات غاب الأمان من حياته.. والدنيا أعطته روحًا تمده بالأمان مرة أخرى.. فلم يشعر

الآن أنه من أجبرها! لمَ جسده يدعي صلابة روحه لا تعرف مرادفًا لها من الأساس! لمَ صوته يتسم بالثبات والجمود.. وقلبه يرتجف ضعفًا! لمَ الحياة تسد عنه منافذ هرب هو يُحارب ليصلها؟!

"نيار" تستشعر خوفه تعلم أن كلام «عمار» لا بد أنه يؤثر به.. وقد أصابها الإعياء حقًا والمارة يناظرونهم بعيونهم الفضولية التي تتسم بحب الفضائح.. لاحت بنظراتها على «ياسين» المتكور على نفسه لمرة أخيرة، وخرجت من السيارة في محاولة بائسة لتهدأت شقيقها:

- اهدأ لم أدخل إلا..

- كاذبة.. لقد تعرف عليك الحارس بالخارج عندما أريته صورتك!

- دقيقة فقط التي دخلتها .. دخلت لأخرجه.

كل هذا لأجله! يعلم أنه زوجها، ولكنها شقيقته.. الأزواج يتفرقون أما هما إخوة لن يفعلا، لمَ لا تفهم أنها تؤذيه بتصرفاتها هذه.. قال وعيناه تحرقاه من الدموع الملتهبة بها والتي توشك على النزول.. فخرج صوته بإرهاق.. بالكاد أخفى نفسه تحت رداء التماسك الوهن:

- أريحيني وارجعي للبيت.. اتركيه للأطباء.. هم أدرى به وعندما يُعالج.. أعدك سأعيدك إليه بيدي.. أقسم سأرجعك.

لم يكن عليها الاتصال به وإخباره شيئًا كهذا، ولكنها لا تستطيع مقاومة الشعور بالخوف، و"ياسين" لا يُشعرها بالأمان فلا يوجد غير "عمار» هو من يُعطيها هذا شعور.. تمتمت تنكس رأسها:

-أنا أخاف عليكَ، وأخاف عليه.. لذا اترك كل شيء بيد الله فلييسره كيفما يشاء

عادا للمنزل والأمور تزداد تعقيدًا مع «عمار».. كل هذا ولا يعلم إلا القليل فماذا إن علم الحقيقة كلها.. زفرت "نيار" بضيق وهي تخرج من السيارة.. فوجدت سيارة الطبيب.. كيف نسيت موعدهما اليوم! لن تُخبره شيء مما عرفت.. لقد أخبرته كل شيء فلمَ لا تخبره الآن! هكذا أو هكذا

«ياسين» يحكي كل شيء وسيعرف.. اتجهت إليه بينما «ياسين» يركن السيارة.. فسألها:

- هل كنت تلحقينه واكتشف الأمرأم أنه كان مشوارًا عاديًّا؟.. أنا هنا منذ ساعة تقريبًا.. وأنت لن تفوتي الجلسة لأجل أي كان!

ما هذا الطبيب؟! ألا يعرف من الكلام إلا الأسئلة؟ هذا ما ينقصها الآن.. قالت بهدوء:

- آسفة، زفاف أخي بعد عشرة أيام وكنا نساعده بترتيب بعض الأشياء.

يبدو أنه لم يقتنع فما زال ينظر لها بشك، ولكنها لم تهتم.. دخلوا وتمدد «ياسين» حتى يسترخي.. أغلق الطبيب باب الغرفة، ولم يُشعل كل مصابيح الغرفة بل مصباح واحد.

-"ياسين" ماذا حدث بعد رجوعك مع والدك؟ وماذا كان شُعورك نحو شلله ؟

- عندما عدت للمنزل كنت بالعشرين تقريباً أي منذ ثمان سنوات.. امتثلت لأمر والدي في الذهاب للطبيب، ولم أدرِ حينها.. أنهم سيودعوني بمشفى للأمراض النفسية.. قضيت ما يُقارب العام ونصف بمكان تشمئز منه الحيوانات.. كل شخص منا كان عبارة عن قذارة مختلفة لهم.. كان هناك قاذورات مهملة تدفن في الأرض، هؤلاء كنت أشفق عليهم كانوا عبارة عن فقراء تركهم أبوهم دون شيء.. كان الجميع يُخرج عبثه بهم.. فهؤلاء كانوا من الطبقة السفلى يتشاركون الغرف المتكدسة.. أما أنا فكنت من النوع الثاني.. القاذورات التي يُعاد استخدامها.. وتدر عليهم بمال.. فكان يُدفع لنا أموال هائلة للاهتمام بنا.. كنا لقمة من الذهب تُدس في أفواههم الجشعة.. لم يهتموا بنا لكن لم يُعذبونا مثل الباقين.. كنت أضرب كل من يُضايقني أيًا كان.. طبيب، ممرض، عامل، مريض.. أذكر أول يوم اشتبكت به مع أحد الأطباء.. لم أتحمله وكان سيموت بيدي.. حتى تكابل عليّ الجميع، وتعرضت حينها للكهرباء.. لم أصرخ يومها! مع أنّ الألم لا يُطاق!. وكان أبي يأتي لزيارتي يوميًا.. وفي هذا اليوم أخبرته ما حدث لي، وكانت أول وآخر مرة أحدثه.. كنت فقط أبادله النظر.. وكان هو يتكلم بأمل أن أرد.. لكني لم أفعل.. حتى

يذهب وهو يُلقي علي نظرة حسرة كنت أبغضها.. كان سيُغلق المشفى وقتها فالمال يفعل كل شيء! وكانت مشفى قذرة بكل المقاييس.. يوم الرقابة نرتدي ملابس عادية حتى أنهم كانوا يُخرجوننا لنتمشي في حديقة المشفى على دفعات مقيدين كالبهائم ليبدو أنهم يبذلون ما بوسعهم لنرجع لطبيعتنا، وكانوا يحزون على تصفيق حار لجهدهم الخارق! كنت "فتوة" المشفي كما يقولون، الجميع يتحامى بي.. كنت أستطيع الهرب بسهولة، وكنت سأغادر بلا رجعة لكن التفكير بأبي وما قد يفعله به مغادرتي أوقفني.. حتى جاء الدكتور "عبدالمجيد « كان كبيراً بالسن هو من أخرجني من المشفى.. وعندما عدت للمنزل علاقتي بعائلتي كانت وما زالت هامشية لا نستطيع الجلوس سويًا بلا توتر كأننا دائمًا ما نجلس فوق موقد من النار.. الصمت دائمًا يحول بيننا.. كان الطبيب يأتي لي للمنزل.. كنت أمقت هذا الطبيب كان يُخرج الكلمات رغمًا عني مع أني كنت شديد الصمت مع من سبقه لكنه كان ذكيًّا، وكنت أكرهه كما أكرهك.

ابتسم "عمر" بخفة دون أن يقاطعه في الحديث.

- كان يستفزني بطريقة لم أعهدها من قبل.. أجبرني للعودة للدراسة.. ثم مات بعد عدة أشهر.. لكني لم أتراجع عن الدراسة إذ وجدتها فرصة لا تُعوض كي يتركني أبي بحالي دون ضغط.. كنت أمتثل لكل ما يقوله المدرسون تقريبًا.. وكان أبي يتزايد أمله بي.. ووكّل لي إدارة شركته.. والتحقت بالجامعة لكن بالطبع لم أتخرج منها، وفصلت.. كانت سنوات من البؤس بالنسبة لي كنت أمقتهما أكثر من سنوات المشفى.. لقد رأيت الشقاء بالدراسة.

ثم صمت لثوان، وأردف:

- أنا جائع!

انفلت الضحك من بين شفتي «نيار»، فالتفت لها «عمر» يُحدجها بسخط.. وتمتم:

- ماذا؟

- أنا متعب وأريد النوم.

بدأ "ياسين" يُغمض عينيه، ويفتحها بصعوبة.. كي يبدو أنه يُقاوم النعاس..

مـع أنـه يفعـل هـذا ليهـرب.. إلا أنه حقًـا متعب.. بينـما تحركت «نيـار» للمطبخ تحـضر لـه شـيئًا ليأكله قبـل أن يغفـو.. وجههـا جامد.. لكـن عقلها يـدور بوجل.. والإزعـاج يعكـر صفـو تفكيرهـا.. زفـرت بصعوبـة، كأن هنـاك من يمنـع أن تصب أفكارهـا بمخـرج.. تخـاف عليـه إنـه بمصيبـة لا تسـتطيع إخراجـه منهـا.. والأدهى أنـه عاجـلًا أم آجـلًا سـتخبر الطبيـب بالأمـر.. ولا تعلم كيـف سـتكون ردة فعله؟! لمحـات مـن العنـاد تطل مـن عينيهـا تأمرهـا ألا تفعل!

"نقطة حقيرة لا أهمية لها ببداية السطر"

"مني أفعال"

"وهم تشبث بكونه حقيقة"

بلغني أنكم تتساءلون عن اقتحامي الصفحات.. وأي سلطة أمتلكها على القاصة حتى تتركني أفعل ما أشاء..

حسن.. هو ليس ذنبها.. لقد اقتحمت الورق؛ لأنه تمنى حضوري قبل أن تختم القاصة أحرفها عليه.. ولأنه للأسف لا يملك حق الاعتراض أو القيام بما يتمناه.. فقد قررت أن أواسيه لفظيًا لأني الآخر لا أستطيع تنفيذ ما جئت إليه.. لا تستهزئوا. فليس ضعف أو عدم قدرة بل لأني نية والنية ليست وحدها كافية للتنفيذ..

أخبركم شيئًا قد أكون خطرت ببال القاصة وهي لا تعلم.. اممم.. لا قد تكون تعلم وتتجاهل كما الأحمق الذي كتبت علي سكنه..

وربما أكون بخاطر أحدكم الآن.. وربما كنت سابقًا وربما سأكون بالمستقبل.. بانتظار من سأودعه..

❁❁❁❁❁❁

"شدة الظلمة تعمي العيون.. شدة النور تعمي الأبصار.. وشدة السلطة تعمي العقول.. وشدة القسوة تعمي القلوب.."

الساعة الواحدة بعد الظهر.. غريب كيف كانت "سچور" من أشهر قليلة تُريد عرسًا ضخمًا، وهي الآن تجلس بأحد الكافيهات.. لا أحد غير عائلتيهما وأصدقائهما.. بلا موسيقى بلا أي أنواع للصخب.. العجيب أنها من رفضت كل هذه الأشياء! انتبهت ل»عمار» يشير لها بالتوقيع.

أثناء ركوبهما السيارة.. ناظرها «عمار» بغيظ.. ما كل هذا الفستان.. إنها تغرق به.. ثم أين سيجلس هو؟! تحول لغباء وهو يسمعها تُتمتم:

- سنمشي للمطار.. أخبر البقية.

صاحبت كلامها.. خروجها من السيارة.. حاولت لملمة بعضًا من الفستان على ذراعيها.

انسحب الغباء من نظرات «عمار» ببطء.. عندما وعى تركيزه لها.. وقال:

- ماذا تقولين؟! يا رب لمَ أنا مُحاط بإناث غريبات التصرف؟!

جاء صوت «نيار» من خلفه:

- لقد سمعتك! ثم لمَ الاعتراض إنها فكرة رائعة.

وأخته أيضًا ستمشي بمنظرها هذا ألا ترى بطنها.. رآها تتقدمه هي الأخرى، فرمى إحدى حصاة الأرض بقدميه متذمرًا.. هل تم حصادهما من ذات الأرض؟! الناس بالشارع يُناظرونهم بفضول، وبعضهم يتوقف لالتقاط الصور معهم.. وعند التقاط الصور يتراجع «ياسين»، ويشد "نيار" معه للخلف وهي لا تعترض. صوتهم مرتفع .. لا يتوقفون عن الضحك والبعض منهم يُغني.

بينما «عمار» قال مُخاطبًا «نيار»:

- لا أريدك أن تفعلي شيئًا متهورًا كعادتك.. سأتصل بك يوميًا عدة مرات لأطمئن.

أومأت "نيار" برأسها.. وتمتمت:

- أعدك لن أفعل ما يُقلقك.. لا تشغل بالك، واستمتع أنت.

ووقفوا يلوحون لهما حتى اختفيا.. بالداخل قالت «سجور» عابسة:

- للآن لم تُخبرني، أريد أن أعرف أين سنذهب؟

حاوط "عمار" كتفها بذراعه:

- سنذهب لباريس.

صفقت بيدها بحماس:

- رائع.

- لماذا لم تُبدلي ملابسك بدلًا من كومة التل هذه؟.

- وما أدراك أنت! اتركني استمتع بفستاني.. إنه رائع لقد عشقته منذ رأيته.

- أقول هذا لراحتك كيف ستجلسين؟! مقعد الطائرة لن يتسع له.

- سألملمه أنا لا تشغل بالك.

نظرت "نيار" لمن يُجاورها؛ يمسك هاتفها ينظر لما التقطته من صور أثناء عقد القران.. منذ الصباح وهو عصبي المزاج بالكاد رضيَ أن يُرافقها حتى أنه يظهر بالصور عابس الوجه.. لمحت بسمة خفيفة ترتسم على شفتيه.. لكنها ليست التي تتوقعها.. بسمة لا تنم عن الفرح بهذه النظرة التي تنبعث من عينيه.. نظرة تهكم.. سمعته يقول:

- سيولد طفلك قريباً ويُشرفنا!

أدارت عيناها للهاتف.. رأته يُكبر صورتها، ويُشير بإصبعه لبطنها.. دائمًا ينقبض قلبها عندما يتذكر جنينها.. منذ برزت بطنها وكلما حازت عينيه على رؤية بطنها يُركز النظر إليها ونظرته تتحول لمزيج من العداء والكره وأحيانًا الخوف.. ربما لو كانت غيرة عادية لاستطاعت حلها:

- إنه طفلك أيضًا «ياسين»، وأنا أحبه.

قال عابسًا:

- أنتِ تُحبينه! أنا لا أحبه!

لن تستطيع تغيير رأيه، لكنها قالت في محاولة فاشلة:

- لقد أخبرتني أنك تُحبه ألا تتذكر!

- لقد أخبرتك أني ربما لن أكرهه أكثر لو كانت أنثى!

لوت شفتيها بضيق منه وهي تحمد الله أنها أصرت ألا تعرف جنسه إلا عند الولادة.. باغتته:

- "ياسين "أريد الذهاب للدار التي تملكها؟.

ناظرها بحيرة، وفتح فمه ليعترض، فوضعت يدها على فمه، وقالت باستعطاف:

- لأجل خاطري.. إنه إنجاز رائع، وأريد رؤيته.

نظرت "نيار" للمبنى أمامها مكون من عشرين طابقًا.. ليس بفاخر على الإطلاق عادي المظهر لا يُميزه شيء.. لكنه على أرض فسيحة، واسعة.. لكن منذ خطت قدماها داخل المبنى خُطفت أنفاسها، واتسعت عيناها لما تراه.. الطابق الأول مقسم لقسمين.. مطبخ هائل جهة اليمين مجهز بأحدث الأجهزة وجواره جزء خاص بالغسيل.. وجهة اليسار صالات للألعاب المتنوعة.. رغمًا عنها قادتها قدميها جهتها، فتحت أول غرفة وجدتها عبارة عن غرفة لكرة السلة بها عددًا من مُختلف الأعمار.. لا ملابس موحدة كل شخص يرتدي ما هو مُختلف عن الآخر.. اتجهت للغرفة الثانية وجدت بها حمامًا للسباحة.. وهكذا حتى وصلت للغرفة السابعة والأخيرة.. تبدو عليها علامات الانبهار كما الأطفال الصغار حين يحصلون على هدية تخطت مُخيلتهم! بالكاد انتبهت ل-"ياسين" وهو يقول:

- من الطابق الثاني للتاسع للصبية للذين هنا منذ سنوات.. من الطابق التاسع للثالث عشر للإناث.. فما فوق للمستجدين.. بكل طابق اثنتا عشرة غرفة بها عشرة سرائر كل طابق به طبيبين نفسيين.. ويوجد معلمين أيضًا.

- هل يُمكنني أن أُجالسهم قليلًا؟

- يمكنك الجلوس مع الفتيات.. بهذا الوقت تحديدًا ستجدي الجميع يُمارس هواياته كما رأيت بالأسفل.. لكن بالأسفل للصبية أما الفتيات بالطابق الثاني عشر.. يمكنك مشاهدتهنّ وهنّ يلعبن.. بقى ما يُقارب الساعة للانتهاء لذا لا تُعطليهنّ بالحديث.

أومأت برأسها.. وطوال هذه الساعة شاهدت كل الغرف بلا ملل وهو يُجاورها، لكنه فقط ينظر إليها.. كل من يمر يُلقي عليه التحية صغيرًا أو كبيرًا.. معظم الفتيات صغيرات السن لم تجد إلا عشرين مراهقة! تملكتها الشفقة عندما تحرك عقلها للتفكير بهنّ.. عددهنّ صغير مقارنة بالصبية هنا.. الذكور قد يستطيعون النجاة بأنفسهم بالشارع لكن الإناث سيتعرضنَ لكل سوء.. أن يناموا بالشارع ليلًا حيث يهيم كل من هو مريض بأخلاقه قد يُختطفنَ أو أسوأ قد يُتاجر بهنّ.. فمجتمعنا ضعيف مناعة الضمير، وينتشر به وباء الفساد بسرعة الصوت.. فكيف بمن لا يمتلكون ضميرًا من

الأساس يستوطنهم الفساد أكثر ويجد بنية صالحة للنمو والتكاثر.. قالت:

- لمَ أعداد الإناث قليلة! ألا يجب أن يكون اتجاهكم يميل لهنّ أكثر!

- من الصعب جدا الحصول على الإناث إلا إن مر وقت قليل لوكنهم بالشارع.. فهناك أناس يترصدون لهنّ فيتلقينَ مصائر لا يعلمها إلا الله!

اكتظت الطرقات بالفتيات وهنّ يُغادرنَ لغرفهنّ.. فقالت:

- هل أستطيع اللعب معهن الآن؟

- نعم.. لكن سنذهب لنأكل أولًا.

- إنها التاسعة.. سنذهب.. فموعد نومهنّ بعد نصف ساعة.

تحركت "نيار" بتبرم واضح.. لقد لعبت مع ما يزيد عن ثلاثين طفلة بلا تعب.. لا تخرج من الغرفة التي تدخلها إلا عند دخول الأطباء والأخصائيين وهم يطردونها بتهذيب.. حقًا الجلوس معهن متعة لا توصف! اقترحت أن يأتي بها غدًا أيضًا.. بل إنها تريد أن تأتي كل يوم! فقال «ياسين»عند رؤية عبوس عينيها:

- لديهم مدارس يذهبون إليها.. إنهم لا يلعبون هنا!

- ألا تعلموهم بالداخل؟

- نعلم المستجدين، من يتجاوبون ببطء.. أما الباقي فيتعلمون بطريقة طبيعية لذا يذهبون لمدارس عادية.. ولا تأملي فنحن لن نأتي.. أنا شخصيًا لا آتي يوميًا. سآتي بك يوم العطلة.. أعدك.

- هناك فتاة لا أذكر اسمها.. إنها متعثرة الكلام تنطق بصعوبة.. لقد أحببتها بشدة.. لم تتجاوب معي في البداية.. جميلة جدًا كالأميرات.. بها هالة من البهاء تسطع حولها.

- غريب للآن ومع أنها هنا منذ سنة لم تُخبر أحدًا باسمها، لهذا نحن نناديها «حور».. وهذه الطفلة أسوأ حالة لدينا من الإناث.. أنا من وجدتها.. صدفة، وكان لحسن حظها؛ أنها لم تبقَ بالشارع لدقيقة واحدة.. لقد وجدتها بأحد المنازل الفخمة أمها تمررها من وسط قطبان من الحديد وُضعت

بخارج النافذة.. تُنزلها بحذر، وكانت مربوطة بملاءة حول خصرها حتى حطت بالأرض، وذهبت لها حينها.. كانت هزيلة بدرجة لا توصف.. الدماء تملأ ملابسها.. وجسدها مليء بالجروح بعضها عميقًا والبعض لا.. ربما إن لم أرها لماتت من فورها.. أُحتجزت بالمشفى لأربعة شهور.. ذهبت باليوم التالي لمنزلها.. وعرفت حينها أن والدها هو من كان يعذبها هي ووالدتها بأبشع الطرق لا داعي لذكرها أمامك.. لم أجد أحدًا وأخبرني الجيران أنهما غادرا.. ربما اكتشف والدها أمر هروبها فقال أن ينجوا بنفسه.. ربما قتل والدتها لا نعرف! كل ما كانت الصغيرة تقوله «ماما تقول لي اجري بسرعة.. اهربي» .. أخبرتك فقط هوامش قصة واحدة من آلاف القصص التي مرت علينا.. فكيف بالقصص التي تجوب الشوارع.. فأنا كنت قصة منهم.

تحدثت «نيار» تُخاطب نفسها تُكمل كلامه.. كنت ولا زلت «ياسين» فالأمر لم ينتهِ! ما بال الدنيا تتحول لعالم سُفلي مع أننا نعيش فوق الأرض! ما بالهم يتطورون بالزمن ومازالوا يتشبثون بأخلاق الجاهليين! لكن سرعان ما عاد تفكيرها له.. كيف لم يكتشف الأطباء أمر مرضه؟! والمكان! المكان على مستوى عالٍ جدًا من الداخل.. من يعملون لا بد أن لهم رواتبَ شهرية.. أي الأمر يحتاج لأموال هائلة.. إذًا الأمر كما توقعت لا بد أن الصفقات الغير شرعية التي يقوم بها بكميات ضخمة وعلى فترات ليست ببعيدة كي يستطيع التكفل بدار كهذه!

❁❁❁❁❁❁

أخبرها الطبيب أنهم اليوم سيجرون الجلسة بأحد المطاعم.. وأنه حجز المكان لثلاث ساعات لا يدخله غيرهم ليتسم بالهدوء.. لكن «نيار» تعمدت التأخر ما يزيد عن الساعتين.. وبمجرد دخولهما المطعم.. دخل «ياسين» مباشرة إلى الحمام.. للهروب وإيضاع الوقت.. وهي لم تعد تضغط عليه أبدًا بالكلام.. ناظرها «عمر» بغموض لكنه لم يعقب على شيء.. وحين عاد «ياسين» قال الطبيب مُحدثًا «ياسين»:

- اختر ما تُريد لتجلس عليه.

اختـار "ياسـين" طاولـة بآخـر المطعـم فجلسـوا عليهـا جميعًـا.. تحـدث الطبيـب مشـددًا عـلى كلامـه.

- هل تشعران بالجوع؟ هل أطلب شيئًا يُؤكل أو يُشرب؟!

ونظـرة الشـك تنبعـث من عينيه يظنها تُخفي شـيئًا عمـدًا.. هربـت بعينيها، وقالـت بتوتر:

- لا شكراً.

وبدأ «ياسين» بالسرد.. لكن بتلكؤ كعادته بالأيام الفائتة..

- لقـد كانـت هـذه الفـترة.. فـترة الحريـة والانطـلاق بالنسـبة لي.. سـافرت في كل مدينـة ليـس كمـشرد لـص يهيـم بأقـذر الشـوارع.. بـل كنـت أذهـب بـكل رحلـة تقـوم بهـا الشركـة لأرقـى الأماكـن.. أماكـن لا يشـغلها إلا الأجانـب وذوو الطبقـات العليـا.. أتحـدث الآن ثـلاث لغـات بإتقـان.. وتسـعة لغـات أعـرف عنهـم مـا ليـس بقليـل.. تعلمـت تاريـخ بلدنـا وعشـته.. زرت كل مدينـة مـرات عـدة.. وأيضًـا هـذه الفـترة لم أكـن أرى والـدي إلا مـرات تُعـد عـلى أصابـع اليـد في الشـهر، وكلهـا لدقائـق معـدودة حتـى أصبحـت بالثالثـة والعشريـن.. تعرفت عـلى «أسـعد» وأصبحنـا صديقـين.. وأنشـأنا المعـرض.

- متى أنشأت مؤسسة دار رعاية المشردين إذا؟

امتقـع وجـه «نيـار» وهـي تُفكـر أنـه سـيعرف كل شيء، وسـتكون بورطـة لا حـل لها!

- أنشأتها منذ ثلاث سنوات.. حين كنت بالخامسة والعشرين.

- وماذا حدث بالفترة بين الثالثة والعشرين حتى الخامسة والعشرين؟

حينهـا حـضر مالـك المطعـم يُخـبره أن وقـت الحجـز انتهـى وسـيدخل العمـلاء.. فأعطـاه الطبيـب بطاقتـه الإئتمانيـة ليكـرر الحجـز.. لكنه اعتـذر أنه لا يقبـل إلا كاشًـا.. ففتـش بجيوبـه، ولم يجـد فنظـر لـ-"نيـار".. ووجدتهـا فرصـة لا تُعـوض تُأخـره بمعرفـة الحقيقـة ولـو مؤقتًـا.. فاعتـذرت أنهـا لا تملـك.. فنظـر لها «عمـر» بشـك.. فقالـت:

- يُمكنك فتح حقيبتي وتفتيشها!

نظر لـ-"ياسين".. فالتفت الآخر برأسه للباب.. وتمتم بتشدق:

- ألا تتقاضى مقابل هذه الجلسات؟ فلمَ أدفع زيادة؟!

ابتسم «عمر» بسخرية..

- سآتي غدًا لكما الساعة الواحدة.. لا تذهبا لأي مكان.

باليوم التالي ظهرًا.. تتجول "نيار" بالغرفة بتوتر.. هل تُخبر والدتها أن تقضي اليوم هنا حتى تمنع الطبيب من الحضور؟.. لكن حينها سيعلم أنها تعمدت.. وما الفائدة إن لم يعلم اليوم سيعلم غدًا؟.. وإن علم لن يكون هناك احتمال بمساعدتها فسابقًا عندما علم أنه قتل السارق.. لم يفعل شيئًا! ربما لأنه كان من الماضي وولى، ولن يستطيع تغييره أما الآن فهو سيبلغ الشرطة ليمنعه لأنه شيء بيده.. وسيسجن لا محال.. رن هاتفها.. ففتحته:

- مرحبًا دكتور «عمر».

- أريد أن أعلم إن كنت تُخفين شيئًا عني.. فلقد لاحظت أنك متوترة والارتباك يتملكك منذ فترة.. فلا تكذبي وأخبريني بما عرفته.. فربما تظنين أنك تساعدينه وما يحدث العكس.. وهو أنك تُزيديه انتكاسًا.

صمت للحظات، وأردف:

- هناك شيء آخر لم أكن أريد أن أخبرك به الآن، ولكني لا أريد خداعك.. عندما ينتهي زوجك من سرد حياته حتى يصل للوقت الحالي.. حينها سأقوم بحجزه بمصح، واحتمال كبير أن يكون بالخارج! لذا أيًا كان ما تُخفيه كبيرًا أو صغيرًا لن يُغير شيئًا مما سيحدث له.. ولم أخبرك من البداية لأنك لم تكوني لترضي قط، وحينها هو الآخر لن يرضي بالتحدث ولو قيد أنملة، فأنت هي الوسيلة الضاغطة عليه حتى يرضى.. كما أني كنت أريده أن يشعر بالراحة تجاهي كي يستطيع التحدث وكي يتأكد أنه لن يُصيبه شيء مهما قال.. آسف لسماعك هذا ولكنها الحقيقة.. سأصل بعد نصف ساعة لذا أخبريني رجاءً بما تعرفيه.

ردت "نيار" بعد فترة صمت بتخاذل:

- ما عرفته منه.. أن المعرض ما هو إلا واجهة لغسيل الأموال.. لقد قال

إنـه يزيـف بعـض الصفقات.

- وماذا؟

- هذا كل شيء.

وأغلقـت الخـط.. دخلـت الحـمام.. وضعـت رأسـها بالكامـل تحـت الصنبور.. تشـهق بعنـف.. المـاء يغمـر وجههـا بالكامـل.. وكأنهـا تلقـت رصاصـة أصابـت موضـع قلبهـا ببراعـة، لكنهـا لم تقتلها بـل تركت قلبها ينـزف بلا اندمال، سيسـافر وسـيذهب بعيـدًا.. كيـف لم تُفكـر بهـذا الشـكل قبـلًا؟.. لـن تـراه ربمـا لسـنوات قادمـة أو حتـى للأبـد! أغلقـت صنبـور المـاء، وجلسـت تسـتند عـلى الحائـط.. مـاذا عـن طفلهـا! غبيـة، لقـد أخبرهـا قبـلًا أن هـذه الجلسـات ماهـي إلا لمعرفة جوانـب مـا تعـرض لـه بحياتـه.. طرقـت رأسـها بالحائـط.. كيـف لم تُفكـر بهـذا الأمـر؟.. أيـن كان عقلهـا؟! لقـد تعبـت وشـحب قلبهـا.. كأنـه ضُرب بسـياط.. أجفلـت؛ تسـمع طرقًـا للبـاب، و"ياسـين" يُناديهـا بقلـق.. التقطـت منشـفة تُجفـف وجههـا وشـعرها، واسـتندت عـلى الحـوض تنصـب قامتهـا:

- سأخرج حالًا

"ارتباك بالحروف"

بباريس تحديدًا بقوس النصر.. تُمعن «سچور» النظر بالأسماء التي تملأ الجدران و«عمار» يناظرها بقنوط.. تستخدم عينيها في الفحص والتدقيق.. وكأنها ستفهم شيئًا مما هو منقوش! كلما ذهبوا لمكان ما تريد قضاء اليوم بأكمله هناك.. ولم يبقَ إلا يوم واحد ليغادروا ولم يرَ نصف ما خطط له.. وكلما اعترض.. تبرر أنها لا تريد أن يبقى بنفسها شوق لشيء رأته.. انتبه لها تهمس:

- هيا لنصعد.. المنظر رائع فوق.

- هل تعلمين أنه يجب علينا تسلق ستة وأربعين درجة حتى نصل للأعلى؟

أومأت برأسها.. فأردف بيأس:

- وتعلمين أنه لم يبقَ إلا ساعة للعشاء الذي حجزته بنهر السين؟

- هذه غلطتك "عمار".. كان يجب أن تُشاورني.. هل كلفك الكثير؟

أمسك كتفها يحثها على التقدم، فقد لا يفوتهما الحجز مع أنه لا يظن! فهمست:

- هل أشم رائحة للتذمر هنا؟

- تذمر! من أين؟ أنفي لا يشم إلا رائحة البرد.. أنذهب لطبيب للإطمئنان عليك!؟

- أكمل على هذا النهج "عمار" فأنت تُضحكني!

- كلي تحت أمرك.

بعد يومين.. الساعة الثانية ظهرًا.. يبدو أن الجميع اتفق أن يأتي بنفس الموعد لزيارتهم.. المنزل مكتظ بالضجيج.. الفرقة بأكملها.. عائلة «سچور».. "نيار" وزوجها! كلما نظر لأخته وجد الحزن مرتسمًا عليها وحين تتلاقى أعينهما تبتسم ابتسامة باهتة لا تُرضيه.. صوتها حزين منذ يومين، وحين كان

يسألها.. تصمت لثوان وكأنها تريد قول شيء، ثم تُجيب "بلا شيء"! فأفلت يد زوجته وهي منشغلة بالحديث.. أمسك بذراع «نيار»، وقال:

- تعالي معي أحتاجك لدقيقة.

صعد بها غرفته، وأغلق الباب خلفه، وقال:

- حالًا أريد أن أعرف ماذا يحدث معك؟ ولا تكذبي.. انظري لعينيك، بمجرد سؤالي ستنفرط الدموع منهما.. تكلمي.. والله لقد تعبت.. تكلمي.

ألقت بنفسها عليه تشهق بالبكاء.. فربت على رأسها بحنان، وبدأ بمسح عينيها التي تذرف الدموع بغزارة بكفيه.. بعد وقت قصير خفّ بكاؤها، فقالت بتشتت:

- سيسافر «ياسين» للخارج، وسيدخل مصحة عقلية! سيسافر يا «عمار»! وسيطول غيابه.

صمتت تلتقط أنفاسها المجهدة، وأردفت:

- إنه مرض نفسي ليس عضويًا يمكن استئصاله أو زرعه.. فهل سيستئصلون عقله مثلًا ويضعون غيره! سيغيب لأجل غير معلوم.. لا بد أنك سعيد الآن!

سعيد! يكفي أن ينظر لحالها، ويُصيبه حزن العالم! على الأقل «ياسين» سيعود شخصًا طبيعيًا.. أما هي ستظل معلقة.. وماذا عن طفلها! لقد كان محقًا بكل ما أخبرها به.. قال:

- وبالطبع ستصرين على انتظاره! أليس هذا ما ستقولينه! ولكني سأمنعك.

- أفكر جديًا بمرافقته للخارج.

صمت لثوان.. يتأكد مما سمعه.. يُتيح لعقله الاستيعاب.. هل ما سمعه صحيح؟ هي بالتأكيد تهذي ولا تعي ما تقوله! لن يحصل أبدًا ما تتفوه به.. سيصطحبها معه بالتدريب فهم يحضرون لعرض بالأقصر، وسيكون فريدًا من نوعه كما أنّ التدريب يزخر بالبهجة والمرح هذه الأيام وهي في أشد الحاجة لهذه المشاعر.. قال:

- تُرافقينه إلى أين يا قلبي؟! يبدو أنه أصابك مس منه.

- لا أحتاج لتأنيبك "عمار"! يكفي ما بي!

- لا والله أنت تحتاجين لتأديب! وأنا الأحمق أسايرك بالكلام.. قولي هذا لأمك لتموت! ما أنت به من الصدمة، وستنسين بعد وقت هذه الخرافات.. انسيه وأكملي حياتك مع شخص آخر.

هي و«ياسين» يشبهان الشهيق والزفير.. هل رأيت يومًا إن طُلب من أحدهما التخلي عن الآخر فلن يكون هناك سبيل غير الموت.. هل يطلب منها أن تتخلى عن زفيرها..عن حياتها؟!

بل.. لا.. هي زفيره.. إنْ بقى ثاني أكسيد الكربون بالجسد سيميته لا محالة.. وهي تُخرج ما يؤذيه.. وبدلًا من أن يخرج للجو تتلقاه هي داخلها! يبعث بداخلها شعورًا ملتهبًا يحرق كينونتها.. هل هذا الحريق حقًا بسببه.. أم أنه مرتبط باسمها؟!

ولا.. لا.. هي ليست زفيره فقط! هي شهيقه أيضًا.. فهي تُعطيه ما يُنعش ويُريح أنفاسه..

هي كنهر عذب.. وهو كبحر مالح.. وبعد أن تعبت بإزالة الحد الفاصل بينهما.. كلاهما يُريد أنْ يفرض نفوذه ويصب بالآخر.. وهي تشعر أنّ عذوبتها ستخسر فملوحته أقوى!

❁❁❁❁❁❁

تجلس "سچور» بالفراش تُقلب الهاتف بيدها.. حين عرفت بما حدث ل»بتول» تذكرت أنهما لم يتبادلا أرقام الهواتف.. وحين سألت عنه أخبروها أنّ ابن عمها أخذه منها، ولا يعلمنَ رقمها الجديد.. فأخذت رقم صديقتها؛ شقيقة زوجها.. ومن يومها تُريد الاتصال ولا تفعل! لكنها اشتاقت لها ولحديثها.. جال بخاطرها فكرة، فنادت للنائم جوارها.. فهمهم بتساؤل.. فأردفت:

- أريدك أن تأخذني لصديقة لي.. فلم أرها منذ وقت.

- أنت العروس.. فيجب أن تأتي هي.

- لقد وقعت بمشكلة، ولا تستطيع زيارتي.. وأنا أريد الاطمئنان عليها.

- حين يحل الصباح سأرى.. ثم اشفقي علي، واتركيني أنام.. فيبدو أنك

نشيطة بعد أن نمت طيلة النهار، وكأنه لا ليل لننام به!

صباحًا وهم يتناولون الإفطار..»سچور» ترجو "عمار" أن يذهب بها.. حتى والدته ترجوه أيضًا.. فقصة صديقتها تُفطر القلب.. ولقد أوجعت قلبها هي الأخرى.. فبرم شفتيه.. لقد تحالفتا وأنشأتا حزبًا للنسوة من وراء ظهره.. تأمل حزن ملامحها فلان مزاجه قليلًا، ومع هذا قال بعناد:

- سيستغرق الذهاب والإياب اليوم بطوله يا قرة عين "عمار" لهذا السبب.. أنا أرفض رفضًا قاطعًا.. لو كان هنا لذهبنا.. ثم ما قصتها هذه الصديقة؟

- سأخبرك بالطريق.. بالله عليك «عمار» لقد حصلت على عنوانها بمشقة؛ صديقتها حققت معي كالمجرمين! تظن أني من أقارب أهلها! أرجوك لقد اشتقت لها جدًا يا «عمار».

- عيب عليكِ أن تنطقي هذه الكلمة، وأنا جوارك.. كيف تشتاقين لأحد وأنا هنا؟! كنت سأصطحبك لو لم تقولي هذه الكلمة.. ثم أنت لا تُنفكين قول «عمار».. "عمار".. بالله عليك غيريها.. ماذا عن قلبي.. حبيبي.. أي شيء أنا راضٍ.

تقف "سچور" أمام شقة «بتول» تقرع الجرس.. بينما «عمار» ينتظرها بالسيارة.. انتظرت لدقيقتين حتى فُتح الباب.. قالت «بتول» من فورها:

- "سچور»! ما هذه المفاجئة؟! لم أتوقع أن أراك.. آسفة لتأخري بفتح الباب.. فعندما يرن الجرس و"فؤاد" ليس هنا يُصيبني الجزع خشية أن يكون أهلي.. آسفة لم أدعك للدخول.. تفضلي.. كيف هي أحوالك؟

- بخير.. لقد تزوجت من عشرة أيام.. لا تشغلي بالك بي، وأخبريني أخبارك أنت؟

تبدلت ملامح «بتول» للحزن فجأة.. ماذا تقول؟! لا بد أنّ الجميع علم ماحدث لها.. ما يؤلم قلبها حقًا أنّ أمها ما زالت على دينهم، وإن غيرته لن تستطيع النجاة مثلها؛ قلبها يُخبرها أن تفعل، وعقلها يتجبر، ولكنها ستظل وراءها.. لقد اتصلت بوالدتها مرة.. ثم أصبحت أمها تتصل بها بالخفاء.. تعلم أنها ستوقع صك موتها بمجرد إسلامها.. لكن أمر الله نافذ حتى لو لم يقتلوها! وأن تموت مؤمنة خير من أن تعيش كافرة!

بينما فسرت «سچور» حزنها بطريقة خاطئة.. هل هي ليست سعيدة بزواجها؟! نعم ولم لا يكفي أنها بعيدة عن عائلتها.. والفضيحة التي حصلت لها.. همست بخفوت:

- آسفة لما سأقول لكن بنفسي ضيق من طريقة زواجك.. تتزوجيه لأنك لا تمتلكين خيارًا آخر للنجاة ألا يُعد هذا ظلمًا!

- إنْ حدث لك ما حدث لي، إن رأيت خوفه علي لما تفوهت بشيء كهذا! حظيت بعائلة غُمست بمنبع الحنان فخرجت لا تتفوه إلا بما هو طيب.. لكني لا ألومك، فأنا الأخرى كنت أفكر بنفس طريقتك.. إذ ظننت أنّ بمجرد إسلامي ستُفتح كل أبواب الخير والعطاء بوجهي.. ولم أفهم أنّ إسلامي هو العطاء بعينه.. عطاء لا يُوازيه عطاء آخر.

صمتت ثم أردفت:

- هل تعرفين الأستاذة «حياة»؟

أومأت «سچور» برأسها.. فهي أكثر معلمة توصل لعمق الفهم.. انتبهت ل-"بتول" حين أردفت بتأثر:

- هي من علمتي هذا الدرس.. مازلت أتذكر إجابتها لي بالحرف.. إذ قالت "مشكلة مجتمعنا أنهم يُشجعوننا على الصبر بطريقة خاطئة! يُعطونا نماذجًا لمن يفتح الله عليهم أبواب الخير بالدنيا.. ونسوا أنْ يُخبرونا أنّ نتائج الصبر ليس شرطًا أن نراها بدنيانا.. فلو أعطانا الله الدنيا بما فيها من خير لن تزن مثقال ذرة من تراب الجنة! فكري معي قليلًا ماذا سيحدث إن ترك شخص ما وظيفته المرموقة والتي لن يجد لها مثيلًا ولن يحصل على مرتب كمرتبها لأنه اكتشف أن بها شبهة أو ربا مثلًا ليس لشيء إلا لرضا

اللـه واسـتعاض عنهـا بوظيفـة بسـيطة قـد لا تكفـي أسرتـه؟ سـيبقى ينتظـر أن يُعوضـه اللـه وإن لم يحـدث مـا يتوقعـه.. هـل سـيرجع لوظيفـة الأولى؟! ويضيـع صـبره وتضحيتـه هـدراً! فكـري أيضًـا إن بقيـت فتـاة بـلا زواج ونحـن نـردد عـلى مسـامعها.. اصـبري سـيرزقك اللـه بمـن يُعوضك خـيراً.. مـاذا سـيحدث إن لم تتزوج أو أسـوأ أن يرزقهـا اللـه بـزوج سيء؟ هـل سـتكفر مثلًا؟ حينها سـتتدمر نفسـيتها وتُوسـوس لهـا نفسـها لـو كان مـا صـبرت عليـه خـيراً لجزاهـا اللـه خـيراً! فلـمَ لا نُخبرهـم مـن الأسـاس أن ينتظـروا عظيم ثـواب صبرهم بالآخـرة.. ثواب مـا تنازلوا عنـه لرضـا اللـه بالآخـرة كي لا يضيـع صبرهـم هباءً. هنـاك أنـاس لم يتذوقـوا مرارة المصائـب المتتاليـة وعندمـا تتحدثـين معهـم لا يتوقفـون عـن التذمـر والشـكوى لأجـل مـا هـو تافـه! يقفـون عـلى بـاب الصـبر ينتظـرون الجـزاء دون أن يفكـروا بطرقـه حتـى! لا يعلمـون شـيئًا عمن يمشـون فيـه بيقين وأجسـادهم تقطـر دمًا ومـع هـذا يبتسـمون ولا يشـتكون لغـير اللـه.. وصمـت تنظـر لي، ثـم أردفـت: وأنـت يـا «بتـول» إن علـم أهلـك هـل سـتتراجعين خشـية المـوت وطلبًـا في الحيـاة؟!. لم أرد حينهـا موقنـة إن حـدث شـيئًا كهـذا كنـت سـأتراجع ولـو حتـى ظاهريًـا كي لا أفقـد نفـسي.. أمـا الآن لإن قطّعـوني إربًـا لـن أفعلهـا قـط.. لهـا جزيـل الشـكر علمتنـي أشـياءً إن بقيـت سـنوات أعلـم نفـسي لـن أعرفهـا.. ولا زلـت أتذكـر كلمتهـا المشـهورة «إنْ أردت أنْ تعـرفي الإسـلام عـلى حق فاسـألي من أسـلم مـن الـدول الأجنبيـة كيـف كانـت حياتهـم قبـل الإسـلام؟ وكيـف أصبحت بعـد الإسـلام؟.. لأننـا هنـا ربمـا لـن تسـتطيعي التفريـق بـين مسـلم ومسـيحي لتقـارب العـادات، ولأنـه هنـاك مـن المسـلمين مـن لا يُطبقـون دينهـم!"

***

يجلسـون جميعًـا عـلى الأرض.. "نيـار" و"ياسـين" و"فـرح".. وسـط أجـواء مـن البهجـة.. لقـد صنعـت "نيار" مُجسـمات بأشـكال هندسـية عـدة.. والجميع يقصقـص الصـور.. وهـي تقـوم بلصقهـا.

الطبيـب قلـل الجلسـات لجلسـة كل أسـبوعين.. إنـه فقـط ينتظـر موعـد التسـليم القـادم.. لقـد عرفـت مـن "ياسـين" أنـه بعـد ثلاثـة أسـابيع.. يـا إلهـي! هـي لم تكتـفِ بإخبـاره فقـط.. بـل أعطتـه جميـع التسـجيلات! دون أن تعلـم

عواقب ما فعلته.. مع أن الطبيب أخبرها أنه سيخبر الشرطة.. ثم سيقدم أوراق مرضه.. وبعدها يُهيئ لسفره.. إلا أنها غير مطمئنة.. لقد حسمت أمرها بمجرد أن تلد ستسافر له.. "عمار" سيعلم الحقيقة بأكملها ووالدتها أيضًا وسيصعبان الأمر عليها.. صدح رنين هاتفها فالتقطته.. وتحركت مبتعدة كي تُجيب:

- ماذا تُريد يا "عمار"؟

قطب "عمار" حاجبيه استغرابًا من لهجتها الباردة.. وتمتم:

- ما هذه اللهجة التي تُحدثيني بها! هل ممنوع أن أطمئن عليك؟!

- آسفة «عمار».. أنا بخير لا تقلق.

- سآتي بعد نصف ساعة.. فأنت لم ترضِ المرة الفائتة.. سترافقيني اليوم ودون اعتراض.. فالتدريب مليء بأجواء من المرح والهرج.. فربما تعود البسمة لوجهك! ولا ترفضي. كما أني أريد مساعدتك بصنع نماذج من أدوات الحرب المستخدمة قديمًا كالرماح والسهام.. إن حضرت ستعلمين أنك فعلت الصواب.. إنهم يتشاجرون منذ الآن لتأدية دور الملك.. وبالطبع سيؤديه «ياسر» فهو يمتلك عضلات لذا فهو الوحيد الذي يليق عليه الدور.. صحيح أنها صغيرة لكن لا أحد يمتلك عضلات غيره!

لا بد أنّ هذه المسرحية التي قال أنها تحكي قصة الملكة حتشبسوت.. إنها متشوقة له منذ الآن.. لكنها متعبة، ولا تريد مفارقة زوجها:

- ومتى العرض؟ فقد نسيت.

- بالطبع أنت لا تذكرين سوى زوجك.. بعد اثنين وعشرين يومًا تقريبًا.. أعلم أن السفر سيكون متعب لك.. لكن...

- أي سفر "عمار"!

- ألم أخبرك أنه سيكون بالأقصر بمعبد حتشبسوت؟.

أغلقت الهاتف وجلست بوهن.. نفس المدة المتبقية قبل أن يسافر «ياسين» ما هذا اليوم! يوم سعيد لشقيقها.. وأسود بالنسبة لها!

أصبحت عادة الحياة أن تُهديها حزنًا.. ما أقسى الزمن عندما تتوالى علينا جميع ألوان الألم.. إذ يبدو أنه لا وجود للنور! هي للآن لم تيأس ولن تفعل

قـط.. مـا زالـت تبحـث عـن شـعاع منـير بـين طيـات جنباتهـا.. ومـع أنهـا خاليـة منـه للأسـف.. مـا زالـت تبحث باسـتمامة..

اليـأس، هـو لعنـة.. إذا حلـت عليـك أهلكتـك عـن بكـرة أبيـك.. فـلا سـبيل لخروجها.

اليأس، هو وباء يغزو روحك قبل جسدك.. فيقيد مقاومتك.

وهي أبدًا.. أبدًا.. لن تستسلم له.. ولن يتسلل لها قط.. مهما حاول..

أيـن بصرهـا الآن؟ بصرهـا بصفحة بيضـاء.. يُناظـر كلمات تدل على مسـتقبل مُبهـر بجمالـه.. ولا تملـك إلا أن تتنهـد بولهٍ له.

"نزاع"

"ق.. ي.. ا.. ب.. ن.. ه.. د.. ا.. ي.. ة"

يوم العرض.. قبل انتهاء المسرحية بنصف ساعة..

بالصف الأول يُناظر "ياسين" هاتفه بلا أن تحيد عينيه عنه، لقد استجاب ل-"نيار»، وحضر هذه المهزلة دون أن يكون بالمعرض في انتظار مرور الأموال من المطار بسلام.. والاطمئنان أن كل شيء يسير على ما يُرام.. و»أسعد» تأخر بالاتصال به، وكان لا بد أن يتصل من ساعة على الأقل.

أما من تُجاوره تقطر عرقًا من فرط التوتر.. لقد أخبر الطبيب الشرطة اليوم عن كل شيء، ولابد أنهم أمسكوا بهم أو على الأقل بطريقهم لفعلها.. و»ياسين» كلما مرت دقيقة يزداد عبوسًا.. وربما هذا اليوم سيكون اليوم الأخير الذي ستراه فيه.. لقد هيأ "عمر" للسفر بآخر الأسبوع.. سيلقون القبض عليه وعلى شريكه ومن يتعاملون معهم بالداخل.. وسيقدم أوراق مرضه وبهذا الشكل لن يُثبت عليه شيء، وحينها سيستطيع السفر للعلاج.. أجفلها «ياسين» وهو يقول:

- ما بك؟ لمَ كل هذا العرق؟.. هل من الحرارة؟

- ها! نعم.. فلا حاجز بيننا وبين الشمس إنها فوق رؤوسنا مباشرة؟.

قبل انتهاء العرض باثنتي عشرة دقيقة.. رن هاتف «ياسين».. أوشك على الصراخ لكنه توقف حين وجد «أسعد» يلهث، قائلًا:

- لقد كشف أمرنا.. أنا بالمعرض وسأغادر الآن.. سأحاول الاختفاء لعدة أيام.. ماذا ستفعل؟..

لكن الاتصال انقطع!

أثناء مكالمته رن هاتف «نيار».. فردت بهمس كي لا يسمعها «ياسين»..

- مرحباً دكتور.. ماذا حدث؟

- اسمعيني جيدًا.. اخرجي أنت وزوجك من هناك.. أنا على وشك الوصول.. دقيقة وأكون أمام المعبد.. لذا أسرعي بالخروج.. لقد أصرت

الشرطة على القبض على زوجك وهم على علم بمكانه، وأظنهم أوشكوا على الوصول.. ولا وقت أمامي لأشرح أكثر.. الشرطة رفضت الورق وقالت هذا شيء يُحدده القاضي.. أسرعي..

أمسك بها «ياسين» يجرها بحدة، فوقع الهاتف من يدها، واضطربت أوصالها.. واستجابت له تُجاري خطواته، وقالت برهبة:

- ماذا هناك؟

- لقد أمسكت الشرطة ب-"أسعد"؟

- كيف؟ وماذا سيحدث الآن؟ ثم أين تأخذني؟

- لا تقلقي.

قاطع كلامه حضور الطبيب ووقوفه أمامهما.. فتوقف «ياسين» متوجسًا، وقال:

- ماذا يحدث؟

أوشك الطبيب على الرد حين علا صوت سيارات الشرطة يدل على قربهم.. فنظر «ياسين» لها بقسوة.. يكاد يكسر يدها بيده.. وصرخ:

- أنت من أخبر الشرطة.. هل خُنتي ثقتي؟! تكلمي.

لم تنطق «نيار» بحرف، فقط تذرف الدمعات بصمت.. فقال الطبيب عوضًا عنها:

- أنا من فعلت.

هزها «ياسين» بقوة:

- أنتِ من أخبره! أنا لا أصدق! لم لا تنطقين؟!

- اتركها أنت تؤذيها.. هي لم تفعل شيئًا!

أبعدها «ياسين» وراء ظهره.. وأشهر سلاحه.. أفلتت «نيار» نفسها من بين يديه.. وتحركت أمامه:

- لا تفعلها.. أرجوك.

بينما تقهقر الطبيب للخلف ببطء، وقال:

- لم تُخبريني أنه يحمل مسدساً هنا.

صرخت «نيار» به:

- وهل كنت أعلم؟

حاولت الإمساك بالمسدس ومنعه، لكنها فشلت.. أزاحها «ياسين «بعيدًا بيده، وصاح:

- ابتعدي.

ضغط على الزناد فتحركت «نيار» مسرعة.. ودفعت الطبيب تُوقعه أرضًا.. وتلقتها هي عوضًا عنه!

سقط «ياسين» على ركبتيه لا يُصدق ما يرى! جثتها ملقاة على الأرض والدماء تسيل منها.. خدر، خدر.. يفتك به.. لو كان كابوسًا ما يحصل لاستطاع النجاة، ولكنه الواقع والواقع أشد بأسًا! لا يُصدق بيده هذه تسربت حياته وكأنها تحتوي ثغورًا فلم يبقَ شيء! لقد أخطأ الهدف! أم هي من تدخلت! لا يهم لقد فقدها! فقدها بيده! لقد سرقت قلبه بغتة حين رآها لأول وهلة.. وهاهي تسرق نفسه، روحه، قلبه، عقله وكل ما فيه معها.. ضباب أسود اخترق بصره.. حلمه بحياة سعيدة أصبح بعداد الماضي فهو لم يتجاوز كان!

عندما يتجسد أملك في الحياة قِبل عينيك.. وتمتلكه بين يديك.. ولكن! بيدك يمسوا كسراب كان!

حين يأتيك ماضيك على هيئة مستقبلك فيجعلك رثًّا تتخبط بمنطقة نائية.. لا هي موت ولا هي حياة.. تُنازع بين مرض العقل واعتراض القلب.. تُناضل كي تحظى باللحظة التي تحتضن الأرض جسمانك.

ينظر لأصابع يده المرتجفة بكره شديد أي تبرير أحمق سيقوله سيضعف موقفه.. خذلها أسرع مما تصور.. الندم شعور يرفض أن يمر على عقله.. هو يجب أن يموت.. لا حل آخر له غير الموت.. نظر للأرض يبحث عن مسدسه الذي وقع منه.. ينوي قتل نفسه.. لكنه لا يرى سوى أقدام! رفع رأسه فوجد المكان مكتظ بالشرطة.. زحف بجسده يُريد الوصول إليها.. فأطرافه صلبه من الألم.. لكن حينها أمسكته رجال الشرطة.. صراخ، صراخ.. عقله

يُعطيه أوامر للصراخ، وكل خلية بجسده تطلب حقها بالصراخ.. لكن فمه فقط هو من يُترجم.. وصراخه يكاد يهز المعبد بمن فيه! فبدأوا بضربه ليزجوه لعربة الشرطة.. لكنه لا يتوقف!

"نقطة حقيرة لا أهمية لها ببداية السطر"

"مني أفعال"

"وهم تشبث بكونه حقيقة"

وقت انسدال الستار لمن لم يعرف..

وبلا كثرة حديث فقد اكتفيت من السباب..

أنا الميل للانتحار!

أراكم قريبًا..

وهذا يعني أن سآتيكم.. ووجب علي تحذيركم..

البعض ينتظرني والبعض الآخر يحترس مني..

قبلة على الجبين قبل الوداع.. قبلة جبين! أيهما تشبه أكثر قبلة الأم قبل الشروع بالنوم أم قبلة الوداع قبل الغسل؟

الثانية أليس كذلك؟

أنا أحضر وبنيتي توديعكم..

ولا أودع إلا المقبلين على الموت!

قبلة على الجبين قبل الوداع!

"تعلمون؛ الحب فقد وحنين"

بالمشفى، يمسك «عمار» كفها برفق.. ولسانه يُردد «ستكونين بخير.. ستكونين بخير.. ستكونين بخير».. همست "نيار" بإعياء:

- اعتني بطفلي.

- لا تقولي هذا الكلام.. ستكونين بخير.

- آسفة يا أخي.. أخبر أمي أني آسفة.. أنا أحبه.

ترك يدها بشق الأنفس، وهم يبعدوه عنها ليُدخلوها غرفة العمليات.. تهاوى جسده أرضًا وهو يصيح من شدة الوجع الذي حل به.. طرق رأسه بالجدار.. لقد رآها وزوجها يجرها خلفه قبل انتهاء العرض بدقائق.. وحين انتهى خرج مسرعًا.. ورأى ما حدث! لكنه منع الذهول أن يتلبسه.. وجاء بها سريع لهنا.. جسده متمرغ بالسكون.. وهو بلا حول ولا قوة.. يحاول أن يَكسو نفسه بأمل كاذب! ستعيش! حقًا ستفعل! بدأ بنهر نفسه بحدة.. «أنا المخطئ كان يجب أن أمنعك يوم أخبرتني أنه مريض.. كيف سمحت لك بالعيش مع مختل؟! كيف؟! كيف؟! كان يجب أن أمنعك.. أين كنت عنك؟! يا حر قلبي عليك!"

بينما الطبيب بسيارته يتجه للمشفى.. فرد من الشرطة اتصل به يطلب حضوره؛ "ياسين» لا يتوقف عن الصراخ، ويضرب الجميع، ولا يستطيعون السيطرة عليه.. مع أنه مقيد اليدين! ولكنه لن يذهب سيطمئن عليها أولًا لقد أنقذته بحياتها! وضميره يُؤنبه.. ربما لو لم يُخبر الشرطة.. كيف لم يُفكر أن الشرطة لا تهُمها إن كان المجرم مريضًا أم لا؟! لقد فاتته ولا يعرف كيف؟! أفٍ عليهم دائمًا يتخذون الطرق الخاطئة ويصلون متأخرًا!

بعد نصف ساعة.. دخلت «سچور» ووالدة «عمار» المشفى.. والدته تسأله بذهول وصوتها يملأه التحشرج:

- هل صحيح ما سمعته؟! أختك! ابنتي أنا! أصيبت بطلق نار! اكذب عليّ، وأخبرني أنه لم يحدث.. لم يحدث أليس كذلك يا «عمار»؟! لم يحدث!

احتضنها بقوة هامسًا:

- ستكون بخير يا أمي.. ستكون بخير.

وأحاط زوجته بذراعه الأخرى، ولا يعلم أي منهما شهقاتها تعلو الأخرى!

❁❁❁❁❁❁

"نقطة حقيرة لا أهمية لها ببداية السطر"

"مني أفعال"

"وهم تشبث بكونه حقيقة"

ما هذه السذاجة.. لقد صدق أحدكم للتو ما حدثتكم به.. ما أدراكم أني أتفوه بالصدق!

لعلي أخدعكم كما أخدع هذا الأحمق.. فأنا لا أظهر إلا بالخداع والحيلة!

اممم.. ربما أكذب.. أنتم لا تمتلكون سلطة عليّ..

ربما أنا شخص آخر يميل للانتحار!

ألم أخبركم قبلًا أني أحب العبث!

❁❁❁❁❁❁

"أربعة أعوام مضت،
ربما نهاية!
ربما بداية!
"قلبان بالألم يتسامران،

هذه أول خطوة تخطوها قدماه خارج أسوار المصح.. الآن فقط يحمد الله أنهم بالداخل منعوه من الانتحار.. فكيف كان سيقتل نفسه دون أن يراها؟.. وكأنه أدرك للتو أن رؤية قبر حبيب ميت هي بحد ذاتها حياة! فقط لو كان يعلم أنّ آخر مرة.. احتضنها، نظر لها، أمسك يدها.. أنها ستكون آخر لحظة له معها.. لربما احتضنها، نظر لها، أمسك يدها.. حد الشبع.. مع أنه لا يظن فلا شبع منها!

أهدر حياته عندما خرجت منه طلقات رصاص للسعادة! فكانت النتيجة أنه تلقى طلقات من الألم لقلبه، وللآن لم تنتهي.. وسكنته روح من الأتراح.

تحرك مُتجهًا لقبرها.. النوم هو راحة جميع البشر.. أما هو فراحته بضريحها.. فلا حياة ولا ملاذ له الآن إلا هو!

يُحاوطه شعور عصيانه للسماء فأعلنت غُربتهُ بها.. ولفظته الأرض.. هو السبب.. هو من وأد حياته بيده.. لقد ركد الحزن عند شاطئ قلبه، ولم يتزحزح.. فليُخبره أحد أي أحد كيف لبقايا روح أن تُلملم حزنًا يتربص بها؟ لم يعد يُقاوم مصيره.. بل يتلقاه باستلام.

عطرها اختفى لم يعد يتشممه ويريد أن يغمر أنفه بعطر قبرها!

وصل، وارتسمت على شفتيه ابتسامة حلوة.. اشتاقت لها روحه.. جلس على ركبتيه ملاصقًا لقبرها.. ونظر لدقائق لاسمها المحفور يتأكد أنها حقًا هي! حتى مد يده يتلمسه بحنان.

الجنون هو ما يُصيب الرجال عندما يفشلون في الحصول على الحب..

عندما يتعثرون بطريق الوصول إليه.. عندما يختفي الحبيب فجأة.. وهذا ما حصل! أصابه الهذيان، فقام بتعثر يمشي حول القبر.. يتشممه بجنون كمدمن يبحث عن مُخدر كي تعود له راحة العقل.

هو لا شيء.. جسد ميت فوق الأرض.. روح حية تحت الأرض.. توقف يلهث من الجهد الذي بذله.. ونظر للسماء.. وصاح بصوت مرير:

- أرجوك أريد الموت.

وبأصابع يده بدأ يحفر بالأرض جوارها.. يحفر بأقصى قوة يمتلكها.. كي يصنع تجويفًا يحتوي جسده.. وهو يصرخ «لمَ مُجرد قبر يرفض أن يأويه؟!"

والثلاثة الموكلون بمراقبته.. يُناظروه بحيرة.. اتصل أحدهم بطبيبه ليُخبرهم ماذا عليهم أن يفعلوا؟.. فأخبرهم أن يتركوه.

أكمل الحفر، ووضع جسده بالتجويف.. يتحدث إليها بكلام غير مترابط.. وعندما تذكر ابنتها.. قال بإصرار غريب:

- سأذهب غدا لأرى ابنتك.. سأحبها كما تُحبينها.. والله سأفعل.. أنا آسف لأني دائمًا ما كنت أُخبرك أني لن أُحبها.

ظل يتكلم حتى نام.

عيناه تُجسد صورة حية للموت.. ملامحه تنسج خيوطًا من الألم.. ووجهه أصبح لوحة من العذاب المنطوق الذي يدمي القلب..

راحة تتمناها، وتتلهف لها روحه وجسده يرى أنه لا أمل ليتنعم بها..

لمَ لا يُدركنا الموت عندما نكون في أمس الحاجة إليه؟!

ولمَ تتشبث بنا الحياة عندما تعافها أرواحنا؟!

وعندما حل الليل.. أخرجه المراقبون من الحفرة التي صنعها.. وأعادوا ردمها.. وأعادوه لمنزله.

الباب لا يتوقف عن الطرق.. فذهبت «حنان» لتفتحه باستغراب وتثاقل.. فلا أحد يطرق بابهم بهذا الشكل! و«عمار» وزوجته بالداخل.. فتحت الباب فاغرة فيها توشك على نهر من يطرق بهذه القوة.. لكنها توقفت يغشاها

الذهـول مِـن الطـارق! ظلـت تنظـر لـه متسـعة العينـين.. ألجمتها صدمـة رؤيته فلـم تسـتطع النطـق! وعقلهـا يُـردد بصدمـة "كيـف؟! مسـتحيل!" دقائـق مرت بصمـت مقيـت.. حتـى أزاحـه هـو.. يطلـب ابنتـه.. هـل جنـت أم أنّ ما سـمعته صحيـح؟! يطلـب حفيدتهـا! صوتـه ارتفـع وهـو يـردد أنـه يريـد ابنتـه.. نارهـا التـي لا تنطفـئ ازدادت قـوة واشـتعالًا، فلـم تسـتطع منـع نفسـها مـن الصيـاح بـه بغضب مسـتعر:

- تريـد ابنتـك! ومـن يُعيـد إلي ابنتـي؟! هـا مـن يُعيدهـا وقـد قتلتهـا بيـدك أيهـا القـذر! لقـد كانـت تُحبـك! حتـى أنـا أحببتـك كابنـي! وهذا مـا تُجازيهـا به!

لكـن صياحهـا لم يُخفـف نيرانهـا فخلعـت مـا بقدمهـا تضربـه.. تـضرب بـلا هـدف.. لا تـرى أيـن يحـطُ حذاؤهـا عليـه.. سـمعت همسًـا يخـرج منـه.. أنـه يُحبهـا أيضًـا.. فـازدادت اشـتعالًا، وزادت مـن قـوة يدهـا في ضربه..حتـى تعبـت.. وتوقفـت تنهـت.. وصرخـت بـه بحـدة وشراسـة.. تـزأر بالقـول:

- لـو كنـت تُحبهـا لتركتهـا تعيـش حياتهـا بعيـدًا عنـك.. لأجبرت نفسـك على الابتعـاد.. لَـما تزوجتهـا مـن الأسـاس أيهـا الحقـير.. تريـد ابنتـك! بـأي حـق؟! إنها لسـفاهة مـا تُطالـب به!

جاء «عمار» من الداخل على الصوت العالي يقول بقلق:

- ماذا هناك؟.. أنت!

أَبعـد والدتـه عنـه، ونـادى لزوجتـه بصـوت مرتفـع؛ فخرجـت مسرعـة.. وأخذتهـا للداخـل تحتضنهـا وتُحـاول تهدئتهـا:

- هوني عليك يا أمي.. لن يحدث شيء.

- هـل سـمعت يـا "سُـچور".. يُطالـب بابنتـه! بـأي حـق؟! كيـف أخرجـوا مجـرم مثلـه؟! كيـف يعيـش هـو؟! وابنتـي تمـوت! كيـف؟!

بالخـارج.. وقـف «عـمار» ينظـر لـه بصمـت.. التحجـر أصـاب وجهـه.. عيناه تنضـح بـالألم.. والآخـر يُماثلـه ألمًـا بـل أشـد..

يُطالـع «عـمار» وجـه «ياسـين» الغريـب.. كيـف تعرفـت عليـه أمـه وهـو بالـكاد فعـل؟! تنفسـه الـذي كان عـاليًا حـادًا انتهـى وهنًـا.. وجاهـد كي تخـرج منـه الأحـرف:

- متى خرجت؟ ولمَ خرجت؟

- البارحة.. لا أعلم سببًا لخروجي.

ثم أردف:

- أريد ابنتي.

لا يستحق أبدًا حتى مجرد لمحها من بعيد.. رد "عمار" بجمود يُكابد اختناقه:

- ما الذي جاء بك إلى هنا؟ ليس لك شيء هنا.. ابنتك بوصاية جدتها، ولن تستطيع أخذها حتى لو رفعت قضية.. اذهب.. فأمي مازالت تعيش حالة من اللاتصديق.. ولا أريد أن أزيد الأمر عليها برؤيتك.. غادر.. هيا غادر.

نزل «ياسين» على الأرض يشد ساق «عمار» كالأطفال، وينوي تقبيلها:

- أرني إياها.. أتوسل إليك.

ابتعد «عمار» عنه سريعًا.. كيف يشفق عليه؟! ومن يكون له ليشفق عليه؟ قال أخيرًا بمشاعر متناقضة:

- سأريك ابنتك.. لكن ليس الآن.. ولا أعلم متى؟ حين أستطيع سأريك إياها.

تحرك "ياسين" منكس الرأس مُتجهًا لقبرها.. لكن كيف سيذهب لها وهو بهذا الشكل المقرف؟! لا بد أنها قرفت منه بالأمس! فندوبه ظاهرة للعيان! وملابسه تنبعث منها رائحة تشمئز منها الأنوف.. منذ متى لم يستحم؟! إنه لا يتذكر.. فقد كانوا كل عدة أيام يُكرهونه في المصح.. سيذهب لمنزله أولًا يستحم.. ويُزيل هذا الوسخ الملتصق به.. ويُخفي تشوهه.. ويرش عطرًا جميلًا.. ويشتري أزهارًا قبل الذهاب لها.. لكنه التفت ثانية.. يسأل عن اسم ابنته فهو لا يعرفه!

- اسمها "نور".. رجاءً غادر.

من قريب كانت «فرح» تراقبه بقلب مكلوم.. للآن لا تصدق أن هذا هو شقيقها.. لا يزيد عن كونه خيالًا معتمًا.. طوال هذه السنوات، لم تره ولو مرة واحدة.. كلما ذهبت لزيارته كان يرفض رؤيتها.. فلم يكن متاح لها سوى الاستفسار من طبيبه عن حاله.. حتى ابنته لم ترها قط، ولا تملك

الجرأة لطلب رؤيتها.. بل وكيف ستنظر لها؟ كيف تفعل؟ والذنب يكوي أحشاءها.. لو أخبرت «نيار» حقيقة شقيقها من البداية.. لو أخبرتها أنه مجرم.. لو بذلت جهدًا لتمنعها من الزواج به.. لما حدث ما حدث.. فقد لو.. آهٍ، كم تكره هذه الكلمة! متى سيكتفي الذنب من الدوران بعائلتها؟ هل كتب عليها أن تحتل مكان شقيقها بشعوره بالذنب؟ يا إلهي! متى ستنتهي هذه الدوامة؟ وماذا الآن؟ سيكتب عليها مراقبة «ياسين» ليل، نهار.. وماذا إن وافق «عمار» وجعله يرى ابنته.. هي لن ترافقه.. مستحيل! كيف ستنظر ل-"عمار"، وقد وصاها على شقيقته.. ألم يطلب منها أكثر من مرة أن تُخبره أي شيء تعرفه.. وهي خذلتهما معا؟.

لم يُخلق الحب لنَعبث به.. بل خُلق ليعبث بنا..

لم تُخلق المشاعر لنُطوقها.. بل خُلقت لتطوقنا..

وقف «عمار» ينظر بشرود للعمارة التي بها عيادة الطبيب «عمر».. يريد أن يعلم إن كان لا خطر على «نور» إن تركها ترى والدها.. لا يُريد أن يُعيد الخطأ مرتين! صعد وطلب رؤية الدكتور بخصوص المريض «ياسين كمال صادق».. ثوان وخرج الطبيب يُناظره باستفسار.. فعرف عن نفسه.. ثم قال مباشرة:

- لقد خرج "ياسين" بالأمس.. هكذا خرج ببساطة! هل شفي؟ لقد طلب رؤية ابنته.. هل هناك احتمال إن لم أرضَ أن يخطفها مثلًا؟

- لا أستطيع الجزم.. لكنه لم يعد هناك حاجة لحجزه لذا خرج .. إن بقي كانت ستسوء حالته أكثر.. هل تعلم لقد حاول قتل نفسه خمسة عشرة مرة في السنة الأولى بالعض؟! أنا أتفهم أن الأمر صعب جدًا عليكم.. لكنها طبيعة الحياة! ولا تخف عليها إنه مراقب وبشدة من عدة أشخاص ليلًا ونهارًا.. إنه يائس.. الخوف على نفسه فقط.. لكن قليل من الحذر لا يضر.. ربما يراها مرة أسبوعيًا وتحت أنظارك بالطبع.. هل علمت أنه قضي الأمس كله بقبر أختك؟.. ونام هناك.. فاتصل بي القائمون على مراقبته

يطلبـون رأيـي لإخراجـه.. وأجبتهـم بالرفـض.. لكنهـم أعـادوه لمنزلـه.. ربمـا خافوا، لا أعلـم تحديـدًا..

أمـه تذهـب يوميًـا كل صبـاح لقبرهـا.. سـتجن لـو رآتـه.. انتبـه لـه، وهـو يُكمـل:

- لا تُطالبـوه بمـا لا يقـدر عليـه! وهـل تعافيتـم أنتـم ليفعـل هـو؟! مـاذا تُريـد مـن شـخص مُنعـت عنـه زوجتـه في موتهـا؟.. مـوت الفجـأة أصعـب أنـواع المـوت.. الزمـن أحيانًـا لا يسـتطيع محو أثـره بل يزيده اشـتياقًا.. لقد أصبح هشًّـا جـدًا مثـل ندفـة الثلـج.. إنْ مـر عليـه ثِقـل سـيفتك بـه! لذا اتركـوه لم يعـد هناك خطـر منـه عـلى أحـد!

صباحًـا يخـرج "عـمار" لعملـه.. السـاعة تُقـارب العـاشرة.. وجـد «ياسـين» يسـتند عـلى جـدار منزلهـم.. فاتجـه إليـه.. أمسـكه مـن ياقـة قميصـه وجـره بعيـدًا.. وهتـف بـه بحـدة:

- ألم أخبرك أن لا تأتي إلى هنا ثانية؟.. إن رأتك أمي لن ترى ابنتك أبدًا!

- أريد شيئًا منها.

أبعـد يـداه عنـه، ونظـر لـه بحـيرة.. هيئتـه تُفطـر القلـب لكـن ليـس قلبـه هـو! إن رآه الألم سيشـيح بوجهـه عنـه كي لا يزيـده ألمًـا! حليـق الشـعر.. لا إنـش بوجهـه سـليم.. كلـه نـدوب.. مشـوه! حتـى ذراعيـه كلهـا جـروح.. كيـف سـيُريه «نـور» وهـو بهـذا الشـكل؟! إنهـا طفلـة وستخـاف منـه بالتأكيـد! المرة السـابقة لم يسـتطع التمعـن بـه.. والآن أيضًـا لا يسـتطيع التعاطـف معه.. قال باسـتغراب:

- عما تتحدث؟

- لم أجـد شـيئًا لهـا بغرفتـي.. لا صـور.. لا ملابـس.. لا شيء عـلى الإطـلاق.. أنـا أنتظـر منـذ الليـل هنـا.. أرجـوك.. أريـده الآن.. لا تتأخر.

لم تـترك أمـه أي شيء يخصهـا في بيتـه.. وعـلى مـا يبـدو أنـه لـن يسـتطيع إقناعـه بالمغـادرة.. حتـى يـأتي بـشيء يخصهـا.. فقد يصنـع فضيحة! فزفـر بتعب، وعـاد للداخـل.. فاتجهـت «سـچور» لـه، وقالـت باسـتغراب:

- هل نسيت شيئًا؟

- أريدك أن تدخلي لأمي بالمطبخ، وألهيها بأي شيء لأقصى ما تستطيعين.. لا أريد أمي أن تصعد للأعلى حتى أنزل.

فتحت فمها لتسأل عن السبب، فقال مسرعًا:

- سأخبرك لاحقًا.

وصعد الدرجات بلا صوت، وفتح غرفة «نيار».. يكابده الاختناق كلما فتحها.. فراقها أحدث فراغًا بداخله.. لا يُملأ بإنسان آخر.. ماتت واصطحبت ماهية الحياة معها.. الحياة ماهي إلا خط، متعرج كان، مستقيما كان، بأي شكل.. بالنهاية هو خط يبدأ وينتهي، يختلف طوله من إنسان لآخر وخطها انتهى! قاوم الغصة التي بحلقه.. فتح خزانتها يُخرج شيئًا من ملابسها المرصوصة بعناية.. والدته تهتم بالغرفة ونظافتها وترتيبها يوميًا كأنها تُجهزها لاستقبالها! كل شيء كما تُحب.. كثيرًا ما تأتي والدته وتنام هنا بغرفتها حتى هو يفعل! نظر للثياب لا يعلم أيها يأخذها له.. أخرج وشاحًا باللون الأسود دائمًا ما كانت تُحب ارتداءه.. وعباءة بلون القرفة.. اتجهت عيناه لمصحفها.. لم تكن تقرأ إلا فيه.. يده توقفت في منتصف الطريق له.. والدته أصبحت لا تقرأ إلا فيه إن أخذه ستعرف.. لذا أبقاه بمكانه.. تذكر أنه يحتفظ بخاتم زواجها بغرفته.. خرج سريعًا، وأغلق الباب برفق، واتجه لغرفته.. وأخرجه من العلبة التي يحتفظ به فيها.. صورة! لكن والدته تحتفظ بصورها كلها بصندوق واحد، وتعرفها واحدة واحدة.. لقد منعته هو شخصيًا أن يحتفظ بصورة لها.. لذا آثر عدم فعلها سيرسل له الصور التي على هاتفه ويكفي.. فخرج سريعًا كي لا تُلاحظه أمه.. وجد «ياسين» ما زال واقفًا مكانه، فأعطاه ما أخذه.. وشاهده وهو يلف الوشاح على رأسه.. ووضع الخاتم بإصبعه الأصغر.. ويغمض عينيه، يتشمم العباءة.. فتح فمه يُخبره أن يُعطيه هاتفه كي يُرسل له الصور.. لكن «ياسين» تحرك مُغادرًا.

طوال الأربع سنوات عقل «ياسين» لا يفعل شيئًا إلا أن يتذكر جميع مُحادثاته مع زوجته منذ عرفها.. كل فعلٍ قامت به يُشاهده داخل عقله، كل كلمة همست بها، كل حرفٍ خرج من فمها .. يُعيده مرارًا وتكرارًا بلا

ملل.. لا ينام إلا على كلامها معه.. لا يصحو إلا على صوتها تُحدثه.. لا يسمع .. لا يرى.. لا يتكلم.. كل ما فيه مُبرمج على التذكر.

يجلس "ياسين" على الأرض يحتضن قبرها! حقًا يحتضن قبرها! ويُمرر يده على اسمها المحفور عليه.. ويُتمتم بلا توقف.. ودموعه تشاركه عدم التوقف:

- اليوم أحضرت لك زهوراً ذهبية وسوداء.. لقد تعبت حتى وجدتها.. هي تعجبك! أليس كذلك؟! لقد أعطاني أخاك وشاحًا لك.. انظري، أنا أرتديه الآن ولن أخلعه مُطلقًا.. أشعر بالخواء يا وردة بعد فراقك لي! أريد مرافقتك.. دائمًا ما كنت تقولين أنك لن تتركيني.. لقد تركتني وحدي لما لا تأخذيني معك! لا زلت أنتظر أن تمسكي بيدي وتأخذيني حيث أنت.. أنتظر منذ وقت طويل يا "نيار"! لا تتأخري أكثر لقد تعبت الانتظار!

ظل يتكلم حتى غلبه النعاس.

***

اليوم سيرى ابنة «نيار».. لقد أخبره «عمار» أن ينتظره بهذه الحديقة، والأطفال حوله كثيرة.. وجد «عمار» قادمًا باتجاههم حاملًا إياها على كتفه وزوجته تُرافقه.. عند اقترابهم أنزلها «عمار» قائلًا:

- "نور" حبيبتي سلمي على عمو إنه صديق لي.. سلمي عليه.

جلس «ياسين» على ركبتيه، واحتضنها برفق يشمها.. مُمررًا أصابعه بشعرها المتشابك الذي يُشبه شعره، وقال بهمس لا تسمعه.. فلم يعبر شفته حتى ليصل لأذنه هو.. لكنه داخله يُقطعه «رحلت أمك، وتركتني أختنق لذكراها يا «نور».. أنا المُخطئ نعم .. لكنه قاسٍ، قاسٍ.. لكني أستحقه.. رحلت أمك وتعطل قلبي يا «نور»!».

هذه المرة همس بصوت وهو ينظر لملامحها:

- أنت تشبهين "نيار".

- هل تعرف أمي يا عم؟

لكنه كان بعالم آخر يسمع حديثًا آخر»هناك احتمال أن تُحب جنيني.. أنت قُلت إن كانت أنثى سأحبها قليلًا.. أما أنا فأحبها منذ عرفت أنها بداخلي» فردد ما يسمعه:

- أمك تحبك منذ اللحظة التي عرفت بوجودك.. أُحَبتكِ.

أعادت سؤالها ثانية.. فتمتم:

- "ياسين".. "ياسين" هو اسمي.

أخذها «عمار» من بين يديه وهو يستشعر غرابة حديثه.. قد يفلت لسانه ويتكلم.. لكن المهم أنه فعل ما طلبه منه فهيئته مهندم.. ووجهه بلا ندوب.. لا يعلم كيف؟! لكن المهم أنها اختفت!

اقترب «ياسين» من «سچور»، وقال:

- أنت تُشبهين "نيار" بملابسك هذه!

نظرت له "سچور" بتوجس، فاقترب «عمار» وأزاحها خلف ظهره.. إنه ليس مُخطئ بما قال.. ملابسها تُشبه ملابس «نيار» إلى حد ما حتى طريقة لف حجابها.. بعد وفاة أخته.. تغير الجميع.. أصبحوا يضحكوا بحساب! حتى بسمتهم فقيرة! وكأن أخته رحلت، واصطحبت معها روح البسمة! موتها أحدث عطبًا داخلهم جميعًا.. فتغيرت ملابسها جزريًا وتركت العمل! وحين سألها عن السبب.. قالت:

- لقد خِفت على نفسي.. فالموت قريب!

يجلس "ياسين" كعادته بقبرها كأنه رجع طفلًا صغيرًا، لا يفقه شيئًا سواها هي.. يريد أن يرتاح ولا راحة له إلا بموته! قال يُخاطبها كأنها تسمعه وهو يراها!

- لقد رأيت ابنتك اليوم.. أنت تُحبينها أنا سأحبها لأجلك.. لكني كرهت شعرها.. تمتلك زغبًا ملفلفًا مثلي.. لقد كرهته لماذا لم تأخذ شعرك كباقي ملامحك؟! لقد أحضرت ماء.. المكان هنا مغبر وأنت تُحبين النظافة..

بلّل قطعة القماش التي أحضرها ليُنظف بها.. وبدأ بتمريرها على القبر..

حتى انتهى.

- راضية الآن؟ إنه نظيف.. سأُنظفه كل يوم.. هل أنت سعيدة عندكِ؟! هل تبتسمين وتضحكين؟ أنا لست سعيدًا هنا.. لم لا تأخذيني عندك؟ أطلب منك كل يوم أن تأخذيني.. هل أنت غاضبة مني؟ لهذا ترفضين؟ لا تغضبي.. عندكم لا يشعرون بهذه الأشياء.. إذا أنت لست غاضبة مني أليس كذلك!؟

سكت لبرهة.. ثم أردف بتشتت:

- أنا جائع يا "نيار"!

جالسًا يستند على جذع شجرة.. يتأمل طفلته! طفلته التي لم يُشارك فيها سوى بنطفةٍ منه! كُتبت بعد وفاة «نيار» بشهر، فلم ترضَ جدتها أن تكتبها بنفس الشهر الذي توفت به أمها.. هو لا يستطيع مشاركتها اللعب، فجدتها حاضرة.. وقعت على رأسه ورقة من أوراق الشجرة.. إنه الخريف! "نيار» تُحب الخريف إنه فصلها المفضل.. ابنته الآن تأكل المثلجات.. تأمل وجهها الملطخ بنكهات المثلجات المختلفة.. تلعب بالبالونات «أحمر، أخضر، أزرق، أصفر.....» فأغمض عينيه بحسرة وألم وهو يتذكر أحاديثهما ذات مرة عندما سألها عن لونها المُفضل.. فقالت:

- الأسود.

- كيف؟! لماذا؟! غريب أن تُفضل أنثى هذا اللون! يا للكآبة!

حينها ردت وابتسامة جميلة تُزين ثغرها:

- كآبة! مُخطئ.. الأسود لون شفاف! يعكس روحك التي لا يراها سواك.. يُريك أسوأ ما بك من صفات لذا عند النظر للون الأسود أرى ما لا أحب بنفسي فأحاول تجنبه.. إنه كضمير ثانٍ بالنسبة لي.. الأسود سيد الألوان.. يملك بهاء لا يمتلكه لون آخر.. يدعوني للحياة بطريقة طيبة.. إنه باختصار دعوة للحياة.

لم ينتبه أن لسانه ظل يُردد.. دعوة للحياة.. دعوة للحياة.. دعوة للحياة.

والأوراق المتساقطة.. تُخبر من يقع نظره عليها "هنا كانت حياة!